مجموع مقالات

الداعية الجزائري / جمال زواري أحمد

فهرس المقالات

التسلسل	العنوان	رقم الصفحة
١	همتك على قدر همك	٤
٢	شواهد الاقلاع الحركي	٢٠
٣	أثر السريرة على السيرة	٣٥
٤	المكونات الأساسية لنجاح التجربة التركية	٤٠
٥	ومضات في التعامل مع الفتن	٤٨
٦	ورد المحاسبة الدعوي	٧٨
٧	أوجه الشبه بين الإمامين البنا وابن باديس	٨٣
٨	نواسف الفهم السليم	٩١
٩	الضوابط التربوية لمجالس الاجتماعات	١٠٢
١٠	معرفة الشر	١١٣
١١	ميزان النقد	١١٥
١٢	الوقت في قاموس الدعوة والدعاة	١١٨
١٣	دوام التحرك الإيجابي	١٢٢
١٤	تفرغ الكفايات	١٢٥
١٥	من هنا يؤتى الحق	١٢٨
١٦	كبيرة الإعراض عن القراءة	١٣٠
١٧	ما أحوجنا لمن يأخذ بنا لمجامع الطرق	١٣٤
١٨	دواعي الظهور	١٣٦
١٩	شروط التوثيق	١٣٩
٢٠	تقاسم الأعباء	١٤٢
٢١	الانفتاح الإيجابي	١٤٤

التسلسل	العنوان	رقم الصفحة
٢٢	ما هو رصيد تأهلك الدعوي؟	١٤٧
٢٣	أصول مواحق الطاعات	١٥٣
٢٤	الواقعية الدعوية	١٦٧
٢٥	السلبيون	١٧٠
٢٦	البطالة الدعوية	١٧٣
٢٧	حاجتنا إلى فقه الواقع	١٧٧
٢٨	ومضات من حياة الشيخ محفوظ النحناح	١٨٣
٢٩	سمو النفس مهر الدعوة	١٩١
٣٠	الدخلاء	١٩٤
٣١	عشارية معادلات النجاح الحمساوية	١٩٦
٣٢	التيه عند الرتب العلية	٢٠٢
٣٣	الرائد لا يكذب أهله	٢٠٧
٣٤	الشيخ محفوظ نحناح ثراء التجربة	٢١٠
٣٥	إذا أردت أن يضحك الله لك فقدم الثمن	٢١٥
٣٦	نريد أن نمن على الذين استضعفوا	٢٢٠

(١) همتك على قدر همك

إن النفوس تتفاوت في ميزان الله عز وجل ، وكذلك في ميزان الحياة الدنيا ، فهناك نفوس وأرواح تهيم حول العرش وأخرى تحوم حول الحش ، كما قال ابن القيم رحمه الله :(فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة ، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها ، كما يقع الذباب على الأقذار).

والهمم سبب هذا التفاوت ، فكلما كانت الهمة أعلى وأسمى ، كلما كانت المكانة أرفع وأشرف ، وكلما كانت الهمة أحط وأسفل ، كلما كانت القيمة أوضع وأنزل ، فالهمة هي التي تصنع القيمة صعودا ونزولا ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :(العامة تقول قيمة المرء ما يحسن ، والخاصة تقول قيمة المرء ما يطلب).

والهمم الصانعة للقيمة والمكانة في الدنيا والآخرة تكون على قدر ما يحمله أصحابها من هم ، فطبيعة الهم ونوعه ومجاله ، هي من تحدد مستوى همة المرء ، فمن كان همه صلاحا وإيمانا وتقوى وعملا وعلما وإصلاحا ودعوة إلى الله واهتماما بقضايا أمته ، تكون همته وأهميته على قدر هذا الهم ، فبقدر ما تكن مهتما وذو هم ، تكن هامّا وذو همة ، كما روي أن عبد الله بن عمر وعروة بن الزبير ومصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان اجتمعوا بفناء الكعبة ، فقال لهم مصعب : تمنوا ، فقالوا له : ابدأ أنت ، قال : ولاية العراق وتزوج سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، فنال ذلك ، وتمنى عروة الفقه وأن يؤخذ عنه الحديث ، فنال ذلك ، وتمنى عبد الملك بن مروان الخلافة فنالها ، وتمنى عبد الله بن عمر الجنة.

ومن كان همه :(لقمة لينة ومركبا فارها وحلّة جميلة ونومة مريحة وامرأة وضيئة ومظهرا كاذبا ولقبا أجوفا) كما قال الإمام البنا رحمه الله ، تكون همته وقيمته وأهميته على قدر هذا الهم ، وكما قال أبو نواس وهو يتحدث عن هذا الهم المنحط الصانع للهمة الوضيعة:

إنما الدنيا سماع ومدام ونـــدام

فإذا فاتك هــذا فعلى الدنيا السلام

وقد صنف حاتم الطائي صاحب هذا الهم في قائمة الصعاليك لمّا قال :

لحى الله صعلوكا مناه وهمّه من العيش أن يلقى لبوسا ومطعما

وقول الآخر :

إذا ما الفتى لم يبغ إلا لباسه ومطعمه فالخير منه بعيد

لذلك فإن أصحاب الهمم العالية كانوا يعتبرون هم المطعم والملبس دون سواهما سبّة وإهانة ودنو مقام ونزول همة ، لا تليق بأصحاب المروءات ، فقد غضب الزبرقان بن بدر من الحطيئة لمّا قال فيه :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها وأقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

واشتكاه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فجعل عمر يهون من الأمر عن الزبرقان ويقول له: إنما هو معاتبة وليس هجاء ، فقال الزبرقان : أتبلغ بي مروءتي وهمتي أن أقعد فقط للطعام والكساء.

كما كانوا يعتبرون صاحب هذا الهم والهمة ليس جديرا بالحياة أصلا إذا عاش على هامشها ، كما قال قطري بن الفجاءة :

وما للمرء خير من حياة إذا ما عدّ من سقط المتاع

وهو نفس ميزان الرافعي رحمه الله لمّا أكّد أنه :(إذا لم تزد شيئا للدنيا ، فأنت زائد على الدنيا).

فمرتبة سقط المتاع أو الزيادة على الدنيا ، هي مرتبة الإنسان المهدور الخالي الوفاض الفارغ السجل المنعدم الإنجاز ، فكلما كان نصيبك من الهدر في وقتك وأخلاقك وإمكانياتك ومهاراتك وجهدك ومالك كبيرا ، كلما كان استحقاقك لهذه المرتبة السافلة والهم السلبي والهمة المنحطة كبيرا كذلك ،

مقوّمات الهمّة العالية :

هناك عشارية من العوامل والمقوّمات ، من شأنها كلّما توفرت في تفكير الفرد وسلوكه وفعله وممارسته ، صنعت له همّا إيجابيا ، ومن ثم همّة عالية ، هذه المقومات العشرة هي :

١) ـ قوّة الإرادة وصحّة العزيمة :

فالانطلاقة الصحيحة للوصول إلى همة عالية في أمري الدنيا والآخرة ، هي ضرورة توفر إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف ، وإن تطرق إليها سرعان ما يتم تجاوزه وتقويتها من جديد ، بعيدا عن الأحلام الوردية والأمنيات الخيالية التي ليس لها دليل عملي يصدقها ، وهي الإرادة التي أشار إليها الإمام البنا رحمه الله كأحد أهم مقومات القوة النفسية العظيمة الصانعة للتغيير الإيجابي على مستوى الفرد والمجتمع والأمة :(إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف) ، ومع الإرادة القوية لا بد من عزيمة صحيحة ، لتكون الانطلاقة نحو القمة والتميز جادة ، كما قال ابن القيم : (إذا طلع نجم الهمة في ظلام ليل البطالة ، وردفه قمر العزيمة ، أشرقت أرض القلب بنور ربها).

فالإرادة هي ما يدفعك للخطوة الأولى على طريق أهل الهمم والقمم ، أما العزيمة فهي ما يبقيك على هذا الطريق ، حتى الوصول إلى منتهى الغاية ، ومن فقدهما(الإرادة والعزيمة) ، فلا يحلم بأن يكون من السابقين وأهل مرتبة الأولية في أي مجال من مجالات الحياة .

٢) ـ وجود الحرقة وتوهّج الشغف :

ومن المقومات التي تكون وقود ا لصناعة الهمة لدى الفرد كذلك ، ضرورة توفر الحرقة ووجود الحرارة داخل قلبه وكيانه ، فتجعله كالمرجل ، لا تتركه يهنأ ولا يستكين ، بل تدفعه دفعا إلى سلوك طريق أهل الهمم والقمم ، فيكون بها جفولا من منطق أصحاب العقول المستريحة ، الذي عبّر عنه الإمام أحمد رحمه الله ، وهو يخاطب أبا سعيد الحداد الواسطي لما دخل عليه الحبس قبل الضرب، فقال له: يا أبا عبد الله عليك عيال، ولك صبيان وأنت معذور، كأنه يسهّل عليه الإجابة. فقال له الإمام

أحمد : أأنجو بنفسي وأضر بهؤلاء؟؟ (وكان طلبة العلم يتجمعون حول السجن ، ينتظرون رأي الإمام ليكتبوه) : إن كان هذا عقلك يا أبا سعيد فقد استرحت.

وحرارة الباطن هذه من علامات فتح الله على العبد ، وفقدانها أو خفوت جذوتها من علامات الخذلان ،

كما قال ابن عطاء الله السكندري :(إن علامة الفتح للعبد ثوران الحرارة في الباطن).

هذه الحرقة هي التي تشكل قوة الدافعية لدى الفرد نحو الهم والهمة والقمة .

ومع وجود هذه الحرقة والحرارة الداخلية ، الصانعة للتسخين الملهم والدافع نحو الهمة ، لا بد من توهّج الشغف لدى الساعي نحو معالي الأمور ، بحيث كلما ازداد شغف المرء واهتمامه بما هو وقود للهمة العالية ، كلما كان له نصيب وافرمنها ، ويعرف شغف الفرد بذلك من عدمه ، من خلال حديثه والمواضيع التي يطرقها ، ومن خلال القضايا الشاغلة لباله وتفكيره ، ومن خلال الأعمال التي يبذل جهده للقيام بها ، ومن خلال الرفقاء الذين يخالطهم ويسير معهم ، ومن خلال الكتب التي يقرأها ، وغيرها من الدلائل ، فإذا أردت أن تتأكد هل أنت على طريق أهل الهمم العالية ، أم أن ذلك مجرد أمنية لا يقوم عليها دليل ؟

فأنظر هل أنت شغوف بما فيه الكفاية ، بما يوصل إلى علو الهمة ؟ وهل الشغف بهذا المعنى دائم لديك ، أم هو مؤقت ؟

فوجود الحرقة وحرارة الباطن أو التسخين الملهم ، مع توهج الشغف بما هو سلما نحو العلياء ، من المقومات المهمة لإيجاد الهم الإيجابي والهمة العالية.

٣) ـ المسارعة إلى الخيرات والفضائل والزيادة المستمرة فيها:

ومن مقومات علو الهمة لدى المؤمن تحديدا ، ومن دلائلها العملية ، المسارعة إلى الخيرات في كل حين ، وعدم تضييع أي فرصة تتاح له في فعلها ، والإقبال على الفضائل ، كما قال الله تعالى وهو يصف أهل الهمم العالية من المؤمنين :(أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ)(المؤمنون٦١).

لذلك كان تفويت فرص فعل الخيرات عند أهل الهمم من أعظم المصائب في الدنيا ، كما سئل أحدهم : ما أعظم المصائب عندكم ؟ قال : أن تقدر على المعروف ، ولا تصطنعه حتى يفوت.

ومع المسارعة إلى الخيرات والاستمرار والمداومة والمنافسة عليها ، يضاف إليها الزيادة المستمرة والصعود الدائم في ذلك ، كما قال ابن الجوزي رحمه الله وهو يتحدث عن بعض صفات أهل الهمم العالية هؤلاء :(إن من الصفوة أقواما منذ استيقظوا ما ناموا، ومنذ قاموا ما وقفوا، فهم في صعود وترق كلما قطعوا شوطا نظروا فرأوا قصور ما كانوا فيه فاستغفروا).

وكما وصف إبراهيم الحربي الإمام أحمد رحمهما الله :(قد صحبته عشرين سنة ، صيفا وشتاء ، حرّا وبردا ، ليلا ونهارا ، فما لقيته يوما إلا وهو زائد عليه بالأمس).

ففيما يتعلق بعلو الهمة في أمر الآخرة والطريق إلى الله تحديدا ، لا بد من المسارعة والمداومة ، فكل الطرق التي يسلكها العبد في الدنيا ، المطلوب فيها التأني والتريّث وعدم العجلة والمسارعة ، وتجد الإشارات الغالبة فيها المادية والمعنوية : قف ، تمهّل ، تأنى ، إلا الطريق إلى الله عز وجل ، فالأفضل فيه المسارعة والمسابقة ، فإن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فأفعل ، والإشارة فيه كما حددها المولى سبحانه وتعالى في كتابه:

(وَسَارِعُوا)(آل عمران١٣٣) ، (فَاسْتَبِقُواْ)(البقرة١٤٨).

كما إن الإسراف في كل شيء مذموم ، إلا في فعل الخيرات فهو ممدوح ومطلوب ، كما قال الحسن بن سهل :(لا خير في الإسراف ، ولا إسراف في الخير).

٤) ـ النجاح في أمر الآخرة والدخول على الله من كل الأبواب:

ومن مقومات علو الهمة ودلائلها العملية لدى المؤمن كذلك النجاح في أمر الآخرة ، وتحقيق أسباب النجاة والسلامة والعافية يوم القيامة ، لأنه ما فائدة همّة ونجاح دنوي مهما كان كبيرا ومدويا ، إذا كانت عاقبته النار ، لذلك كان ميزان السلف رضي الله عنهم ومقياسهم للنجاح والفشل هو أمر الآخرة ، لأنه هو الدائم وما دونه مهما

كان يكون مؤقتا ، فقد سأل حاتم الأصم حامد اللفاف رحمهما الله : كيف أنت في نفسك يا حامد ؟ قال : بسلامة وعافية.

فقال له حاتم : يا حامد إنما السلامة بعد الصراط ، وإنما العافية في الجنة.

كما أنهم كانوا يعتبرون الراحة الحقيقية هي الراحة الأبدية في الجنة ، أمّا ما دون ذلك فهي كلها راحات مؤقتة ، قد تكون نهايتها شقاء دائم ، كما سئل الإمام أحمد رحمه الله : متى يجد العبد طعم الراحة ؟ قال : عند أول قدم يضعها في الجنة.

فالنجاح في أمر الآخرة هو الفوز الحقيقي ، ومن قصرت همته عن ذلك ، فقد خاب وخسر ، مهما كان نجاحه الدنيوي ، كما قال الله تعالى:(َمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ)(آل عمران١٨٥).

ومن دلائل النجاح في أمر الآخرة تغليب كفة الحسنات دائما ، والسعي الحثيث لتثقيلها وترجيحها على كفة السيئات ، لأنه لا همة في أمر الآخرة لمن غلبت وحداته عشراته ، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

ومن دلائلها كذلك تقديم عربونها وثمنها عمليا ، كما روى رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ - رضي الله عنه- قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: (سَلْ) فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: (أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟) قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: (فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ)(رواه مسلم).

ومن دلائل النجاح في أمر الآخرة كأحد مقومات علو الهمة لدى المؤمن ، الدخول على الله من كل الأبواب ، وعدم احتقار أي عمل صالح ومعروف مهما كان صغيرا أو بسيطا ، لأن القطرات المستمرة الكثيرة تصنع جدولا ، والجداول تصنع نهرا متدفقا من الخير ، وقد كان الدخول على الله من كل أبواب الخير هو منهج سيدنا أبي بكر رضي الله عنه وهو سيد أهل الهمم ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :(مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا ؟ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا ، قَالَ : فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا ، قَالَ : فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا ؟ قَالَ

أَبُو بَكْرٍ : أَنَا ، قَالَ : فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ)(رواه مسلم).

فالنفس التوّاقة عالية الهمة ، هي التي يكون منتهى همتها النجاح في أمر الآخرة ، ومن ثم جنة الخلد ، كما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عن نفسه وهمته :(إن لي نفساً تواقة ، ما تمنت شيء إلا نالته ، تمنت الإمارة فنالتها ، وتمنت الخلافة فنالتها ، وأنا الآن أتوق للجنة وأرجو الله أن أنالها).

٥) ـ معرفة قيمة الوقت ومغالبة الأعذار :

لا يمكن لمن لا يعرف قيمة الوقت أن يطمع في سلوك أهل الهمم ، كما لا يمكن لمن يشكو الملل والسآمة ووفرة الوقت ، إلى الحد الذي يجعله يقتل وقته في اللعب واللهو والعبث ، أن يمني نفسه بهمة عالية ، كما قال الإمام البنا رحمه الله :(والمجاهد الذي ينام ملء جفنيه ويأكل ملء ماضغيه ويضحك ملء شدقيه ، ويمضي وقته لاهيا لاعبا عابثا ، هيهات أن يكون من الفائزين ، أو يكتب في عداد المجاهدين).

فالباحث عن علو الهمة والساعي لها بجد ، يكون تعامله مع الوقت وموقفه منه كما يلي :

ـ إدراك أن الوقت هو الحياة ، وأن الواجبات أكثر من الأوقات.

ـ إدراك أنه مسؤول عن هذا الوقت يوم القيامة ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين أكتسبه وفيم أنفقه وما عمل فيما علم)(رواه الترمذي).

ـ أن يملك الغيرة على وقته من أن يذهب أو يضيع سدى.

ـ الندم على تضييع أي جزء من وقته في غير فائدة في دينه ودنياه ، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:(ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه ، نقص فيه أجلي ولم يزدد فيه عملي).

ـ أن يحرص على أن يكون منحناه البياني في صعود دائم إلى الأعلى ، فمن تساوى يوماه فهو مغبون.

ـ أن يجفل من الفراغ والفارغين ، بحيث لا يكون من أهل الغبن في فراغهم وصحتهم ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ) (رواه البخاري).

ـ أن يدرك عاقبة عقوق الوقت ، كما قال أحد السلف :(من أمضى يوما من عمره في غير حق قضاه أو فرض أدّاه أو مجد أثلّه أو حمد حصّله أو خير أسّسه أو علم اقتبسه ، فقد عق يومه وظلم نفسه).

فإذا أردت أن تكون عالي الهمة بحق ، فأعرف قيمة الوقت وأستثمره الاستثمار الأمثل في ما يساعدك على الوصول إلى تحقيق غايتك ، فيومك هو نفس يوم كل الذين وصلوا إلى القمة من أهل الهمم على مدار التاريخ ، فيومهم ٢٤ ساعة كما هو يومك ، إذا ليس من المستحيل أن تصل إلى ما وصلوا إليه .

كذلك من المقومات الصانعة لعلو الهمة والمرتبطة بعامل معرفة قيمة الوقت مغالبة الأعذار ، فلا همة لمن تصرعه الأعذار من أول وهلة ، وتكبّله وتمنع انطلاقته ، حتى إن لم توجد اصطنعها ، بل الساعي بثقة نحو علو الهمة ، يغالب أعذاره مهما كانت ويتجاوزها ، ولا يسلّم لها زمام همته ، أما المستجيب لكل عذر يعترض طريقه ، ويلتفت إلى كل ما يلهيه ، يبقى في مؤخرة القافلة ـ هذا إن كان منها أصلا ـ

وقد أقعدت الأعذار التي تكون في الكثير من الأحيان واهية ومصطنعة ، الكثيرين من الذين يملكون الكثير من مقومات أهل القمم والهمم ، لأنهم لم يستطيعوا ولم يحاولوا ولم يسعوا إلى مغالبة هذه الأعذار وتجاوزها.

٦) ـ الشعور بالمسؤولية ومعرفة الذات :

ومن مقومات علو الهمة كذلك أن يستشعر المرء أنه مسؤول عن ما يجري حوله ، وأنه لا بد أن يكون له دور إيجابي للمساهمة في تغييره وإصلاحه والسير به نحو الأفضل ، فلا يتنصل من المسؤولية ولا يتهرب من أداء دوره كما ينبغي ، كما قال الشاعر :

إذا قيل: من فتى؟ خلت أنني عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

بحيث يبادر ويقضي الحوائج على قدر شعوره بالمسؤولية وعلى قدر همته ، كما قيل لذلك الرجل عالي الهمة الشاعر بالمسؤولية : إن لنا عندك حويجة ، قال : أطلبوا لها رويجلا .

فكلما ارتفع منسوب الشعور بالمسؤولية لدى الفرد ، كلما ارتفع لديه الهم الصانع للهمة ، بحيث لا يتركه تأنيب هذا الشعور وغليانه بداخله ، حتى يدفعه دفعا إلى القيام بالواجب وترك الأثر الطيب والبصمة الإيجابية ، فيتحقق فيه قول القائل :

وكن رجلا إن أتوا بعده يقولون مرّ وهذا الأثر

ومن دلائل الشعور بالمسؤولية الصانع لعلو الهمة ، حراسة الثغر الذي هو فيه ، كما فعل سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما يوم اليمامة ، لما قيل له : احذر أن نؤتى من قبلك ، فقال غاضبا : بئس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قبلي ، فحفر حفرة ولبس كفنه وأمسك سيفه ، وظل يقاتل وينافح عن الثغر الذي هو فيه ، إلى أن أستشهد رضي الله عنه .

كذلك لا يمكن لفرد أن يكون من أهل الهمم وهو لا يعرف من هو ؟ وماذا يريد؟ ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، فالانطلاقة الصحيحة نحو الهمة والقمة ، لا بد أن تنطلق من معرفة دقيقة بالذات أولا ، وإلا فمصير الجاهل لذاته ويريد النجاح في أمر الهمة الفشل الذريع عند أول محاولة ، ويكون مصيره كمصير الشاعر العربي الطرماح بن حكيم الطائي ، الذي قعد للناس وقال : اسألوني عن الغريب (غريب اللغة) فقد أحكمته كله ، فقال له أول رجل : ما معنى الطرماح (اسمه) ؟ فلم يعرفه.

٧) ـ وضوح الهدف ومصاحبة أهل الهمم :

ومن المقومات المهمة لصناعة الهمة العالية أيضا وضوح الهدف ، بحيث كلما كان الهدف أكثر دقة ووضوحا ، كلما كان السير نحو القمة جادا وحقيقيا وواقعيا ، فوضوح الهدف يكن سببا لوضوح معالم السير ، والعكس فكلما غاب الهدف أو كان مضطربا وغامضا ، كلما حرم صاحبه من سلوك طريق أهل الهمم ، أو كبّله ومنعه من الانطلاق الصحيح والسليم نحوه ، لأن الهدف هو حلقة هامة من سلسلة الوصول إلى الفعل والإنجاز الذي هو من وقود تحقيق علو الهمة ، فالأفكار السليمة تصنع الأهداف الواضحة ، وهي بدورها تصنع الخطط الناجحة ، التي بدورها تصنع البرامج الناجعة الصانعة بدورها للأفعال والأعمال المثمرة .

فالأهداف المهلكة والقاتلة والحاجزة عن سلوك طريق أهل الهمم ، والحارمة من الوصول إلى القمم ، هي الأهداف التي تكون غامضة الغاية ومثالية الوسيلة ، التي تترك صاحبها كالمنبت الذي لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

والمتأمل لسير كل الذين وصلوا إلى القمة على مدار التاريخ ، يجد أن أهدافهم كانت حية واضحة لديهم ، ولم يكونوا ينطلقون خبط عشواء أو يعيشون في أحلام اليقظة ، وهم يراوحون أماكنهم ، ويترنحون فيها ، ينتظرون ضربات الحظ ، فالسماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

وإضافة إلى وضوح الهدف ، من الضرورة بمكان للساعي نحو علو الهمة ، أن يعمل جاهدا على العيش في صحبة أهل الهمم ، فيرافقهم ويصاحبهم ويعاشرهم ، ويحسدهم الحسد الممدوح ، ويجعلهم المثل الأعلى ومحل إقتداء ، ويجاهد نفسه للحاق بهم والوصول إلى ما وصلوا إليه ، وينافسهم المنافسة الشريفة ، مما يوفر له أجواء مساعدة ودافعة به نحو الهمة والقمة ، وأن يبتعد كليا عن مصاحبة الكسالى والعابثين واليائسين ، حتى لا يصاب بعدواهم ، فيحبطونه ويثبطونه وينزلونه إلى حضيضهم ، بدل أن يصعد إلى فضاء أهل الهمم العالية الفسيح.

٨) ـ قسط من العلم والكثير من العمل :

ومن المقومات المهمة كذلك ، ضرورة توفر قسط من العلم ، وأن يكون للساعي نحو همة عالية ، نصيب مفروض من المطالعة والقراءة ومصاحبة للكتاب ، كما قال ابن القيم :(كمال الإنسان بهمة ترقيه وعلم يبصره ويهديه) ، لأنه لا يمكن سلوك طريق أهل الهمم بعقل فارغ فقير علميا ومعرفيا وثقافيا ، فالعلم والقراءة الدائمة المبصرة الواعية ، هي طريق الريادة والقيادة والسيادة والسعادة والنجاح ،

فقد سئل الأديب الفرنسي فولتير : عمّن سيقود الجنس البشري ؟ فأجاب : الذين يعرفون كيف يقرأون.

فالقراءة توسع مساحات الرؤية ، وضحالتها مع نضوب الثقافة والفقر العلمي ، من شأنها أن تكرس الأمية الفكرية والعلمية والثقافية ، التي من شأنها أن تجعل صاحبها متواضع الغاية بسيط الهدف بعيد عن أجواء عشاق الهمم والقمم ، فالإبداع يظل دفينا لدى الفرد نتيجة الإحساس بالنقص أو ضآلة الثقافة أو عجز التربية والبيئة المحيطة كما أكد الدكتور عبد الكريم بكار .

ولقد كان العلم من أبرز المهدات العملية لطريق الوصول إلى التميز والنبوغ وعلو الهمة عبر العصور ، كما روى سالم بن أبي الجعد رحمه الله عن نفسه وما صنع بها سلوك طريق العلم قال:(اشتراني مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقني ، فقلت : بأي شيء أحترف ؟ فاخترت العلم ، فما تمت لي سنة ، حتى أتاني أمير المدينة زائرا ، فلم آذن له).

ومع العلم والقراءة وحب الاطلاع ، لا بد من العمل الكثير ، لأن الكلالة والسلبية والعطالة والكسل والعجز ، كلها تتنافى وعلو الهمة ، التي لا يصنعها إلا النشاط والحركة والفعالية والمبادرة والمثابرة والحيوية ، كما قال الله تعالى وهو يضرب لنا المثل :(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)(النحل٧٦).

فلا معنى لحياة خالية من الجد والتعب والكد والعمل ، فالراحة للرجال غفلة ، والحركة ولود والسكون عقيم ، كما قال الإمام الشافعي :

إني رأيت ركود الماء يفسده إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب

فبقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى ، وإذا أردت الهمة والقمة ، فأتعب قدمك ، فكم من تعب قدّمك.

فلا بد لبلوغ القمم وعلو الهمم ، من مهر من التعب والجد والعمل الدائم والتضحية العزيزة ، وإلا فالأماني رؤوس أموال المفاليس ، كحال ذلك الرجل الذي مرّ به الحسن البصري رحمه الله وهو يعبث بالحصى ويدعو :(اللهم زوجني من الحور العين . فقال له : بئس الخاطب أنت ، تعبث بالحصى وتطلب الحور).

فالفيصل بين أهل الهمم العالية وغيرهم ، هو مداومتهم على العمل والكد لتحقيق أهدافهم السامية ، والوصول إلى غاياتهم النبيلة ، وجفولهم من كل مظاهر الكسل والنوم والفتور والركود ، كما قال عطاء بن أبي رباح رحمه الله :(لأن أرى في بيتي شيطانا ، خير من أرى فيه وسادة ، لأنها تدعو إلى النوم).

فحب الراحات والبطالة ينزل سقف همة المرء ، حتى يصل بها إلى الحضيض ، كما قال ابن الجوزي رحمه الله:(ومن تفكر في المرتفعين في الهمم ، علم أنهم كهول، من حيث الأهلية والآدمية ، غير أن حب البطالة والراحة ، جنيا عليه فأوثقاه ، فساروا وهو قاعد ، ولو حرّك العزم لوصل).

٩) ـ السخاء الدائم والإقدام الواثق :

ومن مقومات صناعة الهمة وعلوها ودلائلها كذلك السخاء ، فلا همة لبخيل ، ولا يمكن للبخل أن يصنع التميز والريادة والسيادة بأي حال من الأحوال ، فقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بني سلمة من الأنصار :(من سيِّدكم يا بني سلمة؟) قالوا: (الجد بن قيس، على بخل فيه) فقال عليه الصلاة والسلام:(وأيُّ داء أدْوَى من البخل، بل سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح)(رواه البيهقي).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :(شر ما في رجل شح هالع وجبن خالع)(رواه البيهقي).

والبخل الذي هو مانع لعلو الهمة هو البخل بمفهومه الشامل ، فكيف يكون عالي الهمة ، وينال شرف ذلك وعزه ، من يبخل بجهد أو وقت أو عرق أو مال أو معرف أو خير أو جاه أو خدمة ، وقد قيل في منثور الحكم :(من بريء من ثلاث نال ثلاثا : من بريء من السرف نال العز ، ومن بريء من البخل نال الشرف ، ومن بريء من الكبر نال الكرامة).

وقد روى حبيش بن مبشر الثقفي الفقيه قال:(قعدت مع أحمد بن حنبل ويحي بن معين ، والناس متوافرون ، فأجمعوا أنهم لا يعرفون رجلا صالحا بخيلا).

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: (سادات الناس في الدنيا الأسخياء ، وفي الآخرة الأتقياء) .

فالبخل يعرّي صاحبه ويظهر عيوبه ويفضحه ، مهما تسربل بسرابيل ، وعلى العكس فإن السخاء يسترها ويغطيها ، كما قال الشاعر :

ويظهر عيب المرء في الناس بخله ويستره عنهم جميعاً سخاؤه

تغط بأثواب السخاء فإنني أرى كل عيب بالسخاء غطاؤه

وقد عدّ المولى تبارك وتعالى الوقاية من شح النفس وبخلها من أسباب الفلاح والتوفيق ، حيث قال:(وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(الحشر٩).

ومع السخاء كمقوم لصناعة الهمة العالية ، لا بد من الإقدام الواثق ، إذ هما قرينان ، وكما أنه لا همة لبخيل ، فإنه لا همة لجبان أو هيّاب أو متردد ، لا يملك الجرأة والشجاعة ، ليقدم على أي عمل فيه بعض المخاطرة والمغامرة والتضحية والتعب ، لأن المتقاعس المتردد الهيّاب ، بالضرورة يكون متواضع الأحلام محدود الطموح مستكين النفس خامل العقل والفكر بطيء الحركة والمبادرة ، أما الذي يريد أن يكون من أهل الهمم العالية ، فينبغي أن يكون كما قال إقبال رحمه الله :

المؤمن الوثاب تعصمه من الهول السكينة والخائف الهيّاب يغرق وهو في قلب السفينة

وكما قال الآخر :

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبب

وقول الشابي :

ومن يتهيب صعود الجبال يعش أبدا الدهر بين الحفر

وقول المتنبي :

إذا غامَرْتَ في شَرَفٍ مَرُومِ فَلا تَقنَعْ بما دونَ النّجومِ

فطَعْمُ المَوْتِ في أمْرٍ حَقِيرٍ كطَعْمِ المَوْتِ في أمْرٍ عَظيمِ

أما الذي يكون كالذي وصف نفسه بقوله :

وفي الهيجاء ما جرّبت نفسي ولكن في الهزيمة كالغزال

فهيهات أن يكون من أهل الهمم العالية .

لذلك كان مرض الوهن بركنيه : حب الدنيا وكراهية الموت ، حائلا بين المصابين به ، وبين نيل المراتب العالية في الدنيا والآخرة كما ورد في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم:(يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن ، فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا ، وكراهية الموت)(رواه أبو داود).

ونظرا لخطورة الجبن والبخل وأثرهما السلبي على حياة العبد في الدنيا والآخرة ، كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ منهما ، ويعلّمنا الاستعاذة منهما في قوله :(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ)(رواه أبو داود).

وقد قال أبو الطيب :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

١٠) ـ إيجابية الطموح وروح الأمل :

ومن مقومات صناعة الهمة العالية كذلك ، أن يكون صاحبها متشبعا بالطموح لارتياد المعالي ، ففي لفظ (القمة) شيء يقول لك : (قم) ، ولوحة الطموح الإيجابي الباعث لعلو الهمة ، مكتوب عليها :(إن هممت فبادر ، وإن عزمت فثابر ، وأعلم أنه لا يدرك المفاخر ، من رضي بالصف الآخر).

هذه الروح الطموحة هي التي عناها نابليون بقوله :(إن الجندي الذي لا يطمح أن يكون جنرالا ، هو جندي لا خير فيه).

فلا همة عالية لمنكسر الطموح متواضع الحلم ميت الشعور متبلد الإحساس منعدم الإرادة منهدم الأمل مقهور العزيمة ، منهزم من الداخل ، غارق في بحر العادية.

الطموح الإيجابي أن يعتقد المرء اعتقادا راسخا ، لا يخالجه فيه أدنى شك ، أن لديه شيء يحتاجه الناس ، وأنه من بدور الليلة الظلماء الذي يفتقده الآخرون فيها ، ويتلمسون وجوده ويبحثون عنه.

كذلك فإن عالي الهمة ينتقل من متشبع بالأمل ، إلى صانع للأمل ، حتى يضل إلى مرتبة أن يكون هو الأمل نفسه ، فلا يمكن ليائس أن يسلك طريق أهل الهمم العالية ، لأن اليائس الذي لا يرى إلا السواد والظلام ، إما أن يندحر أو ينحدر أو يندثر أو أن ينكسر أو ينتحر أو ينفجر ،

كالذي قال عن نفسه:

فثوبي مثل شعري مثل حظي سواد في سواد في سواد

وقول الآخر :

وفوقي سحاب يمطر الهم والأسى وتحتي بحر بالأسى يتدفق

فالأمل الفسيح وامتلاك الروح المتفائلة دائما ، رغم ما قد يعترضها من أسى وسواد ، مقوم مهم من المقومات التي تأخذ بيد صاحبها نحو علو الهمة وبلوغ القمة ، لأن الحياة ليست صفاء مطلقا ، ومن المؤكد أن الذين بلغوا القمة فيها ، لم يبلغوها بالواسطة أو بضربات الحظ ، وإنما بفسحة الأمل وروح التضحية والعمل ، والإقدام والكرم ، والمثابرة والتعالي عن الألم ، فهؤلاء الواقفون على قمة الجبل ، لم يهبطوا من السماء هناك.

المحصلة أنه على قدر ما يحمل المرء من هم إيجابي ، ويسعى جاهدا ليكون له رصيد ونصيب وافر من عشارية المقومات التي ذكرناها ، سينال علو الهمة ، الموصلة له بإذن الله إلى تحقيق المطلب الأعلى ، إذا ما صاحبها بنية صحيحة وعزم أكيد ،

كما قال ابن القيم رحمه الله :(المطلب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية ونية صحيحة ، فمن فقدهما ، تعذر عليه الوصول إليه).

عندها يصل إلى المرتبة التي ذكرها الراغب الأصفهاني رحمه الله في كتابه : تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ، بأن : الإنسان شعار الموجودات ، ولن ينال هذا الشرف ويصل إلى هذه المرتبة فعليا وعمليا ، خامل أو كسول أو يائس ، ولا منعدم الهم والهمة.

(٢) شواهد الإقلاع الحركي

إن الطموح في الوصول بالحركة الإسلامية ومشروعها إلى مركز الريادة وتصدّر المشهد السياسي الوطني في أقطارها ، ومن ثمّ تسلّم دفة القيادة فيه ، وكذا ارتفاع سقفها إلى الحد الذي تصبح فيه تشكّل البديل الأفضل والأهم والأقدر للوضع القائم بمختلف تجلّياته ومكوّناته ، يتطلّب منها (أي الحركة) أن تقدم الأدلة العملية والبراهين الواقعية والشواهد الفعلية ، على مدى أهليتها لهذه المكانة وجدارتها بهذا المقام ، ممّا يجعل الجميع يسلّم لها بذلك مكرها أو مختارا.

وهذا الأمر لن يتحقق بالدعاوى والأمنيات التي لا تصاحبها أفعال وأعمال تتناسب وهذا الطموح ، وممارسات وسلوكيات تستطيع من خلالها تلبية هذه الرغبة ، وإنجازات وإبداعات تليق بهذا الهدف السامي النبيل ، وإلا كما قال الإمام البنا رحمه الله في آخر رسالة التعاليم : (ففي صفوف القاعدين متَّسع للكسالى والعابثين).

وكما قال الشاعر : كلّ من يدّعي بما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان

فلا يمكن بلوغ هذا الهدف وتحقيق هذا الأمل ، بعزائم واهنة وثقة مهزوزة وأفق ضيق واتكالية مقيتة ووعي مرتبك ونشاط خامد وصوت خافت وفعالية ميتة ومناعة مفقودة وتردد مرفوض وانغلاق على الذات غير مبرر وانتشار محدود وانفتاح مزهود فيه ونخبوية طاغية ومثالية جانحة وقدرة على التحدي غائبة وأولويات مشوشة وإمكانيات متواضعة ووسائل بدائية وآليات كلاسيكية ومواكبة بطيئة وفرص مضيعة ، ممّا يعكّر الأجواء ويحجب الرؤية ويقتل القابلية للإقلاع .

وأتصور أن الشواهد العملية لحدوث هذا الإقلاع الحركي المنشود والمأمول ، لنصل به إلى المبتغى ونضع به القدم على المرتقى ، ونلج من خلاله مرحلة التمكين ـ التي حلمنا بها كثيرا ـ من أوسع أبوابها ، تتمثل فيما يلي :

١) ـ الرسالية :

أول هذه الشواهد على الإقلاع الحركي الذي نريد ، ارتفاع منسوب الرسالية لدى أبناء الحركة ورجالها في أي موقع كانوا ، وكذا مؤسساتها وهياكلها وروافدها ،

وحضورها بشكل كبير وكافٍ ودائم في كل الأعمال والأنشطة والتحركات والمبادرات والعلاقات والاتصالات والمواقف والخيارات.

والحقيقة الماثلة للعيان ، هي أنه كلّما ارتفع حضور عنصر الرسالية هذا في نفوس الأفراد وروح المؤسسات ، كلّما قوي الدافع نحو الفعالية والإيجابية والحيوية والإبداع وسرعة الاستجابة والتجاوب ودوام الحضور وقوة التفاعل ،

وكلّما كان المردود كبيرا كذلك على كل المستويات .

والعكس ، كلّما انخفض منسوب الرسالية في ساحة أبناء الحركة وقيادتها ومؤسساتها ، وبهت حضورها وذبلت شعلتها وخبت جذوتها وانحسر توهّجها ، كلّما ضعفت الدافعية ، ومن ثمّ اضمحلت روح المبادرة وتضاءلت القدرة على الإنجاز ، وضاقت مساحة الأنشطة والأعمال ، وتواضع المردود وانسدّت شهية العمل واستمرأ الكسل والخمول والقعود وعدم الشعور بالتبعة والمسؤولية .

فعندما يستشعر الجميع أنهم أصحاب رسالة وحملة مشروع ينبغي أن يقتحموا به الفضاءات المختلفة ويصلوا به إلى الفئات المتنوعة ، وتكون أخلاقهم وأفعالهم وممارساتهم ومعاملاتهم كلها منطلقة من هذه الرسالة ومنضبطة بضوابطها ، ومعبّرة بصدق عن هذا المشروع ، عندها يكون الإقلاع الحركي حقيقة لا خيالا ، وواقعا لا حلما .

أما إذا غابت الرسالية أو ضعفت أو اختلّت ، أو حدث الانفصام النكد بينها وبين العمل الحركي ، ما سمّاه الشيخ محفوظ نحناح رحمه الله باللائكية الحركية ، عند ذلك يبقى إقلاعنا الحركي يراوح مكانه أو يسير ببطء السلحفاة أو يكون إلى الخلف أو إلى الوجهة الخطأ .

ويضعف عنصر الرسالية هذا وتنحرف وجهته ، إذا ضعف التجرد ، واختلط ما هو لله بغيره من حضوض النفس ، على شاكلة ما عبّر عنه عمرو بن الحمق أحد قتلة سيدنا عثمان رضي الله عنه ـ قياسا مع الفارق طبعا ـ لمّا قال بعدما طعنه تسع طعنات :(أمّا ست فطعنته إياهن لله ، أمّا ثلاث فلما في صدري عليه).

فالرسالية التي هي شاهد على الإقلاع : هي وضوح الغاية والهدف في الأذهان فهما وقناعة وتصورا ، وفي الممارسة سلوكا وعملا وفعلا ، وفي الحركة بناء وإبداعا وإنجازا ، وفي الموقف ثباتا وولاء ووفاء ، وفي القلب حرقة ولوعة وعزما ، وفي التنفيذ إقبالا وتجاوبا واستجابة ، وفي المغارم حضورا وتضحية وإقداما ، وفي المغانم زهدا وعزوفا وتركا .

٢) ـ النضالية :

أما الشاهد الثاني على الإقلاع الحركي فهو الحضور القوي للروح النضالية لدى الأفراد في مبادراتهم وسلوكهم وأفعالهم واستجابتهم وتفاعلهم وتجاوبهم .

والنضالية في الحقيقة هي ثمرة الرسالية ، فحيثما كانت الرسالية حاضرة وواضحة وغالبة ، كلّما كانت الروح النضالية متوفرة بقوة عند الفرد ، ومن ثمّ يسعى ويبادر لخدمة حركته دون انتظار الأوامر ، وينفتح ويوسع شبكة علاقاته للتمكين لها ولأفكارها ومشروعها ، ويستثمر كل الفرص التي تتاح له على أي مستوى وفي أي موقع ومجال ، ليفعل ذلك بطيب خاطر منه شعورا بالواجب ورغبة في الأجر من المولى عز وجل ، لأن عنصر النضالية يدفعه إلى أن يحمل هم حركته أينما كان ،

ويحرص أن يكون خير سفير لها فهما ووعيا وإخلاصا وتجردا وخلقا وفعلا ونشاطا وإيجابية ونفعا ، فيكون حجة لها ، ويمثلها أحسن تمثيل حيثما حلّ وارتحل ، فيغري الآخرين ويكسب تقديرهم واحترامهم ، ويدفعهم دفعا للإعجاب بحركته ، والسعي للتقرب منها ومناصرتها .

النضالية هي أن يستشعر كل مناضل أنه على ثغرة من ثغور الحركة ـ مهما كانت صغيرة ـ وهو على حذر دائم من أن تؤتى الحركة من قبله ، فيشعر أنه مسؤول ـ مهما كان موقعه هامشيا ـ عن تقدّم الحركة وتطورها وانتصارها ، كما أنه مسؤول عن تقهقرها وانهزامها لا قدّر الله.

النضالية الحقة التي هي من أقوى شواهد الإقلاع ، تكون حاضرة في كل الظروف والأحوال ، حلوها ومرّها ، سرّاءها وضرّاءها ، بل تكون في حالات الضراء والأزمات

والشدائد أكثر حضورا وأقوى تفاعلا وأعمق تجندا واصطفافا ، فينطبق على أصحابها ما وصف به صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنهم يكثرون عند الفزع ويقلّون عند الطمع ، ويلتزمون أسلوبهم كذلك في النصرة والنضال : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، وليس أسلوب بني إسرائيل الذين قالوا لسيدنا موسى عليه السلام :(اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)(المائدة٢٤).

وشاهد النضالية بهذا المعنى تقريبا هو الفيصل في موازين المنافسة والتدافع والصراع ، لأنه هو الصانع لأغلب شواهد الإقلاع الأخرى ، فماذا تفعل القدرات والإمكانيات المادية والخطط والبرامج مهما كانت ضخامتها ودقتها ، إذا فقدت المناضل الحقيقي الذي سيوظفها وينفذها ، الذي هو أساس كل عمليات التحول والتغيير والإقلاع على مدار التاريخ ، فما تستطيع أن تحققه كمشة من المناضلين الحقيقيين مع قلّة الإمكانيات المادية وتواضعها ، يعجز عن تحقيقه أو حتى تحقيق جزء بسيط منه الآلاف من المناضلين الطايوان أو الجيتابل ـ إن صحّ أن نسميهم مناضلين أصلا ـ وإن توفرت لهم كل الإمكانيات المادية.

فالمناضل الحقيقي والفعال والمسؤول ، هو رأس مال الحركة الذي لا يقدّر بثمن ، وهو رأس حربتها وعملتها النادرة في أوقات المنافسة والتدافع ، وهو من أهم الأجزاء المحركة لماكينة الإقلاع على الإطلاق.

٣) ـ الديناميكية :

أما الشاهد الثالث من شواهد الإقلاع الحركي فهو الديناميكية (الحركية والفاعلية)، وهو ثمرة للشاهدين اللذين سبقاه ، فكلما كانت الرسالية متمكنة من القلوب والهدف واضح في الأذهان والروح النضالية موجودة بقوة ، كلما كان عنصر الديناميكية حاضرا في صورة نشاطات وفعاليات وأعمال وإنجازات ومبادرات على كل المستويات ، وبشكل دائم لا تتوقف ، ومنحناها البياني في صعود مستمر ، وبمساحة تأثير إيجابي دائمة التوسع والتمدد ، وبكتلة أنشطة دائمة الانتشار والاكتساح لفضاءات حديثة والاستيعاب لفئات جديدة .

الديناميكية هي سيرورة الحركة وديمومة العمل الإيجابي المنتج المثمر على كل الجبهات ، بحيث تصبح مؤسسات الحركة كخلايا النحل ، تعج حيوية وفعالية ونشاط في كل وقت وفي كل حين ، ويظل الفرد في أي موقع كان ، يتمتع بجميع خصال الجدية والإيجابية ، يتفجر إبداعا واجتهادا وإنجازا ، غيثا أينما حلّ نفع وأينع وأزهر وأثمر ، ونشر عبقه الطيب على كل من حوله.

فالديناميكية الدائمة والمستمرة على مستوى الأفراد والمؤسسات والهياكل ، تنفذ البرامج وتنجز المستهدفات وتحقق الأهداف ، ومع ذلك وبعده يحدث الإقلاع الحركي بصورة أكثر وضوحا وأعمق أثرا ، ومن ثم وضع الحركة على سكة الريادة والصدارة دائما .

فإذا ما غابت الديناميكية على الأفراد والمؤسسات وانطفأت جذوتها وضاقت مساحتها وبهت حضورها ، كان مردود ذلك سلبيا ـ إن لم نقل كارثيا ـ على الحركة وموقعها وموقفها ومكانتها

، وشكّل تهديدا حقيقيا لوجودها وحضورها وقدرتها التنافسية .

٤) ـ الجاهزية :

أيضا من الشواهد المهمة على الإقلاع الحركي ، توفر الجاهزية على مستوى الأفراد والمؤسسات ، وعلى مستوى البرامج والخطط ، وعلى مستوى الوسائل والإمكانات ، بحيث تمتلك الحركة القدرة على سرعة المواكبة والتكيف ، ومن ثم عدم التفاجؤ بالأحداث والوقائع والمواعيد المختلفة ، والعصمة بذلك من كل مظاهر التخبط والإرباك.

الجاهزية أن تكون الحركة مهيّأة لكل جديد ، وعلى أتم الاستعداد لكل طارئ ، بحيث ترفع سقف طموحها وأهدافها وخياراتها واستراتجياتها ، وهي مطمئنة أن جاهزيتها على كل المستويات ، تستطيع استيعاب كل ذلك ، وتؤهلها فعلا لتنفيذ وتجسيد جميع ذلك وأكثر ، لأنه على قدر الجاهزية يكون نبل الطموح أو تواضعه ، فلا يمكن ـ مثلا ـ أن تنافس على الحكم والحكومة ، وجاهزيتك لا تؤهلك لتسيير بلدية أو ولاية ، أو لم يرقى بك الحال إلى وصول جاهزيتك إلى مستوى تحضيرك لحكومة ظل ، بما تملكه من الكوادر والإطارات والخبراء ، أو تفكر في حكومة ظل ، وأنت لا تملك مركز دراسات واحد ، يعدّ تقارير ودراسات دورية حول كل الملفات والقضايا المطروحة في كل المجالات ، أو تضع عينك على وزارة الإعلام ، وجاهزيتك لم تصل بعد إلى حجم جريدة ، أو وزارة الثقافة ، وجاهزيتك سواء الفكرية التي لم تحسم الكثير من مناطق الظل في الموقف من قضايا الفن تحديدا ، أو على مستوى الولوج الفعلي بكوادر محترفة قادرة على التواجد الكافي والفعال والمؤثر في مجالات الفن المختلفة.

فكيف يتم إقلاع حقيقي ، ويمكنه أن يشكل بديلا فعليا للوضع القائم ، بغير جاهزية كافية ، أو بوسائل وإمكانات كلاسيكية وبسيطة ومتواضعة.

وتراكم التجربة في موضوع الجاهزية أمر مهم ، وقد استطاعت الحركة من خلال تجربة المشاركة ـ مثلا ـ رغم ما اعتراها من نقص وقصور ، أن تحدث اختراقا ولو بنسب بسيطة ومتفاوتة أحيانا ، في ملف الجاهزية بهذا المعنى ، في حاجة إلى تطوير وتوسيع وتنظيم وتجميع وتكوين واستثمار.

إضافة إلى حسم فكري وفقهي ومعرفي ، لعديد القضايا التي لا تزال محل خلاف وتحفظ ، لبلورة رؤية واضحة ومعتدلة ومتفتحة ومطمئنة ، تساعد على إقلاع من غير حواجز معرقلة ، أو يحمل في داخله بذور فشله أو تراجعه ، أو انطلاقته ولكن إلى غير الوجهة المقصودة ، أو يكون خارج مجال التغطية أصلا.

٥) ـ المؤسساتية :

من شواهد الإقلاع الحركي المهمة كذلك المؤسساتية ، بحيث تكون كاريزما المؤسسة حاضرة بقوة ، في كل القرارات والخيارات والمواقف ، بحيث تخمّر بداخلها الأفكار والمقترحات والمبادرات والخطط ، وتنضّج بشكل عميق ، وتشبع نقاشا وإثراء ونقدا وتقويما وتقييما وتعديلا ودراسة وتداولا ، ثم تخرج ناضجة منقحة مكتملة دقيقة ، تحمل في طيّاتها أسباب نجاحها في الواقع ، ببركة الشورى وقوة المؤسسة.

فالمؤسساتية من العوامل الأساسية ، لضمان البقاء والاستمرار ، ومقاومة كل أشكال الفناء و نهاية الصلاحية ، لأن الأشخاص مهما كانت إمكانياتهم وقدراتهم وانجازاتهم ، فهم زائلون ، أما المؤسسات والأفكار فباقية ومستمرة.

فكلّما ارتفع الحس المؤسسي وانتشر وتمكّن على كل المستويات ، وامتدّ بشكل كبير أفقيا وعموديا ، كلّما تمّ تجاوز الكثير من الإشكالات والأمراض المهلكة والمعرقلة والكابحة والمانعة من الانطلاق والإقلاع ، كالشخصانية والتفرّد والأحادية والاستبداد والإقصاء والتهميش وغيرها.

فالحركات التي تؤسس على مستوى داخلها ، لعمل مؤسساتي قوي ودائم وثابت وفعال ، فتنتج عنه مؤسسات متينة الأسس ، ثابتة الأركان ، كاملة الصلاحيات ، نشطة الممارسات ، الكلمة في الأول والأخير لها ، ولا صوت يعلو فوق صوتها ، مهما تداول فيها وعليها من رجال ، تكون مؤهلة فعلا وواقعا للإقلاع ، ومن ثم أحقيتها للمنافسة على الصدارة ، والعبور الواثق نحو تسلّم مقاليد القيادة ، والعكس فإن ضمور العمل المؤسساتي وغياب المؤسساتية وصورية المؤسسات وديكوريتها ، على مستوى أي حركة ، ينزع عنها أهلية المنافسة على الريادة ، ويحرمها من التطلّع الموضوعي لتكون بديلا

حقيقيا للوضع القائم ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، ولأنها تحمل أدلّة إدانتها ، وبذور التشكيك في نواياها بيّنة واضحة لا تحتاج لكثرة بحث أو دقة تفتيش ، من خلال لا مؤسساتيتها واعتمادها كليا على مزاجية بعض قيادتها أو انفلات بعض رجالها أو فوضى بعض جنودها ومناضليها ، مهما تسبب لها ذلك من مصائب وكوارث .

فمن مستلزمات الإقلاع الحركي ، الانتقال كليا وعمليا وبشكل نهائي من كاريزما الأشخاص إلى كاريزما المؤسسات.

٦) ـ الاحترافية :

من الشواهد المهمة للإقلاع الحركي كذلك الاحترافية ، إذ أن بقاء الترنح في اعتماد أساليب الهواة ، لا يمكّن صاحبه من أن يذهب بعيدا في عملية الإقلاع ، ويكون مردوده العملي والإنجازي متواضعا ، بحيث يكون مرتبط بمزاجية الأفراد وفضول أوقاتهم ، غير آبه كثيرا بالجودة والنوعية والكيف ، همّه التكديس بدل التأسيس ، والتسطيح بدل التعميق ، فتأتي النتائج متناسبة مع هذا الوضع ، ليست بالحجم ولا التأثير ولا العمق ولا الجدية ، الذي يسعد صديقا أو يغري معجبا أو يقلق خصما أو عدوا ، أو يمكّن لمشروع .

إن تطور طرق المنافسة والدعاية ، والتقدم المذهل في مجالات الإعلام والاتصال وأساليب العمل السياسي والمجتمعي ، أصبح يحتم على كل حركة تحترم نفسها وتريد أن تنافس على المواقع المتقدمة ، أن تراهن على الاحترافية وتلتزم بها وتوفر لها كل مستلزماتها ، وتتجاوز بشكل نهائي أساليب الهواة.

فمن الاحترافية اعتماد الأساليب الحديثة في رسم الخطط والبرامج وطرق التنفيذ والمتابعة ، واستخدام وتوظيف المهارات الجديدة في إدارة وتسيير الأعمال والمشاريع والعلاقات والقيادة.

ومن الاحترافية كذلك المساعدة على الإقلاع والشاهدة عليه ، توسيع دوائر التفريغ للعمل الحركي بمختلف مجالاته ، وعدم الاقتصار فقط على التطوع.

ومنها توفير الوسائل المادية والبشرية والمعرفية ، لعملية الإقلاع بشكل دائم وكافٍ ومتطور ، يتناسب والغاية والمشروع والأهداف والخطة من ناحية ، وكذلك مع التقدم المتسارع الذي يحدث في العالم اليوم على المستوى الإستراتيجي والأدائي من ناحية ثانية.

ومنها ضمان مصادر تمويل دائمة وثابتة وكافية ، تتناسب والأهداف والخطط والبرامج المرسومة الضامنة لإقلاع طموح وذي سقف مرتفع ، إذ لا يمكن أن يتم إقلاع حقيقي واحترافي بقلق تمويلي أو بانعدام مصادر تمويل متنوعة ودائمة.

ومنها كذلك التحضير المسبق للملفات والتقارير والمشاريع المعتمدة على الاستقراء الجيد والإحصاء الدقيق والمعلومة الصحيحة ، لبناء المواقف والخيارات وطرق التعامل وتحديد الأهداف.

ومنها اعتماد سياسة الفعل والمبادرة وصناعة الحدث ، أو المشاركة في صناعته على الأقل ، وعدم ترك الأحداث هي التي تتحكم فيك ، ومن ثم تكون سياساتك وتحركاتك ومواقفك كلها ردود أفعال وتخندق شبه دائم في مواقع الدفاع والتبرير.

على العموم فإن الإقلاع الحركي لن يكون ذا قيمة ، إذا لم يتم الانتقال الفكري والعملي والممارساتي والسلوكي ، من أساليب الهواة إلى الاحترافية بشمولها في شتى مجالات التحرك والنشاط.

٧) ـ الإبتكارية :

كذلك من شواهد الإقلاع الحركي ، القدرة على الابتكار والتجديد والتطوير ، لأن الحركة التي لا تستطيع أن تتجدّد وتجدّد في أفكارها ومواقفها وخياراتها وخططها وبرامجها ومشاريعها ووسائلها وتعاملها مع داخلها والآخرين ، فإن مصيرها إما أن تتعدّد (تتشرذم وتنقسم)، وإما أن تتبدّد (تضعف وتنكمش ويذهب ريحها) .

لذا فإن التجديد والتطوير والإبتكارية ، ليست من نافلة القول والفعل والممارسة بالنسبة للحركة ومشروعها ، وإنما هو فريضة شرعية وضرورة واقعية وحتمية حركية وواجب وقت لا يحتمل التأخير ، خاصة في ظل التطورات والمتغيرات والأحداث المتسارعة التي يشهدها واقع الأمة بمختلف أقطارها والعالم أجمع.

فلا يمكن ـ في هذه المرحلة تحديدا ـ للحركة أن تحقق الإقلاع الجاد المؤدي إلى التمكين ، إذا كانت قدرتها الإبتكارية ضعيفة ، أو كانت لا تملكها أصلا ، الإبتكارية خاصة في الخطاب والوسائل والآليات والطرق الصانعة للرأي العام الحاضن والمساند والمؤثرة فيه ، والضامنة للانتشار والقادرة على الإقناع والكاسبة لثقة مساحات أوسع من الناس واستيعاب فئات أكثر منهم ، لأن الجمود على خطاب ووسائل وطرق وآليات قديمة تجاوزتها الأحداث ، من شأنه أن يضعف قدرة الحركة التنافسية ، ويقلّل من حظوظها في الاستحقاقات المختلفة ، ويساهم في تزهيد الرأي العام فيها وفي مشروعها ورجالها وانفضاضهم من حولها ، لأن عدم امتلاك القدرة الإبتكارية بالمفهوم الذي أشرنا إليه ، قد يتسبب في كساد سلعة الحركة(أفكارها ، مشاريعها ، رجالها...) ، مهما بلغت من النفاسة ، وقد تسبقها سلع أخرى أقل منها نفاسة ، إن لم تكن في أصلها فاسدة وكاسدة ومزجاة ، أحسن أصحابها الابتكار في طرق التسويق وآليات العرض وأساليب الدعاية .

فكن مستلزمات الإبتكارية والقدرة على التجديد والتطوير ، هو حسن التكيّف والمواكبة مع كل المتغيرات والتحوّلات والأحداث مهما تسارعت ، إعمالا للقاعدة العملية المهمة التي أشار إليها الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله في هذا المجال لمّا قال :(الظروف تستطيع تكييفنا ، ولا تستطيع ـ بإذن الله ـ إتلافنا).

فقدرة الحركة الإبتكارية ، خاصة في الخطاب والوسائل والآليات والموارد ، شاهد مهم على صحة إقلاعها وسلامة سيرها ، ومن ثم قدرتها البدائلية والتنافسية ، للوصول إلى تصدّر المشهد الوطني وريادته بأهلية واستحقاق.

٨) ـ الجاذبية :

كذلك من شواهد الإقلاع الحركي الجاذبية ، فبقدر ما تملك من جاذبية وقدرة على فرض احترامك وتقديرك على الآخرين ، بقدر ما تكون قدرتك على الإقلاع وتوسيع دوائر الإعجاب و الولاء والتأييد والنصرة لك ولمشروعك ولأفكارك ، والعكس بقدر ما تفقد من جاذبية ـ مهما كانت أسباب ذلك ـ ، بقدر ما تتقلّص مساحات الانتشار وتضيق دوائر الولاء وتضمر القدرة على إفتكاك الإعجاب وتتناقص نسب التأييد .

والجاذبية التي تكون أحد مقومات الإقلاع الحركي هي التي تكون بنسب مرتفعة أو مقبولة على الأقل في جوانب شتى ، ولا تقتصر في بعضها فقط ، بحيث تكون في الأفكار والتصورات والأهداف والمواقف ، وتكون كذلك في الخطاب والبرامج والخطط والأعمال والممارسات والسلوكات ، وكذلك في الإنجازات والمشاريع والمبادرات ، وكذا في الداخل الحركي تنظيما وانضباطا وأداء وفعالية ومؤسساتية وشورى وحرية رأي ، وقوة قيادة وتجردها وقدرتها على الإبداع والإقناع والاقتراح والمبادرة ، ونزاهة جنود وإيجابيتهم وحسن تفاعلهم.

وكما أن الجاذبية التي هي شاهدا على الإقلاع ينبغي أن تكون متنوعة المجالات ومتعددة الجوانب كما ذكرنا ، ينبغي أيضا أن تشمل كل الفئات ولا تنحصر في فئة واحدة أو بعض فئات فقط ، أو تكون متمركزة في جهة واحدة دون بقية الجهات ، كأن تكون الحركة مثلا جذابة للنخبة دون الجماهير ، أو للجماهير دون النخب ، أو للكبار دون الشباب ، أو للشباب دون بقية الفئات العمرية ، أو للرجال دون النساء ، أو للنساء دون الرجال ، أو للمتعلمين دون محدودي التعليم و العوام أو العكس ، أو فئة مهنية دون أخرى ، كرجال التربية والتعليم دون غيرهم ، أو التجار وإهمال الفلاحين والحرفيين وهكذا ، فالجاذبية المساعدة على الإقلاع والتي تكون إحدى علاماته المميزة هي التي تجد لها موضع قدم عند كل الفئات التي ذكرناها وغيرها ، بحيث يجد كل منهم عندك ما يشبع اهتماماته ، ويشعره بوجوده وأهميته ، ويفتح له فضاء للعمل والإبداع واستثمار قدراته ، ويبعث لديه الأمل للتكفل بانشغالاته وآلامه وآماله ، بما أنك تقدّم نفسك أنك حركة مجتمع وليس حركة فئة منه ، أو أنك روح يسري في هذه الأمة بأجمعها وليس في جزء منها فقط .

ومع ذلك فالجاذبية قد تملك كل مقوماتها التي ذكرنا بعضها ، ولكن لا تنالها ـ إن لم تنل ضدها أصلا ـ وذلك بسوء عرضك وقصور إعلانك وغياب إعلامك وبدائية تسويقك وضعف تواصلك وعدم شطارتك بالحجم الكافي في الحديث عن نفسك وأفكارك ومواقفك ومبادراتك وإنجازاتك ، ؛(فالسلعة النفيسة قد تكدس بسوء العرض وقصور الإعلان ، وتسبقها سلع أخرى أحسن أصحابها الدعاية لها واجتذاب الأنصار إليها) ، كما قال الشيخ الغزالي رحمه الله.

على العموم عنصر الجاذبية عامل مهم من عوامل الانفتاح والانتشار ومن ثم الإقلاع والتمكين ، ويحتاج إلى جهود مضنية وعمل متواصل وتخطيط حكيم وعرض مغري وخطاب مناسب وإنجازات متراكمة ، ولن يحدث مصادفة أو بضربة حظ أو بأحلام اليقظة.

٩) ـ التنافسية :

كذلك من الشواهد المهمة على الإقلاع الحركي ، امتلاك مقوّمات القدرة على المنافسة ، بحيث تستطيع الحركة أن تنافس على المواقع المتقدمة في كل المواعيد والمحطات والاستحقاقات ، فعلا وحقيقة وواقعا ، وليس قولا وإدّعاء وخيالا .

ولا يمكنها أن تفعل ذلك ما لم تكن تملك المقوّمات العملية لهذه المنافسة على مستويات ثلاث:

ـ الأول : مستوى الأفكار والتصورات.

ـ الثاني : مستوى البرامج والمشاريع والخطط.

ـ الثالث : مستوى الموارد البشرية والمادية.

فلا يمكن أن تنافس الحركة بتصورات بدائية ومنغلقة ، ولا بأفكار مثالية ومغلقة وغامضة ، بل لا بد لكي يكون لها حظها من شاهد التنافسية هذا ، أن تتسم أفكارها وتصوراتها بالواقعية والموضوعية والوضوح ، مع حرصها على أن تكون مطمئنة للجميع ، قادرة على استيعابهم مهما اختلفت مستوياتهم .

كما لا يمكنها أن تنافس بلا مشاريع وبرامج وخطط ، أو بمشاريع وبرامج وخطط متواضعة ومنخفضة السقف ، لا تملك فيها إجابات واضحة ومقنعة على الكثير من الأسئلة التي يطرحها الرأي العام ، كما لا تقدم حلولا عملية قابلة للتجسيد والتنفيذ والتطبيق للقضايا الملحّة خاصة الاجتماعية منها ، بعيدا عن العموميات الديماغوجية ولغة الخشب ، التي لا تطعم جائعا ولا تكسي عاريا ولا تعالج مريضا ولا تشغل بطالا ولا تعلم جاهلا ولا تزوج أعزبا.

كما أن من دلائل القدرة التنافسية لدى الحركة في هذا المستوى كذلك هو مدى امتلاكها لرؤية تنموية محترمة وشاملة لكل المجالات التنموية التي تهم الوطن الذي تعيش فيه وللمساحة التي تتحرك فيها ، مبنية على قواعد علمية صحيحة وإحصائيات دقيقة وتقارير عميقة، تستطيع أن تطرح نفسها من خلالها بصدق كبديل أفضل لما هو موجود ولما هو منافس لها .

والحقيقة أن التنافسية في هذا المجال بالنسبة للحركة ، لا يكتفى منها بإجابات مقنعة ومقترحات ناجعة في المجال الاجتماعي والاقتصادي والتنموي فحسب ، بل أيضا في المجال السياسي والإعلامي والثقافي وكذا الحريات وحقوق الإنسان والسياسة الخارجية وغيرها من المجالات.

كما يمكن للحركة أن تنافس بشكل صحيح ، عندما تحسن استثمار وتوظيف كل مواردها البشرية كلّ في مجال اختصاصه، ونحن على يقين أن الحركة تملك خزانا معتبرا من الكوادر والطاقات في شتى التخصصات تحسد عليه فعلا ، من المستحيل أن تجد مثله لدى غيرها من منافسيها ، يمكنها أن تحقق به الاكتساح وليس المنافسة فقط ، ويؤهلها ـ إن أستغل الاستغلال الأمثل ـ لتسيير دولة وتشكيل حكومة وتقديم بدائل أفضل وأصلح في هذا المجال .

كما أن تنافسية الحركة في هذا المجال كذلك ، لا يكتفى منها باستثمارها لرصيدها من الكوادر والإطارات من أبنائها فقط ، بل بمدى قدرتها على إشراك كل الكفاءات النظيفة والمخلصة حتى من غير أبنائها ، لتثبت عمليا أنها فعلا حركة مجتمع ومؤهلة فعلا لتحكمه ، وليست حركة فئة أو مجموعة أو طائفة .

كذلك فإن من مقوّمات التنافسية لدى الحركة هو تعاملها وتفاعلها الإيجابي وكذا حسن توظيفها واستعمالها للتكنولوجيات والوسائل الحديثة والطرق المعاصرة ، في التواصل والدعاية والإشهار ، وأيضا في الإقناع والاستيعاب والانفتاح والانتشار.

فامتلاك مقومات القدرة على المنافسة على المواقع والمراتب المتقدمة والريادية أو ما أسميناه بالتنافسية ، وتحقيق النتائج الإيجابية في ذلك، شاهد كذلك على الإقلاع الحركي المنشود.

١٠) ـ الجماهيرية :

ثم يأتي الشاهد الثامن والأخير المتمثل في الجماهيرية ، والذي يعتبر تتويجا لكل الشواهد التسعة التي سبق ذكرها ، إذ لا يمكن أن تتحقق الجماهيرية للحركة ، بحيث تكون حاضنة وداعمة لها ولمشروعها ولرجالها بشكل مستمر وتصاعدي ، دون توفرها على نسب مقبولة من الرسالية والنضالية والديناميكية والجاهزية والمؤسساتية والاحترافية والإبتكارية والجاذبية والتنافسية ، والتجربة التركية خير مثال على ذلك ، فإن حدثت رغم ضحالة امتلاك هذه الشواهد وضآلتها ، أو غياب بعضها أو أغلبها ، فإنها طفرة مزاجية عابرة كرغوة الصابون ، سرعان ما تذهب أو تغير الوجهة أو تتحول من معسكر الموالاة للحركة ومشروعها ورجالها إلى معسكر المعارضة واللامبالاة واللا اهتمام على الأقل إن لم تتحول إلى عداء ، وينطبق عليها ما ذكره الفرزدق الشاعر للإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما ، عندما سأله عن حال أهل العراق ، فقال له : قلوبهم معك وسيوفهم ضدك.

والتاريخ البعيد والقريب حافل بمواقف من هذا القبيل ، أحرى أن نستفيد منها ونأخذ العبرة من دروسها.

هذه عشارية من الشواهد تشكّل مجتمعة أرضية متينة وأساسا وثيقا وخارطة طريق عملية لعملية إقلاع حركي منشود ، ومن ثم وقودا دافعا بقوة وثقة نحو تحقيقه عمليا في أرض الواقع ، ليضع الحركة في موقعها الريادي الذي يتناسب ونبل غايتها وسمو أهدافها وأصالة منهجها ونفاسة فكرتها ، وحلم مؤسسها ودماء شهدائها

ونصاعة تاريخها وقوة اقتراحها وتنوع مبادراتها وطموح قيادتها ومؤسساتها وتضحيات أبنائها ومناضليها ، وآمال محبيها ومناصريها وأماني الواثقين في خطها ومشروعها ، فإن حدث الخلل أو القصور والإهمال في أيّ من هذه الشواهد أو بعضها ، فإن نتيجته المنطقية إقلاعا أعرجا لا يذهب بعيدا ولا يفي بالغرض ، ولا يمكنه أن يشكّل بديلا أو يحقق أملا أو يبني طموحا ، أو يكون في مستوى التضحيات ، فتبقى الحركة بذلك تترنح في مربّع المراهقة الحافل بكل دواعي القلق، ولا ينقلها بأيّ حال من الأحوال إلى مرحلة الرشد ، الصانعة للانتصار الواثق والتمكين الرائق ، العاصمة من التعثر العائق.

(٣) أثر السريرة على السيرة والمسيرة

إن صلاح السرائر أو فسادها هو الباعث المحدد لطبيعة سيرة الفرد ومسيرته ، والعكس صحيح كذلك ، فسيرة المرء ومسيرته في العمل الإسلامي خاصة ، في أي مجال من مجالاته الدعوية والتربوية والتنظيمية والسياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية وغيرها ، هو التعبير الفعلي والدليل العملي على السرائر ، فهي التي تطبع الفعل والعمل والتحرك والنشاط بطابعها ، وهي التي تخط وتحفر سيرة ومسيرة صاحبها في صفحات الزمان والمكان ، فإن حرص على صلاحها ونقائها وصفائها ، حافظ على سيرته ومسيرته طيبة عطرة إلى أن يلقى ربه كذلك ، وامتدت وأشرقت أنوارها وبارك الله فيها وزكاها إلى أن يلقاه غير مبدّل ولا مغيّر ، وإن أهمل سريرته وتركها من دون تعهّد ورعاية وتفتيش وتهذيب ، كان أثرها على سيرته ومسيرته كارثيا وإن تصدّر المجالس وتقدّم الصفوف ، فإن فساد سريرته سيفضحه ولو بعد حين ، مهما تستر وتمسكن وتمكن ، وهو ميزان دقيق لا يخطئ ، قال فيه الإمام ابن القيم رحمه الله وهو يفسر قوله تعالى :(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)(الطارق٩) :(في التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة ، وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة ، فمن كانت سريرته صالحة ، كان عمله صالحا ، فتبدو سريرته على وجهه نورا وإشراقا وحياء ، ومن كانت سريرته فاسدة ، كان عمله تابعا لسريرته ، لا اعتبارا بصورته ، فتبدو سريرته على وجهه سوادا وظلمة وشينا ، وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته ، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته ، ويكون الحكم والظهور لها).(١)

فلو فقهنا هذه القاعدة التربوية والإيمانية في عملنا الإسلامي جيدا ، وراعينا هذا الميزان الدقيق وتحاكمنا إليه ، وعرض كل فرد منا في أي موقع أو مستوى كان ، نفسه وفعله وسلوكه وممارساته وتجاوزاته على هذا الميزان ، بصدق وإخلاص وتجرد ومصارحة وحرص على النجاة ، وداوم على تصحيح سريرته وتنقيتها وإصلاحها ، لتجاوزنا الكثير من أمراضنا التربوية وإختلالاتنا التنظيمية وتجاوزاتنا الحركية ، التي ظهرت وتظهر هنا وهناك ، لأنه في الأول والأخير المسؤولية فردية سلبا أو إيجابا كما قال تعالى:(وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً)(مريم٩٥).

فمن خلال تأملي ومتابعتي ـ وأرجو أن أكون مخطئا ـ للأمراض والمشاكل والتجاوزات والأزمات والفتن الداخلية ، التي وقعت وتقع في مسيرة العمل الحركي الإسلامي في العديد من الأماكن والأقطار ، وجدت أن أصل الداء فيها والسبب المباشر لوقوع الكثير منها ـ إن لم أقل كلّها ـ ومنطلقها الحقيقي والفعلي ـ مهما تفلسف المتفلسفون وتحذلق المتحذلقون وبرّر المبرّرون ـ هو فساد السرائر أو قل دخولها وغبشها وانحرافها وتكدّرها وتغيّرها وتحوّلها ، الصانع للسيرة والمسيرة أثناء ذلك وبعده ، فالعلاقة وثيقة ووطيدة بين الأمرين كما بيّن وهب بن منبّه رحمه الله ذلك بقوله :(ولا تظن أن العلانية هي أنجح من السريرة ، فإن مثل العلانية مع السريرة كمثل ورق الشجر مع عرقها ، العلانية ورقها والسريرة عرقها ، فإن نخر العرق هلكت الشجرة كلها ، ورقها وعودها ، وإن صلحت صلحت الشجرة كلها ، ثمرها وورقها ، فلا يزال ما ظهر من الشجرة من خير ، ما كان عرقها مستخفيا ، لا يرى منه شيء ،

كذلك الدين لا يزال صالحا ، ما كان له سريرة صالحة ، يصدّق الله بها علانيته ، فإن العلانية تنفع مع السريرة الصالحة ، كما ينفع عرق الشجرة صلاح فرعها ، وإن كان حياتها من قبل عرقها ، فإن فرعها زينتها وجمالها ، وإن كانت السريرة هي ملاك الدين ، فإن العلانية معها تزيّن الدين وتجمّله ، إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلا رضا ربه عز وجل).(٢)

فكم من عرق منخور (سريرة فاسدة) وصاحبه لا يعلم أو يعلم ويكابر ، فلم يسقيه بماء المحاسبة ، ولم يداويه بدواء المجاهدة ، ولم يعالجه بالمضادات الحيوية الإيمانية ، ولم يسترجع فيه الروح بالوصفات التربوية والشرعية ، كان سببا في تعفن الثمار (السيرة) وتآكل الأوراق(المسيرة) وتشويه الصورة العامة للشجرة في النهاية.

فتوفيق الله وتسديده ومعيته وبركته وحفظه ورعايته ـ وهو رأس مال كل من سلك ويسلك طريق العمل في سبيل الله ، وسلاحه الذي لا يهزم في موازين المدافعة والصراع ـ ، مرتبط ارتباطا وثيقا بقاعدة السريرة والسيرة والمسيرة هذه ، كما قال ابن عطاء رحمه الله :(ورود الأمداد بحسب الاستعداد ، وشروق الأنوار حسب صفاء الأسرار).

وكما قال الفضيل من ناحية أخرى:(من استحوذ عليه الهوى وإتباع الشهوات ، انقطعت عنه موارد التوفيق).(٣)

فالسرائر النقية الطاهرة هي التي تصنع المسيرة الفاضلة المؤثرة ، وتحقق السيرة الحافلة المشرّفة ، وتكن السبب المباشر لتأثير كلمات صاحبها وإن كانت قليلة ، ويكتب لها الرضا والقبول وإن كانت معدودة ، كما ذكر ابن عطاء أيضا :(تسبق أنوار الحكماء أقوالهم ، فحيث صار التنوير وصل التعبير).

فمن أصلح سريرته ، فاح عبير فضله ، وعبقت القلوب بنشر طيبه ، فالله الله في السرائر ، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر.(٤)

فكثيرا ما يفشل الواحد منا وينهزم في معركة ميدان أو زمان في مسيرته العملية للدعوة والحركة على المستوى الفردي أو الجماعي ، فيستحضر عند تشخيصه وتقييمه لذلك كل الأسباب المادية والمبررات الدنيوية ، وينسى أو يتناسى أو يغفل أو يتغافل عن موضوع وقاعدة السرائر هذه ، وقد ذكر صاحب الظلال رحمه الله ذلك بوضوح عندما أكّد أنه عندما نحسم معركة الوجدان(السرائر) ، نستطيع أن نحسم معركة الميدان والزمان .

فلا بد أن نعيد للأمر نصابه ، وندرك أن المنطلق الصحيح والسليم والمأمون العواقب لسيرة عطرة ومسيرة حافلة ومباركة ، هو ما سمّاه ابن القيم ضرورة الولادة مرتين أو الولادة المزدوجة لمّا قال:(فإنّ من لم تولد روحه وقلبه ، ويخرج من مشيمة نفسه ، ويتخلّص من ظلمات طبعه وهواه وإرادته ، فهو كالجنين في بطن أمه ، الذي لم ير الدنيا وما فيها ، فهكذا هو الذي بعد في مشيمة النفس ، والظلمات الثلاث هي : ظلمة النفس وظلمة الطبع وظلمة الهوى ، فلا بد من الولادة مرّتين ، كما قال المسيح للحواريين :(إنكم لن تلجوا ملكوت السماء ، حتى تولدوا مرّتين).(٥)

ولأهمية موضوع السريرة هذا ودوره الفعّال في تحديد السيرة والمسيرة ، نستطيع أن نفهم لماذا جاءت الروايات عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم لم يسبقوكم بكثرة صلاة ولا صيام ، وإنما بشيء وقر في قلوبهم.

فمن أخلص لله نيته وأصلح على الحق سريرته ، تولاّه الله وملائكته وأبلغه سبحانه أمنيته وبارك في مسيرته ونشر في العالمين عبق سيرته .

أما من فسدت سريرته وتلوّثت وانحرفت ، وغلبت على داخله الشوائب الحالقة ، واستمر في الانحدار، وهو يعلم ذلك ويخفيه عمّن حوله وعن الآخرين ، بل ويظهر عكس ذلك ، أو كما وصفهم الرافعي رحمه الله :(هم بألفاظهم في الأعلى ، وبمعانيهم في الأسفل)، واستمرأ المدح والتصفيق والإطراء والتزكية والتبرير رغم كل ذلك ، ولم يكلف نفسه محاسبتها ومراجعتها وتهذيبها وإصلاحها ، لمعرفته اليقينية بها كما قال ابن عطاء:(الناس يمدحونك لما يظنونه فيك ، فكن أنت ذامّا لنفسك بما تعلمه منها).

فإن الله سيفضحه ويهتك ستره ولو بعد حين ـ عياذا بالله ـ لأنه :(من خان الله في السر (السرائر) ، هتك ستره في العلانية) ، كما قال يحي بن معاذ رحمه الله.

ولفساد السريرة أيضا تأثيرا بالغا حتى على المردود العملي لعبادات المرء ، فالقلب الذي سيطرت عليه نوازع الكبر والضغائن والأحقاد(فساد السرائر) ، أعجز من أن يمدّ الطاعات والعبادات الظاهرة بشريان العبودية لله تعالى ، وإذا انقطعت روافد العبودية ممّا بين قلب المسلم وظاهر طاعته ، لم تعد فيها أي قدرة على تقريب صاحبها إلى الله جل جلاله ، ولم يبق فيها أيّ وقاية تحجزه عن مطارح الدنيا ومنزلقات الشياطين والأهواء ، وعاد شأنها كالثمار التي ألصقت إلصاقا بأشجار يابسة ، هل ينتظر بها إلا الذبول والفساد..(٦)

ومن النتائج الخطيرة لفساد السرائر أيضا هو تخريب وإعطاب منطقة الحال ، فينقطع الاتصال بين منطقتي الفهم والإدراك من ناحية ، والممارسة والسلوك من ناحية ثانية ، فيصبح القلب من القسوة والمرض والمعاناة إلى الحد الذي لا تحركه معها موعظة واعظ ، ولا تذكرة مذكّر، ولا ينفعه معها تحذير ولا ترغيب ولا ترهيب ، إذ يقع الانفصال بذلك بين العقل والقلب ، فيدرك العقل دون أن يتأثر القلب ، يخضع الأول دون أن يلين الثاني ، وهيهات أن يملك العقل وحده قيادة السلوك في حياة الإنسان ، ذلك أن الأثر الأعظم إنما هو للقلب ، الذي هو ينبوع الرغائب والعواطف كلها.(٧)

ونظرا لخطورة أمر السريرة وتأثيره البالغ سلبا أو إيجابا على سيرة العبد ومسيرته ، فإنه ينبغي عليه وبشكل دائم ومستمر ، أن يسقي سريرته بماء الإيمان ويحفظها

صالحة سوية باستجلاب رعاية الرحمن ، وينمّيها بفيض الإحسان ، لأنه :(ما فتح الله تعالى على عبد حالة سنية ، إلا بإتباع الأوامر وإخلاص الطاعات ولزوم المحاريب).(٨)

فلا ينبغي أن يغالط المرء نفسه ، ويقدم لها التبريرات ويصنع لها الأعذار ، ويقلب لها الحقائق ، وتلتمس منه الاستئناس والموافقة ، عند تجاوزه وغلبة شهوته وسيطرة هواه وارتكابه المخالفات بل والكوارث في بعض الأحيان ، في حق نفسه ودينه ودعوته وجماعته وحركته وإخوانه ، ثم يفلسف كل ذلك بحجج تصحيح المسار والحرص على المبادئ والفرار بالمنهج والثبات على الأصول والوفاء للمؤسس والمؤسسات ، أو تحت تبريرات الإصلاح والحفاظ على الحركة وتجاوز الترهل والتخلص من البطء والتردد وتحقيق الأهداف بشكل أفضل وهكذا ، وهو لو كان صريحا مع هذه النفس الأمّارة وألجمها بلجام المجاهدة والمحاسبة ، واختلى بها خلوة إيمانية تربوية ، وخالفها ولم يثق بها ، واتهمها ولم يأمن مكرها وتدليسها وسعيها الحثيث لتوريطه ، لأنه كما قال التابعي عبدة بن أبي لبابة رحمه الله :(أقرب الناس إلى الرياء أأمنهم له).(٩)

لعله لو فعل كل ذلك بصدق وإخلاص وتجرد ، لوجد أن السبب الرئيس في معظم ذلك ، ما هو إلا الخلل في موضوع السريرة هذا ، فكل هذه الاعتبارات جميلة ومقبولة ، إذا ما روجعت السرائر أولا بشكل صريح ومبدأي دون مزايدة أو التفاف أو تحوير ، ودون تغافل عنها أو الضحك بها على النفس وعلى الآخرين ، وإلا فهي كما قال الجنيد رحمه الله :(انظر ماذا خالط قلبك) ، فهي أخلاط وشوائب تعكر الصفاء وتكدّر النقاء وتلوّث الوعاء وتمنع تأثير الدواء وتؤخر وتبعد تحقيق الشفاء . فلا سيرة نافعة ولا مسيرة حافلة ، إذا لم تسبقهما و ترافقهما سريرة صالحة ، فإن للّسريرة أثرا كبيرا على السيرة والمسيرة ، فحدّد نوع سيرتك ومسيرتك من خلال حال سريرتك ، وأستفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك.

(٤) المكونات الأساسية للخلطة السحرية لنجاح التجربة التركية ونصيب الحركات الإسلامية منها

إن النجاحات المتتالية التي حققتها وتحققها الحركة الإسلامية التركية ممثلة في حزب العدالة والتنمية ، وكذا النسب المرتفعة التي يتحصل عليها في المواعيد الانتخابية المتوالية وفي أجواء ديمقراطية حقيقية ، وتصدّره المتكرر للمشهد السياسي والانتخابي التركي بمنحنى بياني تصاعدي ملفت للانتباه ومحيّر لدى البعض ، رغم تفرّده بالسلطة تقريبا لعهدتين متتاليتين وهو في بداية ثالثة ، وعادة فإن الرأي العام في أي بلد فيه ديمقراطية وتنافس حقيقيين يصاب بالملل عند توالي وتكرار تصدّر نفس الجهة والوجوه ، ويرغب في تغيير السروج كما يقال فإن في التغيير راحة ، لكن المشهد التركي في حالة العدالة والتنمية يحدث الاستثناء ، بحيث تزداد شعبية الحزب ومشروعه وبرنامجه وكوادره ورجاله وترتفع كتلته الانتخابية ويتوسع وعاؤه الانتخابي ، فيكتسب دعما أكبرا ويكتسح مساحات جديدة جغرافيا وفئويا ، ويتجاوز كل العراقيل التي تواجهه والعقبات التي توضع في طريقه ، ويتعدّى كل الإحراجات التي يحاول خصومه أن يوقعوه فيها بين الحين والآخر ، ويخرج من كل المعارك التي يثيرها هؤلاء أكثر قوة وأعمق تأثيرا وأوسع أثرا وأكبر قبولا لدى الرأي العام التركي الحاضن الفعلي للتجربة والداعم الأكبر لها ، وكذلك الرأي العام الإسلامي وحتى الدولي .

ونرى بالمقابل الحركات الإسلامية منبهرة بالتجربة التركية ونجاحاتها المتوالية وتحتج بها أمام خصومها الإيديولوجيين والسياسيين ، دون أن تكلّف نفسها تحويل هذا الانبهار والإعجاب إلى خطوات عملية فعلية للاستفادة منها وتجسيد عوامل نجاحها على مستوى أقطارها ومساحات عملها وتحركها ، وتكييفها حسب خصوصيتها وبيئتها وظروفها ، لأننا ندرك أن استنساخ التجربة بحذافيرها كما هي أمر مستحيل ، لأن لكل قطر معطياته وظروفه ، لكن ندرك كذلك أنه يمكنها أن تستحضر المعالم الكبرى لنجاح التجربة وتسعى إلى توفيرها ما أمكن على مستواها وتخرج نسخة معدلّة ومنقحة لها تتصدّر بها مشهدها وتفرض بها حضورها ، لأنه في

بعض الأحيان يكون مبرر اختلاف البيئة والظروف وخصوصية التجربة ما هو إلا تبرير عجز وتخلّف وصناعة أعذار ونزول سقف ، أكثر منه واقعية تحليل وموضوعية تشخيص.

وحتى لا نكثر التفلسف كثيرا ، فإننا نؤكد أن لنجاح التجربة التركية ثلاث ركائز مهمة وعوامل كبرى ومكونات أساسية ، ساهمت مجتمعة في صناعة هذا النجاح والتميز ، وتكوين الخلطة السحرية التي جعلت هذا النجاح أمرا واقعا لا خيالا ، ومتكررا وتصاعديا لا طفرة مؤقتة ، وحقيقة ملموسة لا إدّعاء رخيصا ، ويتفرّع عن هذه الركائز والعوامل والمكونات كل العوامل الفرعية الأخرى .

ويمكن للحركات الإسلامية في بقية الأقطار أن تفعل الشيء نفسه لو استطاعت أن توفر هذه الركائز وتشكل هذه الخلطة بنفس مكوناتها مع ضرورة النكهة والبهارات المحلية على مستوى أقطارها ، بشكل احترافي ودائم وناضج ، بعيد عن الطفرات المؤقتة وأساليب الهواة وتوظيف الشعارات دون مردود عملي تنفيذي إنجازي وتطبيقي وملموس في واقع الناس.

لأننا رأينا ظاهرة التهافت على تمثل التجربة التركية في العديد من الأقطار قاصرة على تبني الاسم ورفع اللافتة واتخاذ الشعار دون تبني المنهج واستيعاب الجوهر وتشرّب التجربة وتوفير نفس عوامل وركائز ومكونات النجاح .

هذه الركائز والمكونات متمثلة فيما يلي :

١) ـ المال والاقتصاد :

أول هذه الركائز التي قامت عليها التجربة وساهمت في تطويرها ونجاحها ، وأول المكونات الأساسية لخلطتها السحرية هو المال والاقتصاد.

فقد أدركت الحركة الإسلامية التركية منذ بدايتها أهمية هذه الركيزة في نجاح مشروعها والتمكين له في واقع الناس ، وأنه لا يمكن للحركة أن تنجح سياسيا ومجتمعيا ، ما لم تنجح ماليا واقتصاديا ، لذلك عملت على تجذير تواجدها

ونفوذها الفكري والتربوي والتعليمي في صفوف الجالية التركية في الخارج وربطها بالوطن الأم واستثمار قدراتها المالية بالعملة الصعبة في المساهمة في المشروع التنموي الوطني الطموح والصاعد عند انطلاقته .

كما عملت على التواجد القوي والنافذ في الحراك الاقتصادي بما يشكل لوبيا مؤثرا على المستويين الاقتصادي والسياسي ، من خلال تأسيس جمعية رجال الأعمال والصناعيين المستقلين المعروفة اختصارا بالموصياد سنة ١٩٩٠ ، وقد بدؤوها بخمسة رجال أعمال ثم انطلقت في التوسع والانتشار حتى أصبحت أكبر تجمع مالي واقتصادي ليس في تركيا فحسب بل في العالم الإسلامي كله ، وتجاوز عدد أعضائها من رجال الأعمال والاقتصاديين ٤٥٠٠ عضو منهم ١٦٠٠ عضو من رجال الأعمال الشباب - إن لم يكن العدد قد زاد وتضاعف الآن - ، يمثلون في مجموعهم حوالي ١٥ ألف شركة ، للمنظمة ٣٠ فرع في تركيا و٣٢ مكتب ارتباط حول العالم ، يعتبر مؤتمرها ومعرضها السنوي حدثا مهما تحج إليه الوفود الاقتصادية والسياسية من كل ربوع الدنيا ، لما يحمله من فرصة سانحة للجميع للاستفادة وتبادل الخبرات وكذا عقد الصفقات.

وقد استطاعت الموصياد أن تكون الداعم القوي والدرع الواقي والعنصر المؤثر والعامل الصانع لنجاح التجربة والدليل العملي والواقعي على قدرتها على صناعة التنمية المتكاملة والتميز الكبير ، ممّا جعلها تحقق بشكل تصاعدي واضح للجميع معدلات تنموية مرتفعة في كل المجالات ،

بداية من دخل الفرد إلى الميزان التجاري إلى الدخل القومي العام إلى سياسات التصنيع إلى معدلات الإنجاز في البنى التحتية بأرقام مذهلة إلى الاهتمام بالفئات الفقيرة ومحدودة الدخل ، وكذلك الانتقال بالاقتصاد التركي من حافة الإفلاس والفساد المالي الكبير إلى الوصول به إلى المرتبة ١٦ عالميا وهكذا..

والنجاح التنموي الملفت والمتصاعد عند الإمساك بدفة السلطة والدولة ، هو النتيجة المنطقية لتجذر الثقافة المالية والاقتصادية لدى الحركة الإسلامية التركية منذ انطلاقتها وإدراكها المبكر لأهميتها ودورها المحوري في التمكين للمشروع وإحداث التغيير المنشود ، وهو ما ينقص الكثير من الحركات الإسلامية في أقطار شتى ، لأن

غياب الأمن الاقتصادي للحركة الإسلامية ، وهو الوضع المالي الكفيل بتجذير أثرها في المجتمع ، وامتداداتها في الزمان والمكان، وتوجيهها للعجلة الاقتصادية والسياسية من خلال الحركة الاقتصادية ، يجعلها عارية الظهر قصيرة اليد منخفضة السقف محدودة الاهتمام.

إن الحركة التي ما تزال تعتمد في نشاطاتها على إسهامات أفرادها وأعضائها فقط ، هي حركة . مهما ظنت أنها متسعة . محدودة حجما وأثرا .

إن التجذّر الاقتصادي للحركة الإسلامية يعني امتدادها في المجال الاقتصادي الضخم استثمارا واستيعابا ، أمّا في مجال الاستثمار فهو إنشاء المشاريع والإسهام فيها ، أمّا استيعابا فهو العمل الجاد على مدّ ظلال الدعوة والحركة إلى كبار المستثمرين ورجال الأعمال ، وكذا أطر الشركات ومستخدميها والانفتاح عليهم ، الأمر الذي يؤدي إلى ضمان استقرار اقتصادي للحركة وتمكينها من التأثير الاجتماعي والسياسي من البوابة الاقتصادية .

إن الأمن الاقتصادي يحقّق طمأنينة للحركة تضمن لها الامتداد وتشعرها بالتمركز القوي في المجتمع ومؤسساته ، كما أنّه يساعد على النجاح في معركة البدائل على مستوى الإعلام والفن وغيرهما، ويضمن تفرغ الكفاءات للتكفّل بمسؤوليات العمل المختلفة والمتنوعة ، بحيث لا تبقى الحركة تعتمد على التطوع وكفى في جميع مستويات عملها ، ممّا يجعله قلقا ومضطربا ، ويكفي تأخير أجور أعضائها بعض شهور للإجهاز عليها وإصابتها في مقتل ، بنزول سقف هؤلاء الأعضاء من استشراف التغيير الاجتماعي والسياسي ، إلى حمل هم دخول الراتب وتأخره ، خاصة ونحن نعلم أن غالبية أعضاء الحركات الإسلامية رجال تعليم أو موظفون صغار أو متوسطون أو مهنيون أو طلبة ، وقليل من يشذ عن هذه المجالات.

فهذا العامل الأول والأهم والمكون الرئيسي للخلطة السحرية لتراكم نجاح التجربة التركية ، فإذا ما أرادت الحركات الإسلامية السير على خطاها ، فما عليها إلا أن تكون بدايتها من هنا ، وأن تتأكد أنه لا يمكن لها أن تنجح سياسيا بشكل لافت ومتكرر إذا ما كانت فاشلة وراسبة ماليا واقتصاديا على مستوى داخلها وكذلك على مستوى محيطها.

٢) ـ الإعلام :

ثاني مكون للخلطة السحرية التركية الذي ساهم في نجاح التجربة ، وأحد الركائز المهمة التي حمت ظهرها ومكّنت لها وجعلتها مأوى أفئدة الشعب التركي ومحل اهتمامه هي الإعلام وما أدراك ما الإعلام .

فقد أدركت الحركة الإسلامية التركية مبكرا كذلك أهمية هذا المكوّن ودوره وفعاليته في التأثير والتمكين والحماية ، فعملت منذ انطلاقتها الأولى على صناعة إعلام خاص بها يكون له صوت محترم ومسموع في الساحة ، فأسست الجرائد اليومية والأسبوعية والمجلات الشهرية والدورية ، ثم الإذاعات والقنوات التلفزيونية ومراكز الدراسات السياسية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية.

وقد تطور التواجد الإعلامي للإسلاميين الأتراك بمختلف تشكّلاتهم واهتماماتهم مع تطور المسيرة ، وبلغ ذروته واحترافيته من خلال تجربة حركة فتح الله كولن الفكرية والتربوية والتعليمية والثقافية ، والعدالة والتنمية السياسية ، فتذهل بحق عندما تسمع وتقرأ عن العدد الكبير الذي يملكه أصحاب التجربة من وسائل ووسائط إعلامية مختلفة تصنع الرأي العام وتؤثر فيه وتسوّق للتجربة ونجاحاتها وإنجازاتها في المجالات المختلفة ، فجريدة يومية مثل:(زمان) مثلا التابعة لحركة فتح الله كولن تعتبر من أوسع الجرائد التركية انتشارا وأكثرها توزيعا ، حيث توزع حوالي ٨٠٠ ألف نسخة يوميا ولها وكالة أنباء مرتبطة بها هي وكالة جيهان .

وهذا المكوّن المهم المساهم بدوره في نجاح التجربة هو نتيجة منطقية للمكوّن الذي سبقه ، فلا يمكن صناعة إعلام قوي ومؤثر واحترافي بقدرات مالية واقتصادية منعدمة أو متواضعة.

والحركات الإسلامية إذا أرادت تمثل التجربة في خطوطها العريضة على الأقل وفي أصولها ، لا بد أن تمرّ من هنا حتما ويكون لها نصيب معتبر من هذا المكوّن كذلك(الإعلام)، وإلا فهي تنفخ في رماد كما يقولون وتهرش في مكان لا يستدعي الهرش أصلا ، فكيف يمكن لحركة أن تنافس على تصدّر المشهد السياسي وهي بلا لسان ولا صوت يعبر عنها وعن مواقفها ومشاريعها وإنجازاتها ورجالها ، ويسوّق كل

ذلك للشرائح المجتمعية المختلفة المشكلة للرأي العام ، الأمر الذي يجعل هذه الشرائح تتعرف على الحركة ومشروعها وأفكارها ومواقفها وبرامجها بشكل مباشر ومن خلال إعلامها وليس من إعلام خصومها وحتى أعدائها.

فقد أصبح غير مسموح البتة ولا مقبول ولا مبرر كذلك ، الغياب والعجز والتخلف والحضور الباهت إن لم نقل المعدوم إعلاميا ، في عصر الوسائط الإعلامية المتطورة ، بحيث أصبحنا نعيش زمن الدولة الإعلامية الواحدة التي ألغت الحدود وأزالت السدود واختزلت المسافات والزمن واختصرت التاريخ وتكاد تلغي الجغرافيا ، حتى بات الإنسان يرى العالم ويسمعه وهو في مقعده.

فالإعلام كان المكوّن الأساسي الثاني للخلطة السحرية التركية ، والذي ساعد على تجذرها وإيصال صورتها الحقيقية والواقعية للرأي العام ، ممّا أكسبها إعجابه وانبهاره ومن ثم دعمه ومناصرته.

وتستطيع القول ولا حرج عليك كذلك أنه لا يمكن للحركة الإسلامية في أي قطر كانت وفي أي موقع أو مرحلة هي ، أن تحلم بالتصدر وأن تنجح سياسيا إذا كانت فاشلة وعاجزة وغائبة ومتخلفة إعلاميا.

٣) ـ المرونة السياسية :

والمكوّن الآخر المهم للخلطة السحرية للتجربة التركية والضلع الثالث المتمم لمثلث المكوّنات الأساسية لها هو المرونة السياسية ، التي ساهمت بدورها بشكل فعال في تجاوز العقبات والمطبّات التي وضعت في طريقها ، وأفشلت من خلالها كل المؤامرات التي حيكت ضدها ، وأبطلت مفعول كل القنابل الموقوتة التي زرعت في مسار صعودها ، بل عن طريق هذه المرونة السياسية استطاع روّاد التجربة والقائمون عليها بذكاء ، أن يحوّلوا الكثير من هذه المطبّات والمؤامرات والقنابل إلى عوامل مساعدة على النجاح ، وتقزيم أصحابها وفضحهم وكشفهم أمام الرأي العام التركي وحتى العالمي.

وعن طريق هذه المرونة كذلك ، استطاعوا أن يتجاوزوا إحراجات الإيديولوجيا وتوريطات الشعارات التي لا ينبني عليها عمل ، وانتقلوا من الإسلام العتيق إلى الإسلام

الأنيق كما ذكر الشيخ أبو جرة سلطاني ، أو من إسلام الشعارات إلى إسلام القيم والأبعاد الحضارية ، في صور إنجازات وتجسيد عملي على الأرض وفي الواقع ، دون ضرورة رفع اللافتة والشعار ، ودون التنازل عن الثوابت والأصول والمبادئ.

وتمثل عنصر المرونة هذا لديهم كذلك ، في قدرة هائلة على الانفتاح على كل مكوّنات وأطياف الشعب التركي والتعايش مع الجميع إلا من أبى ، حتى من يخالفونهم الرأي والتوجه والخيارات ، واستطاعوا أن يستوعبوا الكثير من هؤلاء ويدمجونهم في مؤسسات الحزب المختلفة أو يحيّدونهم على الأقل في صراعهم الشرس مع عتاة العلمانية.

كما تظهر مرونتهم كذلك ، في تعاملهم بكثير من الصبر والحكمة والهدوء والأعصاب الباردة مع المؤسسة العسكرية اللاعب الرئيسي في السياسة التركية منذ تأسيس الجمهورية العلمانية ، ممّا جعلهم يكسبون النقاط بشكل مستمر ، على حساب تشددها ومحاولاتها المستميتة لإقصائهم والانقلاب عليهم وحلّ حزبهم ، فأفشلوا كل ذلك بمرونتهم السياسية ، مع سعيهم الحثيث وحرصهم الشديد على ضمان مؤسسة عسكرية قوية ومحترفة ونزيهة وخالية من كل مظاهر الفساد ، تقوم بدورها الدستوري البعيد عن التدخل السافر في الشؤون السياسية للبلد ، فخطوا بذلك خطوات مهمة وجبارة في تمدين النظام السياسي التركي بشكل كبير ، وغير قابل للرجوع إلى الوراء.

كذلك تظهر هذه المرونة ماثلة للعيان في التعامل مع القضية الكردية وهي قضية بالغة الحساسية لدى غالبية الرأي العام التركي ، ومعها كل الأقليات الموجودة عندهم .

أيضا تظهر الآثار الإيجابية لهذه المرونة في المواقف من القضايا الخارجية والفهم الجيد للخريطة السياسية الدولية والتوازن الفعال في علاقات تركيا الدولية ، الأمر الذي أكسبها حضورا أكبرا وأهمّا وأكثر تأثيرا في السياسة الدولية ، حتى أصبحت تركيا لاعبا أساسيا لا يمكن تغييبه عن المشهد الدولي ، بل يحسب له ألف حساب ، كما استطاعت الدبلوماسية التركية أن تقدم نفسها كوسيط مهم لحل الكثير من الأزمات والنزاعات الإقليمية والدولية ، خاصة بعد تولي الخبير الإستراتيجي أحمد

داوود أوغلو دفتها ، والقاريء لكتابه العمق الإستراتيجي يدرك هذه المرونة والحكمة والذكاء وسعة الأفق.

ومكوّن المرونة السياسية هذا ، مرتبط ارتباطا وثيقا كذلك بالمكوّنين الذين سبقاه ، فلا يمكن أن تكون مرنا سياسيا وأنت عاري الظهر اقتصاديا وإعلاميا ، عندها يكون عنصر المرونة هذا عامل ضعف وإنزال سقف واستبساط من طرف المنافسين والخصوم والمتربصين ، أكثر منه قوة وحكمة وواقعية ، كما أن القوة الاقتصادية والمالية والتنموية والإعلامية تفتح مجالا واسعا وآفاقا رحبة للمرونة السياسية التي نتحدث عنها ، كي تبلغ الأهداف بسهولة ويسر وتحقق مبتغى أصحاب التجربة بشكل سلس وتفرض احترامها وقبولها وحتى هزيمتها ، للآخر المحايد أو المنافس أو المتربص.

فالكثير من الحركات الإسلامية السياسية على وجه التحديد ، تدرك أهمية عامل المرونة هذا ، بل ومارسته وتمارسه بشكل جيّد ومقبول في العديد من المحطات والمواقف ، لكن لمّا كان ويكون منبتا عن قوة مالية واقتصادية وإعلامية تعضده وتحميه وترعاه وتبرره وتسوّقه ، فإنها حتما لا يكون لها المردود المرجو والنتائج المتطلّع إليها من خلال تطبيقه.

في خلاصة الموضوع نقول أن معادلة نجاح التجربة التركية أو خلطتها السحرية كما عبّرنا عنها في هذا المقال ، تقوم على هذا الثالوث الرئيس ، الذي تتفرّع عنه كل العوامل الجزئية والتفصيلية الأخرى ، التي ساهمت مجتمعة في تحقيق كل هذا النجاح والتميز ، وما على الحركات الإسلامية المنبهرة والمعجبة بالتجربة ونتائجها وإنجازاتها ، إذا أرادت تمثلها والاستفادة منها ، أن تراهن على هذا الثالوث كذلك مجتمعا ، مهما كانت خصوصيتها وبيئتها وظروفها .

فمال واقتصاد قوي + إعلام محترف وقوي كذلك + مرونة سياسية مدروسة ومخطط لها = تجربة رائدة وناجحة ومتميّزة.

(٥) ومضات في التعامل مع الفتن

إن فضائح الفتن وثمارها المرّة ، تجعل المرء يفكر ألف مرة قبل أن يقدم على الاستجابة لرؤوسها وصانعيها وحاملي لوائها مهما كانت مبرراتهم ودوافعهم وحججهم ، فلا يمكن لصاحب عقل راجح وقلب نابض وغيرة حيّة وتربية سليمة وتضحية عزيزة ووفاء ثابت وخلق أصيل ، أن يتجاوب مع إرادات التمزيق والتفجير والانشقاق والتشرذم والتهديم ، وبما أن المسؤولية فردية والتبعة كذلك ، فإنه يتعين على كل من تورّط أو ورّط ليكون معول هدم لصرح شامخ بني بدماء وعرق ، وجهود وتضحيات ، وآلام وآمال على مدار السنين ، تراكمت حتى جعلت منه علما بارزا وجبلا أشما استهوى ويستهوي كل المخلصين ومحبي الخير في شتّى البقاع، عليه أن يعدّ إجابة واضحة جلية لا لبس فيها ليقدمها في حضرة مولاه عز وجل . الذي لا تخفى عليه خافية لمّا يسأله : لما أقدمت على هذا الفعل؟؟؟؟؟.

فحرّر عقلك . أخي الفاضل . من التبعية والتقليد لفلان أو علاّن مهما علا شأنه ، وارتفعت منزلته ، وشع بريقه ، وتجرّد من الشخصنة ، وابتعد عن المجاملة والتبرير لأي كان ، ولا ترضى لنفسك أن تكون وقودا للفتنة وبوقا لمثيريها ومؤججيها ومسعري نارها ، ولا تدع أحدا مهما كان أن يستعملك إسفينا ، وكن فيها كابن اللّبون لا ظهرا فيركب ولا ضرعا فيحلب ، وليكن شعارك قاعدة الإمام ابن القيم رحمه الله :(شيخ الإسلام حبيب إلى قلوبنا ولكن الحق أحب إلينا منه)، فعلى نهجه قل: فلان حبيب إلى قلبي ولكن الحركة والجماعة والمنهج أحب إلي منه.

بهذه العقلية ، وهذا الشعور بالمسؤولية الذاتية أريدك أن تستقبل ومضاتي التي اهديها لك ـ بلسان الصالحين والبلغاء والشعراء ـ بعيدا عن الأحكام المسبقة المانعة من المراجعة والاستدراك ، والمكابرة الحاجزة عن الاعتراف بالخطأ ، والتأويل السيئ الحائل دون الرجوع إلى الحق.

١) ـ الومضة الأولى : فليكن المنطلق القاعدة الحسنية:

قال الحسن البصري رحمه الله: (ما ضربت ببصري ، ولا نطقت بلساني ، ولا بطشت بيدي ، ولا نهضت على قدمي ، حتى انظر أعلى طاعة أم على معصية، فإن كانت على طاعة تقدمت ، وإن كانت على معصية تأخرت).

٢) . الومضة الثانية : نقض العهد بريد لقسوة القلب :

قال ابن عقيل الحنبلي رحمه الله :(يا من يجد في قلبه قسوة ، احذر أن تكون نقضت عهدا ، فإن الله تعالى يقول :(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً)(المائدة١٣).

٣) . الومضة الثالثة : استشعار بشاعة التفريق بين الأحبّة :

عن عبد الرحمن بن غنم مرفوعا :(خيار عباد الله الذين إذا رؤوا ذكر الله ، وشرار عباد الله : المشّاءون بالنميمة ، المفرّقون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العنت)(أخرجه أحمد).

وقال الشاعر : ثلاث يعزّ الصبر عند حلولها ويذهل عنها عقل كل لبيب

خروج اضطرار من بلاد تحبها وفرقة إخوان وفقد حبيب

وقال الآخر : وكل مصيبات الزمان وجدتها سوى فرقة الأحباب هينة الخطب.

٤) . الومضة الرابعة : الأعراض خط أحمـــــر :

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(الربا اثنان وسبعون بابا ، أدناها مثل إتيان الرجل أمه ، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه)(السلسلة الصحيحة).

وقال أحد السلف : أربعة من علامات اللؤم : إفشاء السر ، واعتقاد الغدر ، وغيبة الإخوان وإساءة الجوار.

٥) . الومضة الخامسة : الرضا والتمالي مشاركة :

قال عبد الواحد : قلت للحسن : يا أبا سعيد ، أخبرني عن رجل لم يشهد فتنة أبن المهلب إلا أنه عاون بلسانه ورضي بقلبه !! قال : يا ابن أخي ، كم يد عقرت الناقة ؟ قلت : يد واحدة ، قال : أليس قد هلك القوم جميعا برضاهم وتماليهم).

٦) . الومضة السادسة : الثلاثية التي تعود على صاحبها :

قيل : ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه : البغي لقوله تعالى :(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم)(يونس٢٣) ، والمكر لقوله تعالى:(وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ)(فاطر٤٣)، والنكث لقوله تعالى:(فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ)(الفتح١٠).

٧) . الومضة السابعة : تنبه إلى أهم خصائص الفتن :

قال عادل عبد الله شويخ رحمه الله :(وإن من أهم خصائص الفتن : أن أهلها عيّابون طعّانون يلبسون قليل الحق بكثير الباطل ، ويكتمون الكثير من المحاسن ، ولا تنجو رواياتهم من التدليس ، ويسيؤون تفسير المواقف ويتأولون الألفاظ)..

٨) . الومضة الثامنة : لا تكن من أعداء المروءة :

قال النسّابة البكري لرؤبة بن الحجاج:(ما أعداء المروءة ؟ قال : تخبرني ، قال : بنو عم السوء ، إن رأوا حسنا ستروه ، وإن رأوا سيئا أذاعوه).

٩) . الومضة التاسعة : عواقب الفجور في الخصومة :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(... ومن خاصم في باطل وهو يعلمه ، لم يزل في سخط الله حتى ينزع ...)(جزء من حديث أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم).

وقال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله :(وكثير ما تطيش الخصومة بألباب ذويها ، فتتدلى بها إلى اقتراف الصغائر المسقطة للمروءة ، والكبائر الموجبة للّعنة ، وعين السخط تنظر من زاوية داكنة ، فهي تعمى عن الفضائل ، وتضخم الرذائل ، وقد يذهب بها الحقد إلى التخيل وافتراض الأكاذيب ، وذلك كلّه ممّا يسخطه الإسلام ويحاذر وقوعه ، ويرى منعه أفضل القربات ... فصاحب الصدر السليم يأسى لآلام العباد ، ويشتهي لهم العافية ، أما التلهّي بسرد الفضائح ، وكشف الستور ، وإبداء العورات ، فليس مسلك المسلم الحق).

١٠) . الومضة العاشرة : جرّد مقصدك وأعتبر من عمرو بن الحمق :

(وأما عمرو بن الحمق فوثب على صدره وبه رمق (أي سيدنا عثمان رضي الله عنه) ، فطعنه تسع طعنات فقال : أما ثلاث فإني طعنتهن إياه لله تعالى ، وأما ستّ فلما كان في صدري عليه).

١١) . الومضة الحادية عشر : صنف نفسك من أي المعادن أنت ؟

قال مصطفى السباعي رحمه الله :(الناس معادن ، خيارهم في السرّاء خيارهم في الضراء ، وخيارهم في التولية خيارهم في العزل ، وخيارهم في الجاه خيارهم في الخمول ، وخيارهم في القوة خيارهم في الضعف ، وخيارهم في الجندية خيارهم في القيادة).

١٢) . الومضة الثانية عشر : تحرّى الصدق لتنجو من الخيانة :

روي عن سفيان بن أسيد مرفوعا :(كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت به كاذب)(رواه البخاري في الأدب وأبو داود).

١٣) . الومضة الثالثة عشر : شتّان بين الجماعة والفرقة :

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :(يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة ، فإنهما السبيل إلى حبل الله الذي أمر به ، وإنّ ما تكرهون في الجماعة خير ممّا تحبّون في الفرقة).

وقال الطحاوي رحمه الله في متن عقيدته :(ونرى الجماعة حقّا وصوابا ، والفرقة زيغا وعذابا).

١٤) . الومضة الرابعة عشر : احرص على رضا ربك ، فإن إرضاء الناس غاية لا تدرك مهما فعلت :

قال الشاعر :

ضحكت فقالوا : ألا تحتشم بكيت فقالوا : ألا تبتسم

بسمت فقالوا : يرائي بها عبست فقالوا بدا ما كتم

صمتّ فقالوا : كليل اللّسان نطقت فقالوا كثير الكلم

حلمت فقالوا: صنيع الجبان ولو كان مقتدرا لأنتقم

بسلت فقالوا: لطيش بـــه وما كان مجترئا لو حكم

يقولون شذّ إذا قلت : لا وإمّعة حين وافقتـــهم

فأيقنت أنّي مهما أردت رضا النّاس لابد لي أن أذم

١٥) . الومضة الخامسة عشر : تحقيق صدق الأخوة منجاة:

قال الإمام الشافعي رحمه الله :(من صدق في أخوة أخيه : قتل علله ، وسدّ خلله ، وعفا عن زلله).

وقال يونس الصدفي رحمه الله :(ما رأيت أعقل من الشافعي ، ناظرته يوما في مسألة ،ثم افترقنا ولقيني فأخذ بيدي ، ثم قال : يا أبا موسى ، ألا يستقيم أن نكون إخوانا وإن لم نتفق في مسالة).

١٦) . الومضة السادسة عشر : اربأ بنفسك أن تكون الورقة الجافة أو الحطبة اليابسة من الشجرة الضخمة :

قال سيد رحمه الله :(المرّة بعد المرّة يصاب بعض أفراد الجماعة بنزوات ، وفي كلّ مرّة يسقط أصحاب هذه النزوات كما تسقط الورقة الجافة من الشجرة الضخمة ، وقد يمسك العدو بفرع من الشجرة ويظن أنّه بجذب هذا الفرع سيقتلع معه الشجرة كلّها ، حتّى إذا آن الأوان وجذب الفرع خرج في يده كالحطبة الجافّة لا ماء ولا حياة ، وبقيت الشجرة).

١٧) . الومضة السابعة عشر : تشجّع ومارس الهبّة الصالحية :

يقول الراشد : (وقد ضرب الأستاذ صالح عشماوي رحمه الله مثلا لهؤلاء ، لعلّهم بقصته وتوبته يقتدون.

كان الأستاذ رحمه الله ورفع درجته من قدماء الدعاة ورجال الرعيل الأول ، ولبث مع الإمام المؤسس دهرا كأحسن ما يكون الداعية عملا ، وأصبح عضو المكتب ، فلمّا قتل الإمام رحمه الله والمحنة جاثمة : اختلطت أوراق ، واشتبهت أمور ، وتحرّكت وساوس ، فافتتن نفر ، وجعلوا الأستاذ رأسا عليهم ، ثم مرّت السنوات الحالكة ، وطالت المحنة ، فندم على ما كان منه ، وطلب أبلغ صور التوبة النّصوح.

وقد زرت دار مجلّة الدعوة يوما فوجدت شيخا وقورا يجلس بتواضع على كرسي خيزران قديم خارج باب الشقّة كأنّه بوّاب ، ولكنّه مهيب ، وله طلعة نورانية.

فسلّمت عليه واستأذنته ، فأذن ، فدخلت ، فقال لي أخ ممّن هناك : هل عرفت ذاك الرجل المحترم الذي كأنّه بوّاب.

قلت : لا ، لكنّه استرعى اهتمامي.

قال: ذاك صالح عشماوي ، يرى نفسه استروحت يوم جعله المشاكسون رأسا ونادوا به أميرا ، وعزم على أن يرجع جنديا في آخر الصف ، ويصرّ على أنّ ذلك من تمام توبته ، فأختار أن يكون بوّابا ، ولو يعلم أنّ هناك منزلة أدنى من منزلة البوّاب لسارع إليها ، يلغي بذلك ما سلف منه من تطلّع للصّدارة .

فعجبت ودهشت لهذه الرّوح الصّافية والقلب الكبير.

ثمّ قال لنا الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله : دعونا له ، ودعوناه أن يكون أخا لنا يشارك كالآخرين ، ويتوب الله على من تاب ، ولكنّه أبى ورفض ، وأصررنا وبلغنا غاية الجهد في إقناعه ، لكنّه أصر إصرارا على أن يعاقب نفسه بالتأخير .

ثمّ خطبنا الأستاذ عمر رحمه الله بعد سنوات فقال: لقد تاب الأستاذ صالح عشماوي توبة أحسبها لو وزّعت على دعاة الإسلام في القاهرة جميعا لوسعتهم. رحمهم الله جميعا ، وعصمنا من الفتن بعدهم).

١٨) . الومضة الثامنة عشر : لن تذهب بعيدا وستحنّ لبيتك الأول العامر إن صدقت :

قال الشاعر :

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منـــزل

١٩) . الومضة التّاسعة عشر : الاعتذار وقبوله من شيم العظماء :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من اعتذر إلى أخيه بمعذرة لم يقبلها كانّ عليه مثل خطيئة صاحب مكس)(رواه ابن ماجه).

وقال الشاعر :

قيل لي : قد أساء إليك فلان وقعود الفتى على الضيم عار

قلت: قد جاءنا فأحدث عذرا ديّة الذنب عندنا الاعتذار

٢٠) . الومضة العشرون : فلنطوي الصفحة ولنجدّد العهد :

قال الشاعر : من اليوم تعارفنا ونطوي ما جرى منّا

فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلـــنا

وإن كان لابد من العتب فبالحسنى

وقال الآخر :

تعالوا نطوي الحديث الذي جرى ولا سمع الواشي بذاك ولا درى

تعالوا بنا حتّى نعود إلى الرضا وحتّى كأنّ العهد لم يتغيـــرا

لقد طال شرح القال والقيل بيننا وما طال ذاك الشرح إلاّ ليقصرا

من اليوم تاريخ المحبّة بيننـــا عفا الله عن ذاك العتاب الذي جرى

٢١) ـ الومضة الواحدة والعشرون : التحلّي بآداب النصيحة وتجنّب التشهير:

قال الإمام الشافعي:(من وعظ أخاه سرّا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه).

وقال مسعر:(رحم الله من أهدى إلي عيوبي في سرّ بيني وبينه ، فإنّ النصيحة في الملأ تقريع). وقال الإمام البنا:(يا أخي لتكن نصيحتك لأخيك تلميحا لا تصريحا وتصحيحا لا تجريحا).

قال الشاعر:

تعمّدني بنصحك في انفراد وجنّبني النصيحة في الجماعة

فإنّ النصح بين الناس نوع من التقريع لا أرضى استماعه

فإن خالفتني وعصيت قولـــــي فلا تجزع إذا لم تعط طاعــة

٢٢) ـ الومضة الثانية والعشرون: إيّاك وكفران العشير فإنّه مطية اللّؤم:

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(... قال: تكثرن اللّعن وتكفرن العشير)(البخاري وابن ماجة).

قال الإمام الشافعي:(الحرّ من راعى وداد لحظة ، أو تمسّك بمن أفاده لفظة).

وقال أيضا شعرا : إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة فلا خير في ودّ يجيْ تكلّفـــا

ولا خير في خلّ يخون خليله ويلقاه من بعد المودّة بالجفـــا

وينكر عيشا قد تقادم عهــده ويظهر سرّا كان بالأمس قد خفــا

سلام على الدنيا إذا لم يكن بها صديق وفيّ يصدق الوعد منصفا

وقيل في منثور الحكم:(إيّاك أن تبصق في بئر شربت منها يوما ، لعلّك تعود إليها عطشانا).

٢٣) ـ الومضة الثالثة والعشرون: أنصف القادة من نفســـــــك :

قال الإمام علي رضي الله عنه :(أنصفونا يا معاشر الرعية ، تريدون منّا أن نسير فيكم سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعيّة أبي بكر وعمر) يقول الراشد شارحا:(ونقول لك كالّذي قال: أنصف أيّها الداعية ، وكن عادلا واقعيا ، فإنّك تريد من القادة إنجازا لعلّه الآن في مثل صعوبة فتوح أبي بكر وعمر ، وأنت لا تهب دعوتك ما وهبه جند أبي بكر وعمر ، تجمع الأموال ، وتخشى الفقر ، وتطيل السمر مع زوجك ، وتعطي الدعوة فضول الأوقات ، ثم تريد أن ترى المعجزة ، كلاّ ، كلاّ ، بل شرط بشرط ، من أراد أميرا كأبي بكر وعمر ، فليكن كخالد وكسعد رضي الله عنهم أجمعين).

٢٤) ـ الومضة الرابعة والعشرون : أقل ذوي الهيئــات عثراتهــم :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم:(أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلاّ الحدود)(أبو داود)

علّق ابن القيم عن الحديث في بدائع الفوائد:(والظاهر أنّهم ذوو الأقدار بين الناس من الجاه والشرف والسؤدد ، فإنّ الله تعالى خصّهم بنوع تكريم وتفضيل على بني جنسهم ، فمن كان منهم مستورا مشهورا بالخير ، حتّى كبا به جواده ، ونبا غضب صبره ، وأديل عليه شيطانه ، فلا تسارع إلى تأنيبه وعقوبته ، بل تقال عثرته ، ما لم تكن من حدود الله).

وقال الماوردي:(لا يزهّدك في رجل حمدت سيرته ، وارتضيت وتيرته ، وعرفت فضله ، وبطنت عقله ، عيب خفيّ يحيط به كثرة فضائله ، أو ذنب صغير تستغفر له قوة وسائله...).

وقال الشاعر: ومن ذا الّذي ترضى سجاياه كلّها كفى بالمرء نبلا أن تعدّ معايبه.

٢٥) ـ الومضة الخامسة والعشرون : أكس ألفاظك أحسنهـــا:

روى البخاري في كتاب الأدب حديث:(لا يقولنّ أحدكم خبثت نفسي ، ولكن ليقل لقست نفسي) ، قال ابن حجر في الفتح:(يؤخذ من الحديث استحباب مجانبة الألفاظ القبيحة والأسماء ، والعدول إلى مالا قبح فيه .. وإن كان المعنى يتأدّى بكلّ منهما).

قال المزني:(سمعني الشافعي يوما وأنا أقول: فلان كذاب ، فقال لي: يا إبراهيم أكس ألفاظك أحسنها ، لا تقل كذّاب ، ولكن قل: حديثه ليس بشيء).

٢٦) ـ الومضة السادسة والعشرون : سلامة الصدر لا تحد عنها مهما كان :

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم:(أيّ الناس أفضل؟ قال: كلّ مخموم القلب ، صدوق اللّسان ، قالوا: صدوق اللّسان نعرفه ، فما مخموم القلب؟ قال: هو التقي النقي ، لا إثم فيه ولا بغي ولا غلّ ولا حسد)(ابن ماجة).

وقال عليه الصلاة والسلام أيضا:(إنّ بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بكثرة صلاة ولا صوم ، وإنّما دخلوها بسخاوة الأنفس وسلامة الصدور ورحمة الله).

وقال السري السقطي :(من أجلّ أخلاق الأبرار سلامة الصدر للإخوان والنصيحة لهم).

وقال قاسم الجوعي:(أصل الدين الورع ، وأفضل العبادة مكابدة اللّيل ، وأقصر طرق الجنّة سلامة الصدر).

٢٧) ـ الومضة السابعة والعشرون: كن واقعيا في تعاملك مع إخوانك ولا تشطط:

قال عيسى عليه السلام: (كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائما ، وقد كشفت الريح ثوبه عنه ؟ قالوا: نستره ونغطّيه، قال: بل تكشفون عورته ، قالوا: سبحان الله ، من يفعل هذا؟ قال: أحدكم يسمع بالكلمة عن أخيه فيزيد عليها وينشرها بأعظم منها).

وقال ذو النون :(لا خير في صحبة من لا يحب أن يراك إلاّ معصوما).

وقال الفضيل:(من طلب أخا بلا عيب بقي بلا أخ).

وقال الإمام علي رضي الله عنه:(شرط الصحبة إقالة العثرة ومسامحة العشرة والمواساة في العسرة).

وقال الشاعر:

وشرّ الإخلاّء من لم يزل يعاتب طورا وطورا يذم

يريك النصيحة عند اللّقاء ويبريك في السرّ بري القلم

٢٨) ـ الومضة الثامنة والعشرون: أدرك الثمار المرّة للفتنة:

قال معاوية رضي الله عنه مخاطبا الناس في الفتنة:(..فإن لم تجدوني أقوم بحقّكم كلّه فأرضوا ببعضه ، فإنّها ليست بقابية قوبها ، وإنّ السيل إذا جاء يبري وإن قلّ أغنى ، إيّاكم والفتنة فلا تهموا بها فإنّها تفسد المعيشة ، وتكدّر النعمة ، وتورث الاستئصال..).

٢٩) ـ الومضة التاسعة والعشرون: تجنّب المهلكات ولا تدع الشيطان يظفر منك بما يريد:

قال صلى الله عليه وسلم :(ثلاث مهلكات : شحّ مطاع ، وهوى متّبع ، وإعجاب المرْ بنفسه). وقال الفضيل:(إذا ظفر إبليس من ابن آدم بإحدى ثلاث خصال قال: لا أطلب غيرها، إعجابه بنفسه ، واستكثاره عمله ، ونسيانه ذ نوبه).

وقال ابن القيم:(إن الهوى ما خالط شيئا إلاّ أفسده...).

٣٠) ـ الومضة الثلاثون: حب الرياسة والتصدّر قبل الأوان باب كلّ فتنة فكن منه على حذر:

قال الفضيل:(ما من أحد أحبّ الرياسة إلاّ حسد وبغى وتتبّع عيوب الناس ، وكره أن يذكر أحد بخير).

وقال ابن عبد البرّ : حبّ الرياسة داء يخلق الدنيا ويجعل الحب حربا للمحبّينا

يفري الحلاقم والأرحام يقطعها فلا مروءة يبقي ولا دينـا

وقال الثوري:(من طلب الرياسة قبل مجيئها فرّت منه). وقال عبيد الله بن الحسن العنبري:(لأن أكون ذنبا في الحق ، أحبّ إليّ من أكون رأسا في الباطل).

٣١) ـ الومضة الحادية والثلاثون: لا مزاجية في ركن الطاعة وهو كلّ لا يتجزّأ:

يقول عبد الوهاب عزام في شوارده:(يسارعون إلى الطاعة فيما يحبّون ، ويبطئون فيما يكرهون ، فإن امتحنوا بأمر يكرهونه وفيه صلاح الجماعة عذروا وولّوا ، أو أطاعوا كارهين ، وامتثلوا ساخطين ، وإنّما أداء الواجب أن تؤدّيه في المنشط والمكره ، وتصدع به فيما تحب وتبغض ، وأن تتلقّاه عزيمة لا رخصة فيها ، وحزما لا تردّد فيه، وجدّا لا هوادة لديه ، حتّى لا يكون للرأي فيه تردّد ، ولا للهوى فيه خيار ، وهو الواجب تلقاه راضيا ، وتمضي به مقدما ، وتحتمله صابرا ، وهو حلو عندك وإن أمرّ ، ونافع وإن بك أضرّ، هكذا تمضي الجماعات والآحاد بواجباتها،غير معذرة فيها ، حتّى يكون أداء الواجب ديدنا لا مفرّ منه ، وعزما لامحيص عنه ، ذلكم قياس الصدق في الآحاد ، وميزان الإخلاص في الجماعات).

٣٢) ـ الومضة الثانية والثلاثون: الإمعية والشخصنة انحراف:

قال صلى الله عليه وسلم : (لا يكن أحدكم إمّعة يقول : أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ؛ ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم)(الترمذي).

وقال عبد القادر عودة رحمه الله:(إنّها دعوة الله ، وليست دعوة أشخاص ، وإن الله علّم المسلمين أن الدعوة ترتبط به ، ولا ترتبط بالدعاة إليها ، وإنّ حظّ الأشخاص منها أنّ من عمل لها أكرمه الله بعمله ، ومن ترك العمل لها فقد أبعد الخير عن نفسه ، وما يضرّ الدعوة شيئا).

٣٣) ـ الومضة الثالثة والثلاثون: تثبّت وتبيّن فإنّ الكذب قاصم للإيمان مذهب للمروءة:

عن أبي أمامه مرفوعا:(يطبع المؤمن على الخصال كلّها إلاّ الخيانة والكذب)(أحمد).

وروت عائشة رضي الله عنها أنّه كان الرجل يكذب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذبة ، فما يزال في نفسه عليه حتى يحدث منها توبة)(أحمد والترمذي).

وقد كان العربي قديما يستنكف أن يكذب على ناقته استقباحا لرذيلة الكذب فما بالك بالعباد ، فكان يقول لها وقد هاجها الظمأ الشديد: أريد أمنّيك الشراب لتهدئي ولكن عار الكاذبين يحول

وجاء رجل إلى وهب فقال له: إنّ فلانا شتمك ، فقال له: أما وجد الشيطان بريدا غيرك).

٣٤) ـ الومضة الرابعة والثلاثون: لا تجعل الخلاف طريقا للفرقة والهجران المحرّم:

عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار)(أبوداود وأحمد).

وعن أبي خراش السلمي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:(من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه)(أبوداود).

وقال الإمام ابن باديس رحمه الله:(أن لا نجعل القليل ممّا نختلف فيه سببا في قطع الكثير ممّا نتّفق عليه ، وإن الاختلاف بين العقلاء لابدّ أن يكون ، ولكن الضار والممنوع المنع البات هو أن يؤدينا ذلك الاختلاف إلى الافتراق).

وقال الشاعر:

أيهجر مسلم فينا أخاه سنينا لا يمدّ له يمينه

أيهجره لأجل حطام دنيا أيهجره على نتف لعينه

ألا أين السماحة والتآخي وأين عرى أخوتنا المتينة

بنينا بالمحبة ما بنينا وما باع إمريء بالهجر دينه

علام نسدّ أبواب التآخي ونسكن قاع أحقاد دفينة

٣٥) ـ الومضة الخامسة والثلاثون: إملء الفراغ بالعمل تنجو:

قال أحد السلف:

(إذا أراد الله بعبد خيرا ، فتح له باب العمل وأغلق عليه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شرّا أغلق عليه باب العمل وفتح له باب الجدل).

وقال أبو العتاهية:

ما أحسن الشغل في تدبير منفعة أهل الفراغ ذوو خوض وإرجاف

وقال يحي بن معاذ:

(المغبون من عطّل أيامه بالبطالات ، وسلّط جوارحه على الهلكات ، ومات قبل إفاقته من الجنايات). وقد قيل :(إنّ الصف الذي تنتشر فيه البطالة تكثر فيه المشاغبات).

٣٦) ـ الومضة السادسة والثلاثون: رابط في المحاضن ، فإنّ ضعف التربية رأس كلّ خطيئة:

يقول فتحي يكن رحمه الله في الإيدز الحركي:(إنّ ضعف المستوى التربوي هو الخرق الذي يمكن أن تدلف منه كلّ العلل والأوبئة والمشكلات إلى جسم الحركة ، وهو الذي يفتح الباب على مصراعيه أمام الفتن.

فهو المناخ المناسب للآفات المساعدة على حصول الهزّات والانقسامات في حياة الأفراد والجماعات والحركات،كالغيبة والنميمة وتتبّع العورات ، والنقد الهدّام ، والتشكيك والإرجاف ، وعدم التماس الأعذار ، وعدم التبيّن ، والتعصّب للرأي ، والمكابرة والعناد، وطرح الخلافات في غير أماكن طرحها ، وإنشاء المحاور وتحريكها، وتحويل الخلافات المبدئية إلى خلافات شخصية، إلى ما هنالك من آفات وعلل لا تبقي ولا تذر.

إنّ ضعف التربية يعني تدنّي مستوى التقوى والورع .. يعني ضعف قوامة الشريعة على السلوك والأعمال والأقوال والتصرفات عموما، وهذا يؤدي بالنتيجة إلى السقوط في حبائل الشيطان وشرك الهوى ومضلاّت النفس الأمّارة بالسوء ، ممّا فيه هلكة الفرد والجماعة.

إنّ ضعف التقوى والورع مدخل إلى الترخّص واستصغار الذنوب والتساهل مع النفس ، ممّ يؤدّي في النتيجة إلى ارتكاب الموبقات والكبائر تحت شعارات ومبرّرات وعناوين عريضة ، لكنها في الحقيقة من تلبيس إبليس).

٣٧) ـ الومضة السابعة والثلاثون: إيـّاك والاعتزال والتوقّف ، فإنّه سلبية تنافي الرجولة:

عن أبي هريرة قال : مرّ رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته ، فقال : لو اعتزلت الناس ، فأقمت في هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ، فقال له: لا تفعل فإنّ مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاما)(الترمذي).

٣٨) ـ الومضة الثامنة والثلاثون: حافظ على العهد القديم ، وكن من الثابتين:

قال جعفر الخلدي البغدادي:(ما عقدت للّه على نفسي عقدا فنكثتـــــــه).

وقال محمد برّاح مخاطبا الشيخ محفوظ نحناح رحمه الله ، ومعاهدا له باسم جميع الإخوان:

لربّما باع بعض القوم عشرتنا والخائنون كثير حولنا انتشروا

وقيتنا الريح يوم إصّاعدت فتن وكنت كالغيث حين إطّاير الشرر

كلّ النهايات لازالت مفتّحـــة والحاسدون لهذا الحسن قد عثروا

خابوا جميعا فلازالت توحّدنـا روابط العهد فالإخوان ما غدروا

نعاهد الله أنّا الثابتون غـــدا هذا يمين إلى لقياك يدّخـــر

وأكتب على صفحات المجد من دمنا يمضي الرجال ويبقى النهج والأثر

وقال الأحنف:(أسرع الناس في الفتنة أقلهم حياء من الفرار).

٣٩) ـ الومضة التاسعة والثلاثون:احذر المغادرة الغادرة وفارق بالّتي هي أحسن إذا لزم الأمر:

يقول الشيخ محفوظ نحناح رحمه الله :(الحذر من: ـ أن تكون وسيلة تلغيم وتأزيم للحركة . المغادرة الغادرة للحركـــة).

وقال الإمام الشافعي رحمه الله:

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى وحظّك موفور وعرضك صيّن

لسانك لا تذكر به عورة أمريء فكلّك عورات وللنّاس ألسن

وعينك إن أبدت إليك مساوئـــا فصنها وقل يا عين للناس أعين

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفارق ولكنّ بالتي هي أحسن

وقال الراشد:(بل العيب في التخذيل والوقوف في طريق الآخرين صدودا وهمسا في آذان المؤيّدين ، وأمّا ما وراء ذلك فهو التنافس في الخير والبقاء للأصلح).

٤٠) ـ الومضة الأربعون: اللّجوء إلى الله بصدق خير عاصم ، وسهام اللّيل لا تخطيء:

لما كانت فتنة ابن الأشعث قال طلق بن حبيب : اتقوها بالتقوى . فقيل له : صف لنا التقوى .. فقال : العمل بطاعة الله ، على نور من الله ، رجاء ثواب الله ، وترك معاصي الله ، على نور من الله ، مخافة عذاب الله).

وقال الفضيل:(عليكم بالتوبة فإنّها تردّ عنكم ما لا تردّه السيوف).

وقال ابن القيم:(من علاماته(اليقين) الالتفات إلى الله في كلّ نازلة ، والرجوع إليه في كلّ أمر ، والاستعانة به في كل حال ، وإرادة وجهه بكلّ حركة وسكون).

وعن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال:(إنّ الله حييّ كريم ، يستحي إذا رفع الرجل يديه أن يردّهما خائبتين)(الترمذي والحاكم).

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم ، إلاّ أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إمّا يعجّل له دعوته ، وإمّا أن يدّخرها له في الآخرة ، وإمّا أن يصرف عنه من السوء مثلها)(الحاكم).

٤١) ـ الومضة الواحدة والأربعون:التناجي مفتاح الفتنة والنكث والخروج:

قال الراشد:(ولقد أظهرت لنا التجارب الكثيرة أن معظم التناجي يؤدي إلى الخروج ونكث البيعة، ولا تتجاوز أن يكون مرحلة أولية للماشي في درب الفتنة، دري أو لم يدر، ولا يتجاوز حجة المتناجي أن تكون هي نفسها حجة الخارج، كلاهما يدعي أنه يريد مصلحة الإسلام، وأنه يمارس ضربا من العبادة، والخطأ يلفهما لفا)(العوائق١٩٦).

و نقل عن سيد قوله:(لقد تكرر في القرآن النهي عن النجوى، وهي أن تجتمع طائفة بعيدًا عن الجماعة المسلمة وعن القيادة المسلمة، لتبيت أمرًا. وكان اتجاه التربية الإسلامية واتجاه التنظيم الإسلامي كذلك أن يأتي كل إنسان بمشكلته أو بموضوعه، فيعرضه على النبي - صلى الله عليه وسلم- مساره إن كان أمرًا شخصيًا لا يريد أن يشيع عنه في الناس: أو مساءلة علنية إن كان من الموضوعات ذات الصبغة العامة، التي ليست من خصوصيات هذا الشخص.

والحكمة في هذه الخطة، هو ألا تتكون جيوب في الجماعة المسلمة، وألا تنعزل مجموعات منها بتصوراتها ومشكلاتها، أو بأفكارها واتجاهاتها، وألا تبيت مجموعة من الجماعة المسلمة أمرًا بليل، وتواجه به الجماعة أمرًا مقررًا من قبل، وتستخفي به عن أعينها، وإن كانت لا تختفي به عن الله، وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول)(العوائق١٩٧).

٤٢) ـ الومضة الثانية والأربعون: عدم نشر التشكيك والاتهام والطعن إيصادا لباب الفتنة:

وقال الراشد أيضا: (فمن سمع أيام الفتن نوع تشكيك أو اتهام أو طعن يفوه به عاص، وعلم أن غيره من الثقات البعيدين عن العصيان لم يسمعوا بهذا التشكيك وأنهم في عافية منه، فليستره عنهم، فإنه لا يدري ما عسى أن يعلق بقلوب بعضهم من هذا التشكيك بإغراء الشيطان، وليوصل الخبر إلى أميره فحسب)(العوائق٢٠٦).

وقال كذلك:(ولكن العنصر الفعال في إبطال النجوات وتضييق المجال عليها إنما هو الداعية الثقة النبه، بأن يقوم بدور السكوت عن التكلم إلى غيره وعدم إشاعة ما نوجي به، ألا يعلق المعني المعيب في قلب ساذج، أو جديد لم يخبر الأمور بعد...)(العوائق٢٠٦).

٤٣) ـ الومضة الثالثة والأربعون: لا تكن حبيس كهوف التخذيل والإرجاف:

وقال الراشد أيضا:(إن هذا الاستشعار بحتمية قدر الله الذي وعد به، إنما هو نور ساطع يحفف جرأة الجريء على مقارنة الافتتان إذا تذكر به حين يجالسه داعية فتنة في ظلمة يسوغ له المشاركة فيما هو فيه، والمؤمن لا يزني ساعة يزني وهو مؤمن، ولا يسرق وهو مؤمن، وكذلك لا ينكث بيعة وهو مؤمن.

كما أنه قد يقف على باب الإثم فيذكره مذكر بالله فيرجع، كما في حديث البخاري عن المرأة التي أراد ابن عمها السوء معها فذكرته الله، فعف بعدما أوشك وشارف، فوهبه الله بعد دهر استجابة منه لدعائه، ورفع الصخرة التي سدت فتحة الكهف عليه.

وهكذا كهوف التخذيل والإرجاف، قد يجد المرء نفسه حبيسا فيها على غفلة من نفسه، فيدعو بدعاء عمار: نعوذ بالله من الفتن، فتتدحرج صخرة الأوهام عن باب سجنه، ويتنفس الصعداء، ويعود إلى عرصات العمل الفسيحة)(العوائق٢٠٨).

٤٤) ـ الومضة الرابعة والأربعون: نهج إشاعة النقد أوقات الفتن نهج باطل والمسارة وقاية :

ويقول الراشد كذلك:(ونهج إشاعة النقد نهج باطل، لا أصل له في كتاب الله ولا سنة رسوله، ولا قاله أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، ولا سلكه داعية ذكر عنه الثبات على العمل بعد إتيانه.

إنه طريق إلى الفرقة والتباغض)(العوائق٢١٢).

(لا تكن ساذجًا أيها الداعية، فإنها تحريشات من حولك لسفك دم الدعوة.

احذر، والتفت إلى عيب نفسك، وصن سمعك وسارر بنصيحتك ونقدك، ولا تعن بلسانك.

إنه دم الدعوة)(العوائق١٥٧).

(وإنما ندعو نحن إلى مسارة لا في مثل هذه الأمور التي يحتاجها الناس في أمر معاشهم اليومي، بل فيما يتعلق بسياسة الجماعة الداخلية والخارجية ومواقفها العامة، وفي أيام الفتنة خاصة، خوفا من استغلال أصحاب الأغراض للنقد المعلن، أو اغترار المخلصين السذج وأصحاب التجربة القليلة)(العوائق١٦٢).

ونقل عن سيد قوله:(هي صورة جماعة في المعسكر الإسلامي، لم تألف نفوسهم النظام، ولم يدركوا قيمة الإشاعة في خلخلة المعسكر، وفي النتائج التي تترتب عليها، وقد تكون قاصمة، لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث، ولم يدركوا جدية الموقف، وأن كلمة عابرة وفلتة لسان، قد تجر من العواقب على الشخص ذاته، وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له ببال، وما لا يتدارك بعد وقوعه بحال؟ أو ربما لأنهم لا يشعرون بالولاء الحقيقي الكامل لهذا المعسكر.

وهكذا لا يعنيهم ما يقع له من جراء أخذ كل شائعة والجري بها هنا وهناك، وإذاعتها، حين يتلقاها لسان عن لسان، سواء كانت إشاعة أمن أو إشاعة خوف، فكلتاهما قد يكون لإشاعتها خطورة مدمرة.

وعلى أية حال فهي سمة المعسكر الذي لم يكتمل نظامه، أو لم يكتمل ولاؤه لقيادته، أو هما معًا)(العوائق ٢٧١).

٤٥) ـ الومضة الخامسة والأربعون: ظلام الشبهات قاطع طريق العودة زمن الفتن فلا تجعله يلفّك:

ويقول الراشد كذلك:(والذي يبدو للمتأمل في تواريخ الفتن وتسلسلها أن ظلام الشبهات هذا يكاد أن يكون هو الظرف المثالي الذي تفضل اختياره لبدء تغريرها بالمؤمنين، إذ لا يزال ظلام الحرام البين دامسا مخيفا يرهب أقل الناس إيمانًا أن يلج فيه، ولكن ظلام الشبهة أقل اسودادا، وهو بالغبش أشبه منه بالحلاكة، وربما تخللته ومضة، وخففت منه بقية خيط أبيض، فيتوهم المؤمن، فيلغ، وفي ظنه لا خلابة ثم، حتى يستغلق الظلام من حوله فيؤوب ناجيا بمشقّة وقلب راجف واجف، أو يرهب

الأوبة بعد إذ قطع الظلام عليه طريق رجوعه واستوي ما هو قدامه وخلفه، ولا يبعد أن يعتاد وحشة الظلام، ويألفها، ويترك التفكير بعودة)(العوائق٢١٨).

٤٦) ـ الومضة السادسة والأربعون: هفوة النكث والولوغ في الفتنة لا تبرّر وإن فعلها صاحب فضل:

قال الراشد :(وقد يرد العكس على جماعة خير تنادت لصلاح تحت قيادة ثقات، مع أن انفرادها دون جماعة خير سبقتها يعد أمرًا مفضولا وليس فاضلا إن لم يكن لها مسوغ قوي يجيز تفردها، ولكن هذا العكس لا يرد أبدًا على جماعة فتنة، تناجت ونكثت بيعة وانحازت إلى جانب وقدمت بعض أهل الفضل لها صدورًا، إذ المقياس يختلف هنا، ولا تمحو فضائل متعددة هفوة النكث الواحدة، وغاية أمر الصدور: أن نحكم عليهم بأنهم بسطاء سذج وقعوا في الخلابة فصاروا لا يصلحون كقدرات وإن لم يتعمدوا الإساءة)(العوائق٢٤٣).

(ويؤدي اختلاط الأصوات في أيام الصخب إلى ذهول عنه، ويظهر نوع من ولاء الداعية لأساتذته ومربيه بالحق والباطل، بأن يلتزم موقفهم وتأويلهم على طول الخط، منتصراً لهم، فتكون بداية الانتكاس، إذ لا معصوم، ولا يؤذن لبشر يزيد إيمانُه وينقص، ويصيب رأيُه ويخطئ، أن يحتكر الولاء)(فضائح الفتن ١٥٣من رسائل العين).

٤٧) ـ الومضة السابعة والأربعون: أمارات لا تخطيء لأهل الفتن والمخالفة:

ويقول الراشد كذلك :(ورأوا كيف يعمل أعداء الإسلام على تسقط أخبار المخالفين، فيدسوا إليهم من يؤزهم أزًا زائدًا، ويعيب عليهم القعود عن الانتقام، ويحملهم على تجميع كل حانق في كيان منافس يرصد نفسه للمناوشة وتثبيط الجدد، ثم يتم اختيار اسم كبير ضخم لكيانهم يحاولون من ورائه تحويل الانتباه إليه.

وإنما هي مساجد الضرار يعاد بناؤها، بهندسة جديدة ولون مبتكر، لها إلى مسجد الضرار الأول نسب، ومع تاريخه ارتباط.

ويسألون: كيف تكون لنا جرأة على هذا الاتهام ودعوة الإسلام ليست حكرًا على أحد، بل لكل مسلم أن يتجمع ويعمل كيف يشاء؟

ولسنا بحمد الله للعمل حاكرين، ولكن يبطل عجب المتسائلين فحصهم لأطوار عمل من ننسبهم إلى الضرار، إن كان تأملهم لواقع المسلمين يحملهم على مصاولة حركات الإلحاد وأحزاب العمالة وتبليغ معاني الإسلام إلى السائلين اللاهين، أم هم قد عافوا أولئك وحاموا حول دعاة الإسلام ومناصريهم يصادمونهم ويثبطون، ويجادلونهم فيلهون؟

إن جماعة تدعي الإسلام، ثم تترك المجتمع الماجن والمنكر المستشري، والشباب الضائع، وتتجه إلى المصلين والملتفين حول دعاة الإسلام تزين لهم الانتساب إليها، وتلح في تهوين أمر الدعاة الآخرين، ورميهم بالاستبداد والافتقار إلى الوعي، لهي أحرى الجماعات باسم مسجد الضرار.

ومن ذا الذي في قلبه ذرة إيمان وألم على المصير الذي آل إليه أمر المسلمين ثم لا يفرح ويهش ويبش لأقوام يعالجون المرض ويستدركون الانفراط، وإن خالفوه في الاسم والأسلوب؟

ولكننا نعيب الصدام، وإلهاء العاملين)(العوائق٢٥٣).

٤٨) ـ الومضة الثامنة والأربعون:الحزم مع رؤوس الفتنة دون غيرهم من الأتباع:

ويقول أيضا :(الغلظة لم يشر عليك بها الناصحون لمعاملة مثل هؤلاء الذين تدلك فراستك أنهم قد يتوبون من قريب، لكنّها الرد المناسب لأنفار يقعون في هاوية الفتنة ، فما يزالون في وساوسهم من بعد ، حتى يخرجوا إلى:(تقبيح المحاسن ، وصدع الملتئم، وحلّ المعقود))(المسار٢٣).

٤٩) ـ الومضة التاسعة والأربعون: طرح ومناقشة الآراء في غير مواضعها مقدمة الافتتان:

ويقول :(فكما أنّ تفرّد القلّة بالرأي يمنع الإبداع ، ولابدّ من الشورى، فإن الإسراف في الحوار والاعتراض ، أو إشراك كلّ الأعضاء بلا تمييز من شأنهما أن يمنعا الحزم ، ويفوّتا الفرص ، ويعلّما اللّغو، ويشجّعا على التعصّب والتصلّب فالافتتان)(المسار١٥١).

٥٠) ـ الومضة الخمسون: لا أحد فوق التربية والموعظة، والاستعلاء عليهما نقيصة وهي في حقّ القادة أوكد: .

ويقول :(وضرورة أن يتواضع كل داعية أمام ما تستوجبه هذه الظاهرة من خضوع لمنهج يعظ القلوب بكثافة، ويعيد ذكر بديهيات الطريق وأسس الإيمان والأخلاق ، وليس بصواب أن يضع داعية نفسه فوق التربية، ويستعلي على حديث يزجره عن السوء ولو سمعه مائة مرة، فإن في النفوس - كل النفوس - قابلية لطيش في أوقات الغفلة، فتنزل إلى مستوى العوام، وان استقام صاحبها على دين الخواص الفقهاء العباد دهرا، أو حاز على أعلى شهادة وأرقى منصب وأضخم رصيد مالي، بل وإن ابيضت لحيته وتجاوز الكهولة سنّه)(نحو المعالي٢١من رسائل العين).

(ومن غرائب التربية: أن الجديد والشاب الناشئ تستطيع أن تعظهما وتدعوهما إلى ترك الرياء والتكبر والمراء، يعدان ذلك منك إرشاداً وتربية وتوجيهاً. أما القديم المخضرم فإنك إن وعظتَه بمثل ذلك اعتبرها تهمة له، ورفض نصحك وزمجر، كأن لم تكن توبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم سبعين مرة آخر حياته)(الفضائح١٦٧من رسائل العين).

(ومنهم من يعشق الرئاسة والصدارة، فيظل ساخطا إذ أبعد عنها، فيصرفه سخطه عن التصدي لإرشاد الناس، وكل خلق آخر مذموم يمكن أن يؤدي إلى شكل من أشكال الحياة السلبية، وهؤلاء الرهط تنفع معهم الموعظة، فتكون بالإيماء، وإلا فبالصراحة وإلا فبالخشونة والتقريع، ولن ينفك مخلص عن اتعاظ إذا كان معدنه صافيا ولم يزد ذهوله عن أن يكون غفلة اعترت، وذو الشوائب يبتئس ويتعالى على النصيحة،

فينتكس، وليس الصف عليه بحريص، ونتأول لأنفسنا أنها تجربة تجميع معرضة للخطأ والصواب، أصابت كثيرا، والبركة فيمن ثبت وتواضع وانشرح قلبه لوجود ناصح له، وأخطأت قليلا، وسلوتنا أن السيرة المطهرة لم تبرأ من ظاهرة المخلفين)(نحوالمعالي٣١ من رسائل العين).

٥١)ـ الومضة الواحدة والخمسون :الاستغفار للقادة وعدم مظاهرة المنشقّ من الآداب العاصمة من الفتن:

ويقول :(والحزن عند سماع نبأ اختلاف آراء السائرين ، ومغالبة النفس عندما تميل الأوامر إلى ما يخالف اجتهاد الداعية ، والتنفيذ بنية التعبد واستحضار المعنى الأخروي، والاستغفار للأمراء إذا بدرت منهم خشونة في ساعة غفلة أو تعب ، وعيافة النجوى، وعدم مظاهرة المنشق، والصد عن المخذل ،وترك طلب التولية ، ومحبة الصفوف الأخيرة والأعمال الخفية ، آداب أخرى.).(معا نتطور٧٩من رسائل العين).

٥٢) ـ الومضة الثانية والخمسون: هاتك الأسرار لا يجامل ووضع نحر القائد كشرط للصلح ظلم :ويقول : (ولو أن هاتك ، الأسرار حيث ينثرها من جعبته أمامنا يقابل منا بصدود وإعراض عنه لثاب وتاب، ولكن أذن السامع تغري لسان الفاضح أحيانا)(تقرير ميداني١٢٦من رسائل العين).

(البعض يريد القائد آلة ميكانيكية بيد الجماعة، تشغله بأزرار، وهي التي تُنطقه وتخرسه، وتحركه وتوقفه، وذلك فهم يابس لنمط من العلاقة أشد يبوسة، ليس يأتي بخير.

بل القائد كتلة مشاعر، ومجموعة عواطف، وذهن يتأمل، وقلب يتجول.

يجب أن ندع له مجال الاجتهاد حتى وإن قيدناه بخُطة، وعلينا أن نترك لفراسته دوراً، ولذوقه مجالاً.

أحياناً نقيد القائد، ونجرده من أي حرية في اختيار الأعوان، ثم نطلب منه أن ينجز المعجزات. أليس ذلك من العجب؟ ما كان علي رضي الله عنه عاجزاً، بل هو قمة في التقوى والعلم والشجاعة، ولكن خذله أصحابه.

إن أقراناً يتنافسون دهراً ربما يكون شرط صلحهم: نحر الأمير، فهنالك الظلم.ولربما استجاز اللاحقون التشويش على بوصلة الجيل الرائد، فهنالك المتاهة.. هنالك يكون انقلاب الموازين:

ساقة ترتاد ..... وقادة تنقاد)(فضائح الفتن١٦٣من رسائل العين).

٥٣) ـ الومضة الثالثة والخمسون: تفلسف أهل الفتن لا يغطّي بشاعتها:

ويقول :(بعض الناس يلوّح لهم براية من بعيد، فيقصدونها من غير تمحيص.

يريد البعض أحياناً تحطيم أحد يضيقون به ذرعاً، لحسد أو غيره، فتثار حوله التهم، لكن العملية تُفلسف في صورة دعوة لمذهب في العمل جديد واجتهاد مبتكر، وهي زخم شخصي ليست أكثر.

إن أشنع الظلم أن تتخذ من أخ لك هدفاً وتجمع الناس والجموع ليرجموه معك.

المحورية أخت الحزبية.

والتنازع على المواقع بالوقيعة باطل.

وأول تلقين الشيطان لصريعه أن يعلمه أن يقول... ... ... (أنا).

نحن دعاة، لم نجتمع ليَكره بعضنا بعضا، وإنما اجتمعنا لنتعاون على مشقة الطريق.

وهل يدري المفتتن كم يلهي معه من الدعاة عن قصودهم ، وكم يهدر من أوقاتهم إذا انصرفوا له ناصحين ودخلوا بينه وبين إخوانه مصلحين ومحكمين؟.

إنها جهود وأوقات تذهب هدرا)(فضائح الفتن١٥١من رسائل العين).

٥٤) ـ الومضة الرابعة والخمسون:منهج الموازنة والإرضاء إغراء بتخطئة مبدأ الأكثرية وتجاوز للمؤسسات:

ويقول :(إذا خالفت مجموعة بقية الجماعة فإن صيغة الموازنات والإرضاء قد تكون فاشلة أحياناً ، ومن الخطأ أن يُحل الإشكال بتأمير رجال من هؤلاء يزاحمون البقية، ففي ذلك تكريس للخلاف، وفيه إغراء لا للمخالف فقط في أن يسخّر كل طاقاته الإبداعية لمعاندة الآخرين وإظهار خطأ مذهب الأكثرية، بل حتى الإمارة التي انشق عنها المنشقون ستلتهي بقضايا مفضولة ، وستسير مع المخالفين بسيرة مداراة دبلوماسية، أو ستبذل من طاقتها مقداراً كبيراً لتفنيد أقوال المقابل ورصده ورد ما قد يستجد على لسانه بعد الصلح.

إنها معادلة صعبة، والفصل مع قسوته قد يكون أفضل وأكثر تحقيقاً لمصالح الجماعة.

المعالجة الظاهرية لا تجدي، لأن محاولات الباطن ستظل تعمل، تحفر وتنخر بعيداً عن أنظار المراقبين)(فضائح الفتن١٥٨من رسائل العين).

(إن المخالف إذا ارتكب إثماً بحق الجماعة ولم يعاقَب: تلفت وانتظر، لعل عقوبته تأخرت، فإذا مر زمن كاف ولم يعَاقب: ظن أن الجماعة تجله أو تخافه، فيرتكب إثماً ثانياً اكبر من الأول، حتى يكون الشقاق له عادة.

مثلما تجب مكافأة المحسن: تجب معاقبة المسيء، و إلا تجرأ آخرون على الإساءة، لما يرون من عدم محاسبة المسيء الأول)(الفضائح١٥٩من رسائل العين).

٥٥) ـ الومضة الخامسة والخمسون:الاستجابة لضغط المحاور على حساب الشرعية مذهب خاطئ واجتهاد غريب:

وبقول :(ويفكر مشفق على وحدة الصف وعدم خسارة الجماعة للنفر الذين عشقوا الرياسة بأن يمنحهم ما يبغون، و يسترضيهم، جمعاً للجهود، وحرصاً على كل الطاقات أن تظل في خدمة القضية، ويقول: يريدون الأبهة والمكانة، فلنعطها لهم،

لعلهم يتدربون، وتعركهم الأيام فيفيقون، وترهقهم المسؤولية فيزهدون، ولنشركهم في الشورى لعلهم يرشدون، وإنه خلاف بين الأقران ! ويستحسن أن نرضي كل الأطراف. ثم ينادي يحث. هيا، هيَا، ليحتضن كل منكم إخوانه، ثم يرجع وقد ظن أنه قضى بحله العاطفي هذا على فتنة.

إن مثل هذا الاقتراح هو مذهب في سياسة الجماعات خطأ، واجتهاد في التربية غريب)(الفضائح١٦١من رسائل العين)

٥٦) ـ الومضة السادسة والخمسون: ضرورة التفريق بين الحقوق الشخصية والحقوق الدعوية العامّة:

ويقول :(ومع ذلك فالتفريق واجب بين العفو عن حقوقنا الشخصية والعفو عن الحقوق الدعوية العامة، فتتسع هناك، مع شدتها على النفس، وتضيق في الأخرى)(فضائح الفتن١٥٥ من رسائل العين).

٥٧) ـ الومضة السابعة والخمسون: لغط القدماء يغري الجدد:

ويقول :(إن الجدد لا يلغطون إلا إذا لغط بعض القدماء، ومن طبائع النفوس التقليد. ومَن سَنَ سُنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)(فضائح الفتن١٥٧من رسائل العين).

٥٨) ـ الومضة الثامنة والخمسون: حزن القلب إزاء الإساءة فطرة:

ويقول :(وخطبنا الثقة فقال:

إن حزن القلب إزاء الإساءة فطرة، وفي تعزية الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم عبرة، إذ قال: (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون، فإنهم لا يكذبونك، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون).

فكيف بمن هو أقل مثلنا؟

وكيف إذا كانت الإساءة لا من كافر طبيعته الإساءة بل من مسلم، بل من أخ لك في الصف؟)(فضائح الفتن١٥٧من رسائل العين).

٥٩) ـ الومضة التاسعة والخمسون: فلتحافظ على معنى الحرية فيك ولا تخرمه بتقمّص أثواب الدنيا:

ويقول كذلك :(وذلك الذي أشار إليه الإمام الشافعي حين يقول:

(الحر من راعي وداد لحظة، أو انتمي لمن أفاده لفظه).

وهذه الدعوة علمتك دهرًا معنى الوداد، وأفادتك كل الألفاظ لا مجرد لفظة، فإن كنت حرًا: راعيت ودادها، وأخلصت لها، وابتعدت عن فتن تربص بها، وإن سلبك الانتصار للنفس حريتك فشأنك وما اخترت.

ولا ينتصب أحد لفتنة من بعد ستر، ولا يكسل كسلان فينقطع ويترك ويستبدل أصحاب بأصحاب، إلا لنقص معنى الحرية فيه، وإلا لتقمصه بعض أثواب عبودية الدنيا.

وما ثبت داعية على الطريق، وازداد بذلا وإيثارًا، إلا لاكتمال معنى الحرية والوفاء فيه، ومراعاته الوداد، وما أرشد إليه الشافعي من الانتماء)(الرقائق)..

٦٠) ـ الومضة الستون: لا تبدّد ثروة أعمالك الصالحة في صفقة غابنة مع صرخة فاتنة:

ويقول :(ولذلك وجب أن يجفل الداعية من اسم الفتنة، ويقشعر جلده من كل نداء عصيان لأوامر الجماعة وخطتها)(العوائق٢٥٧).

(ولفؤاد البصير رجفة مميزة عند ذكر هذه الأخبار، تلجئه ولابد إلى حذر مضاعف يحفظ به ثروة الأعمال الصالحة التي حازها من خلال نشاطه غاديا ورائحًا في مصالح الدعوة، ألا يبددها في صفقة غابنة، مع صرخة فاتنة)(العوائق٢٦٠).

(فإن الخارجين يديمون الاحتكاك بأفراد الجماعة كي يبقوا مادة لتماسكهم، ولابد من تفويت مقصدهم بالسكوت وعدم الالتفات إلى تحرشهم مع نظرة رأفة ورحمة لهم)(العوائق٢٦٩)

وفي الأخير نختم هذه الومضات بدعاء العلاّمة البشير الإبراهيمي رحمه الله الذي يقول فيه : (اللّهم هب لنا توفيقا ينير الطّريق ، وهداية تقي العثرات، وعناية تأخذ باليد إلى الحق ، ويقينا يزيل اللّبس في مواطن الشبهات ، وتأييدا يثبّت الأقدام في مواقع الزلل ، وثباتا يعصم من الفرار في ميادين الصّراع بين الخير والشّر ، وصبرا ينزع عن النّكوص على الأقدام ، وشجاعة تفلّ الحديد ، وتنسخ آية هذا العصر الجديد ، وبيانا يفحم الخصم في مواقف الجدل ، وعفّة تقهر الغرائز الجامحة والشهوات العارمة والمطامع المعترضة بكلّ سبيل ، وأفض علينا لطفا يصحب خفايا الأقدار عند حلول المصائب ، واصحبنا ولاية منك تخرجنا من الظلمات إلى النور.

اللّهم جنّبنا زلّة الرأي ، وزلزلة العقيدة ، ودغل الضمير ، ورين البصيرة ، وخيبة الرّجاء ، وطيش السّهام ، وجنّبنا الخوف من غيرك ، والجحود لخيرك ، والبخل عليك برزقك ، والرّهبة من عدوّك ، والضّلال في معرفتك ، والهجر لكتابك ، والشّكّ في وعدك ، والاستخفاف بوعيدك ، والدخّل في الانتساب إليك) آميـــــــــــن.

(٦) ورد المحاسبة الحركي الدعوي

لقد عرفنا منذ بداية انخراطنا في العمل الدعوي والحركي ما عرف بورد المحاسبة الإيماني ، والمتمثل في مجموعة من الأسئلة تتعلق بالجانب الإيماني والعبادي والروحي وكذا الأخلاقي والسلوكي والمعاملاتي ، تخص على وجه التحديد العلاقة مع الله عز وجل من صلاة فرائضا ونوافلا وصيام وزكاة وقراءة قرآن وذكر ومأثورات وزيارة مقابر وإتباع جنائز وعيادة مرضى وأعمال صدقة وبر ومعروف ، وأيضا أحوال القلب وأمراضه من حسد وبغضاء وكبر وجفاف روحي ، والجانب السلوكي أيضا والحال مع الآخرين من أهل وأرحام وجيران وزملاء وإخوان ، والنصيب من أصول الأخلاق الإسلامية من صدق وأمانة وصبر وحياء وغيرها .

يعرض الفرد نفسه يوميا وأسبوعيا وشهريا عليها ـ أي أسئلة الورد ـ في جلسة مصارحة يحاسبها على مدى التزامها بهذا الجدول ، ويحدد بصدق نصيبها من كل مجال ونقاط قوتها ونقاط ضعفها ، ثم يحدد لها العلامة ، ويعزم على العلاج للثغرات والنقائص واستدراك جوانب الضعف الذي وجده وهكذا .

وكانت ـ ولا زالت وإن اعتراها بعض الضعف ـ متابعة الأفراد من قبل المربين تتم وفق هذا الجدول المحاسباتي ، وكان له تأثير إيجابي كبير على مسيرة الفرد وحالته الإيمانية والروحية والأخلاقية والحركية ، يستشعره كل من مارسه ويمارسه وذاق لذته وجنا ثماره ووجد أثره الطيب ، وقد كان شعاره كلمة سيدنا عمر رضي الله عنه :(حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا) .

وقياسا عليه وعلى منواله أقدّم بين يدي إخواننا جميعا قادة وجنودا وردا للمحاسبة الحركي ، يتعلق بالواجبات الحركية الفردية على وجه التحديد ، ليحاسب كل منا نفسه بشكل صادق ومتجرد وصريح ويعرضها عليه ، ليدرك درجة التزامه وقيامه بواجباته كما ينبغي تجاه حركته ، لأنه لو حاسب كل منا نفسه على تقصيره وفتوره وتثاقله وتخلفه ولا مبالاته وعدم قيامه بواجباته الحركية ، قبل أن يهتم بمحاسبة الآخرين ، لكان الحال غير الحال ، والوضع غير الوضع ، فقد عدّ الإمام ابن

القيم عنصري الغفلة والكسل أصل كل الكوارث على العبد عندما قال :(أصل بلاء العبد : الغفلة المضادة للعلم ، والكسل المضاد للإرادة).

ولعلنا لا نخطئ القول لمّا نؤكد أن من الأسباب الرئيسية للكثير من أمراضنا وعللنا وإخفاقاتنا الفردية والجماعية ، هو غياب عنصر المحاسبة هذا تحديدا خاصة على المستوى الحركي ، بداية من المستوى الفردي والشخصي والذاتي ، وانتهاء بالمستوى الجماعي والهيكلي والمؤسساتي ، وقد ذكر الجاحظ أنه :(إنما يؤتى الناس من ترك التثبت وقلّة المحاسبة).

فلنعرض أنفسنا بشكل دائم ومستمر على هذا الجدول المقترح كورد للمحاسبة الحركي ، ولنقيّم ونقوّم أنفسنا من خلاله ، وليكن شعارنا : فلتكن البداية من عندي أولا.

١) ـ هل الغاية التي انخرطت من أجلها في العمل الحركي لا زالت واضحة لديك حاضرة في ذهنك ، تضبط كل أفعالك ونشاطاتك الحركية ، أم اعتراها بعض الغبش والضبابية والنسيان وحتى الانحراف؟

٢) ـ هل انتماؤك للحركة انتماء مصيريا أم انتماء مزاجيا؟

٣) ـ هل ولاؤك للحركة ومنهجها ومشروعها ومؤسساتها وقيادتها متينا وعميقا ، أم هشا ومتزعزعا؟

٤) ـ هل تعلن انتماءك للحركة وتعتز به وتدافع عنه ، أم تواريه وتخجل وتستحي منه ؟

٥) ـ هل تعرفت وتتعرف على تاريخ حركتك منذ تأسيسها في عهد السرية ، وقرأت وتقرأ سيرة رجالها وشهدائها ؟

٦) ـ هل تفاعلت وتتفاعل إيجابيا مع مواقفها والقرارات الشورية الصادرة عن مؤسساتها وإن خالفت رأيك الشخصي ؟

٧) ـ هل تتابع ما يكتب ويقال عن الحركة بشكل دائم ، وتعمل على رد الشبهات التي تثار حولها بما تقدر عليه ؟

٨) ـ هل ترابط في محضنك التربوي وتداوم عليه وتغالب أعذارك في الالتزام بلقاءاته ؟

٩) ـ هل تقدّم التزامك المالي بشكل مستمر وبنفس راضية ومطمئنة ، ومن غير تعثر وتذبذب

١٠) ـ هل تشارك بشكل إيجابي ودائم في كل نشاطات الحركة وفعالياتها الداخلية والخارجية

١١) ـ هل عملت وتعمل على ربط بيتك وأهلك وأبنائك بالحركة وإدماجهم في محاضنها وروافدها وتشاركهم في نشاطاتها ؟

١٢) ـ هل مثلت وتمثل الحركة تمثيلا إيجابيا في مكان عملك ومع أرحامك وجيرانك وزملائك والآخرين عموما ؟

١٣) ـ هل انفتحت وتنفتح على الآخرين وتخالطهم وتدعوهم إلى مناصرة الحركة ومشروعها ، وتصحيح مفاهيمهم حولها ؟

١٤) ـ هل أنت قاريء جيد ، وعلاقتك بالكتاب وثيقة ، ولك نصيبك المفروض من المطالعة يوميا أو أسبوعيا على الأقل ، لتساهم بذلك في رفع المستوى الفكري والمعرفي والثقافي في ساحتنا الحركية ؟

١٥) ـ هل تقوم بواجبك العملي في المجال الأقرب إلى مواهبك وميولك ، ويتناسب مع تخصصك وقدراتك على مستوى الحركة وروافدها ومؤسساتها السياسية والاجتماعية والشبانية والطلابية والدعوية وغيرها ؟

١٦) ـ أين تصنف نفسك بصدق وصراحة ، هل أنت من الصنف الناقد القاعد المتفرج ، أم من الصنف الفاعل المشارك الإيجابي المنجز المبدع ؟

١٧) ـ هل نصيبك مقبول من عوامل نجاح الفكرة والمشروع ، والمتمثلة في الفهم الدقيق والإيمان العميق والحب الوثيق والعمل المتواصل ؟

١٨) ـ هل تمن على حركتك بما قدمت وتقدم لها ، أم تعتبر ذلك عربون وفاء وواجب ولاء وردّ جزء من جميلها عليك ؟

١٩) ـ هل أنت كثير التبرير لتقصيرك وتثاقلك وفتورك وبطء استجابتك في عملك الحركي ، أم سريع اليقظة والاستدراك؟

٢٠) ـ هل تحافظ على سلامة صدرك وطهارة قلبك ولسانك ، تجاه إخوانك ورفقاء دربك وقيادتك على كل المستويات وفي كل الحالات ؟

٢١) ـ هل أنت ممّن تستخفه التوافه فتؤثر فيه وتشككه في طريقه وحركته ، أم ممّن تستفزه الشدائد فتتكسر نصالها على جدران ثقته في حركته ومنهجها ؟

٢٢) ـ هل حافظت وتحافظ على شعلة فعاليتك الحركية مشتعلة رغم كثرة الصوارف والمثبطات ، أم انطفأت وتنطفئ أو ضعفت وتضعف جذوتها عند أول عاصفة هبّت وتهب عليها واستسغت واستسلمت لذلك ولم تسعى لإشعالها وتقويتها من جديد ؟

٢٣) ـ هل رؤيتك للحركة ومشروعها وخياراتها ومواقفها والمؤامرات التي تحاك ضدها ، واضحة بينة ، أم يشوبها بعض التشويش والتشويه والضبابية والغموض ؟

٢٤) ـ هل حسّك الانضباطي جيد ، أم يعتريه بعض التجاوز والاضطراب وبطء الاستجابة وضعف الامتثال ؟

٢٥) ـ هل تساهم باستمرار بإبداء رأيك واقتراحك ونقدك البناء ، في تطوير أداءات الحركة وتصحيح أخطائها والتنبيه عليها ، وسبل التمكين لها وتوسيع دوائر انتشارها في واقع الناس ، ؟

٢٦) ـ هل فقهت وتفقه الإطار الفكري للحركة ممثلا في الأصول العشرين ، والتزمت بها قولا وفهما وسلوكا ؟

٢٧) ـ هل درجة اهتمامك بقضايا الأمة وعلى رأسها قضية فلسطين مقبولة لديك ، وتساهم باستمرار في حملات الحركة وفعالياتها المتعلقة بذلك ؟

٢٨) ـ هل تحاسب نفسك بشكل مستمر على عملك ونشاطك والتزامك وقيامك بواجباتك الحركية ؟

٢٩) ـ هل أنت من الصنف الذي يفرح عند التولية في أيّ مسؤولية حركية أو سياسية ، ويغضب عند العزل أو عدم الاختيار ، أم من الصنف الذي يكثر عند الفزع ويقلّ عند الطمع والمغنم؟

٣٠) ـ هل أنت من الذين يكثرون جلد الذات ويقزمون إنجازات الحركة ، أم من الذين يثمنون الإيجابي وينتقدون السلبي ويبادرون إلى اقتراح الحلول لاستدراكه وتجاوزه؟

٣١) ـ هل تحافظ على أسرار الحركة التي أستؤمنت عليها على أيّ مستوى من المستويات ، أم تنشرها وتفشيها بمجرد غضبة في موقف أو اختلاف في وجهة نظر؟

٣٢) ـ هل تخصص وردا من الدعاء دائما أو أحيانا لحركتك ، كي يمكّن لها الله عز وجل ويكتب لها النجاح ، ولقيادتها ومؤسساتها التوفيق والسداد فيما يخدم الحركة والوطن والأمة ؟

(٧) أوجه الشبه بين دعوة الإمامين البنا وابن باديس

ونحن نعيش في أجواء الذكرى الواحدة والسبعين لوفاة العلاّمة عبد الحميد بن باديس(١٦ أبريل ١٩٤٠م) ، والذكرى الثمانين لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين(٠٥ ماي ١٩٣١) ، نريد أن نلقي الضوء على زاوية لازالت مجهولة لدى الكثيرين من أبناء الحركة الإسلامية ، والكتابات فيها كذلك قليلة ومختصرة ـ إن وجدت ـ ، ألا وهي العلاقة بين مدرستي الإخوان المسلمين وجمعية العلماء ، وكذا أوجه الشبه بين دعوة الإمامين الكبيرين حسن البنا وعبد الحميد بن باديس رحمهما الله تعالى ، فقد أشار الأستاذ محمود عبد الحليم رحمه الله في كتابه :(الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ) إلى بعض صور هذه العلاقة في فقرة مختصرة جدا قال فيها:(أن الإمام حسن البنا كان يؤيد خطة ابن باديس في عرقلة الأسلوب الفرنسي في القضاء على اللغة العربية وقطع الصلة بين الشعب الجزائري والقرآن الكريم ، وذلك بنشر اللغة العربية وإنشاء المدارس مهما لقيه من مصاعب وأهوال ، وكان الإمام حسن البنا كثيرا ما يبعث الرسائل والبرقيات لشدّ أزر السيد عبد الحميد ، كما كان يكتب المقالات الضافية في مجلة الإخوان لهذا الغرض ، ويعلن الاحتجاج على السلطات الفرنسية لمصادرتها لمدارس السيد عبد الحميد واضطهاد رجاله العاملين معه).

هذا إلى جانب الصفحات المشرقة التي سطّرها الأستاذ الفضيل الورتلاني رحمه الله الذي كان همزة وصل بين الفكرتين ومحور الربط بين المنهجين وعنصر الاشتراك بين الإمامين.

هذا الرجل الفذ صاحب الفكر الباديسي الخالص ، كان من أنجب تلاميذ الإمام ابن باديس ومن خاصة معاونيه ، فقد أولاه الإمام عنايته واعتمد عليه في كثير من المهام الكبيرة ، فكان يعوض أستاذه في العديد من الاجتماعات والمناسبات وهو مازال طالبا وأسند له تمثيل جريدة الشهاب ، وكان يصطحبه معه كظله أينما حلّ وارتحل ، وقد انتدبه في سنة ١٩٣٦م للقيام بنشر الدعوة الإصلاحية في فرنسا ، التي أسس بها ما يزيد عن ثلاثين مركزا للجمعية ، الأمر الذي أقلق السلطات الفرنسية فضايقته ،

فأنتقل إلى مصر سنة ١٩٤٠م ، والتي أسس بها مكتب جمعية العلماء ، وأثناء وجوده بمصر تفاعل مع فكر الإمام البنا وأصبح من مقربيه كذلك ، حتى وصل إلى درجة استخلافه في درس الثلاثاء في بعض الأحيان بالمركز العام ، وبلغ تجاوب الورتلاني مع الفكر والتنظيم الإخواني إلى الحد الذي يكلفه فيه الإمام البنا بفتح فروع وشعب الإخوان في الكثير من المناطق المصرية .

وقد عرف الإخوان وفي مقدمتهم الإمام البنا قيمة الفضيل الورتلاني وقدره ـ وهو ابن جمعية العلماء والتلميذ النجيب لإمامها ـ وقدّموه عليهم ووثقوا فيه واعتبروه واحدا منهم ومن خاصة رجالهم ، فكلفه الإمام البنا بما عرف بقضية اليمن ، وبعد فشل ثورته ركب قاربا وظل يطوف به ولم يسمح له بالنزول في كل من اليمن وسوريا ومصر والأردن إلى أن توسط له الإمام البنا فنزل في لبنان.

فمن خلال دراستنا لسيرة ومسيرة الإمامين الدعوية ، وجدنا الكثير من أوجه الشبه والتطابق بينهما تؤكد أنهما كانا يصدران من مشكاة واحدة ، ومن أوجه الشبه هذه:

١) ـ أصول دعوتهما :

فقد وضع الإمام ابن باديس لجمعية العلماء أصولا وحدّدها بعشرين أصلا والتي نشرها سنة ١٩٣٦م ، وهو الأمر نفسه الذي فعله الإمام البنا حينما وضع لدعوة الإخوان أصولا عشرينا كذلك ، فيظهر توافق الإمامين حتى في عدد الأصول التي حدّدها كل منهما لدعوته.

٢) ـ الشمول فهما وممارسة :

كما اتفق الإمامان في فكرة شمول الإسلام فهما وتصورا وممارسة وتطبيقا ، أما من ناحية الفهم والتصور ، فيقول الإمام البنا في الأصل الأول من الأصول العشرين:(الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا ، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة ، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء ، وهو

مادة وثروة أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة ، سواء بسواء).

وبنفس المعنى تقريبا يقول الإمام ابن باديس :(إن الإسلام عقد اجتماعي عام ، فيه كل ما يحتاج إليه الإنسان في جميع نواحي حياته لسعادته ورقيّه).

ولم يكتفي الإمامان بالتنظير لفكرة الشمول ، بل مارساه وطبقاه عمليا ، فقد كتب الإمام ابن باديس ودرّس وحاضر وخطب في كل صنوف العلم ، حيث أتم تفسير القرآن الكريم كاملا ، كما كتب في الحديث وعلومه والسيرة والتراجم والفقه والعقائد ، كما كتب في الفقه السياسي الإسلامي وأبدى رأيه في كل القضايا السياسية المحلية والإقليمية والدولية التي عاصرها ، فكان بحق شموليا في نظرته للإسلام سواء من الناحية العلمية أو من ناحية الممارسة العملية ، بحيث اهتم بالتربية والتعليم وإنشاء المدارس والمساجد والنوادي العلمية والثقافية ، كما اهتم بالإعلام فأنشأ الصحيفة تلو الصحيفة ، كما اهتم بالفن والترفيه فشجع على إنشاء الفرق الفنية والمسرحية ، كما اهتم بالشباب والطلبة ، فساهم في إنشاء الحركة الكشفية والفرق الرياضية ، كما اهتم بالجالية والمغتربين في فرنسا وأوربا والمشرق العربي وتونس والمغرب وليبيا ، بحيث بعث لهم البعثات العلمية وفتح لهم المدارس والنوادي الثقافية ، وهكذا ممّا يظهر أنه كان للإمام ابن باديس نظرية دعوية شاملة ومتكاملة لم يهمل فيها جانب دون جانب ، وهو الأمر نفسه الذي فعله الإمام البنا بحيث اهتم هو كذلك بكل الجوانب والمجالات التي ذكرناها وأوجد للفكرة الإخوانية موضع قدم في كل منها .

٣) ـ العمل الجماعي المنظم :

لقد حرص الإمامان منذ البداية على فكرة العمل الجماعي المنظم ، من خلال جماعة أو جمعية أو هيئة ، يتحركان من خلالها لتحقيق الأهداف التي سطّراها في دنيا الناس وواقع الأمة ، فأسس الإمام البنا جماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٢٨م ، وأسس

الإمام ابن باديس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة ١٩٣١م ، ومن عجيب التوافق بينهما أن كل منهما أطلق على فروع الجماعة والجمعية اسم الشعبة.

وأنا أبحث في الموضوع وجدت نصا للإمام ابن باديس وهو يتحدث عن أهمية العمل الجماعي المنظم لا يختلف فيه عن أي مقولة للإمام البنا أو غيره من علماء الإخوان وهم يؤصلون لنفس الفكرة يقول فيه:(إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله ، إذا كانت لهم قوة ، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبّر وتتشاور وتتآزر لجلب المصلحة ولدفع المضرّة ، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة).

٤) ـ تأليف الرجال بدل تأليف الكتب :

لقد كان كل منهما يردّ على من يطلب منه التأليف للكتب في فنون العلم الشرعي المختلفة ـ وهما من مجدّديه ـ بنفس العبارة تقريبا:(شغلنا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب) ، فقد قال الإمام البنا في ذلك :(إنني لا أولف كتبا ، يكون مصيرها تزيين الرفوف وأحشاء المكتبات ، وإنما مهمتي أن أؤلف رجالا أقذف بالرجل منهم في بلد فيحييه ، فالرجل منهم كتاب حي ينتقل إلى الناس ويقتحم عليهم عقولهم وقلوبهم ، ويبثهم كل ما في قلبه ونفسه وعقله ، ويؤلف منهم رجالا ، كما ألّف هو من قبل).

أما الإمام ابن باديس فقد قال في الكلمة التي ألقاها بمناسبة الاحتفال بختمه لتفسير القرآن الكريم :(فإننا والحمد لله نربّي تلامذتنا على القرآن من أول يوم ، ونوجّه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم ، وغايتنا التي ستتحقق ، أن يكوّن منهم القرآن رجالا كرجال سلفهم ، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلّق هذه الأمة آمالها ، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها).

٥) ـ الوطنية الصادقة :

لقد تجلّت وطنية الإمامين في الكثير من مواقفهما العملية في تعاملهما مع قضايا وطنهما في حياتهما ، وهذه المواقف ماثلة للعيان لكل دارس لسيرتهما ، أما من الناحية التنظيرية ، فإن الإمام البنا يقول عن فكرة الوطنية :(إن الإسلام قد فرضها فريضة لازمة ـ الوطنية ـ لا مناص منها ، أن يعمل كل إنسان لخير بلده وأن يتفانى في خدمته ، وأن يقدم أكثر ما يستطيع من الخير للأمة التي يعيش فيها..

فكل مسلم مفروض عليه أن يسدّ الثغرة التي عليها ، وأن يخدم الوطن الذي نشأ فيه ، ومن هنا كان المسلم أعمق الناس وطنية وأعظمهم نفعا لمواطنيه..).

أما الإمام ابن باديس فيقول عن ذلك:(نحب من يحب وطننا ويخدمه ، ونبغض من يبغضه ويظلمه ، فلهذا نبذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائر وتحبيب بنيه فيه ، ونخلص لكل من يخلص له ، ونناوئ كل من يناوئه من بنيه ومن غير بنيه).

٦) ـ نظرتهما للاختلاف :

كذلك من أوجه الشبه والتوافق بين الإمامين نظرتهما للاختلاف الفروعي في الأمة ، فالإمام البنا يقول عنه:(الخلاف في الفرعيات أمر ضروري لا بد منه .. وليس العيب في الخلاف ، ولكن العيب في التعصب للرأي والحجر على عقول الناس وآرائهم .. وحسب الناس أن يجتمعوا على ما يصير به المسلم مسلما).

وهو الذي حفل بقاعدة أستاذه العلامة رشيد رضا التي قال فيها :(نعمل فيما اتفقنا فيه ، وليعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه) ، حتى عدّها الكثيرون من كلام الإمام البنا لكثرة ذكره واستعماله لها .

أما الإمام ابن باديس فيقول عن الاختلاف الفروعي :(أن لا نجعل القليل ممّا نختلف فيه ، سببا في قطع الكثير ممّا نتفق عليه ، وأن الاختلاف بين العقلاء لابد أن يكون ، ولكن الضار والممنوع المنع البات هو أن يؤدّينا ذلك الاختلاف إلى الافتراق).

٧) ـ سعة الصدر وقبول الآخر :

وقد ظهر ذلك جليّا في أقوال الإمامين وسلوكهما وسيرتهما العملية ، أما الإمام البنا فيقول في الأصل السادس:(...ولكننا لا نعرض للأشخاص ـ فيما اختلف فيه ـ بطعن أو تجريح ونكلهم إلى نياتهم ، وقد أفضوا إلى ما قدّموا) ، ويوصي في إحدى وصاياه العشر ب:(عدم غيبة الأشخاص وتجريح الهيئات).

أما الإمام ابن باديس فيقول عن نفسه:(.. إن هذا العبد له فكرة معروفة ، وهو لن يحيد عنها ، ولكنه يبلّغها بالتي هي أحسن ، فمن قبلها فهو أخ في الله ، ومن ردّها فهو أخ في الله ، فالأخوة في الله فوق ما يقبل وما يردّ).

أما من الناحية العملية ، فقد تعامل الإمامان وتحاورا وتعاونا مع الجميع في وقتهما ، ممّا جعلهما محلّ ثقة واحترام وتقدير الجميع ، حتى من يختلف معهما ، فكان كل منهما رجل وطن وأمة وعامّة ، وليس رجل هيئة أو جمعية أو جماعة أو طائفة.

٨) ـ نظرتهما للسياسة :

لقد اتفقا الإمامان كذلك في نظرتهما للسياسة والموقف منها ، فالإمام البنا يقول عنها:(المسلم لن يتم إسلامه ، إلا إذا كان سياسيا ، يعيد النظر في شؤون أمته مهتما بها غيورا عليها .. وأن على كل جمعية إسلامية أن تضع في رأس برنامجها الاهتمام بشؤون أمتها السياسية ، وإلا كانت تحتاج هي نفسها إلى أن تفهم الإسلام).

أما الإمام ابن باديس فيقول :(وكلامنا اليوم عن العلم والسياسة معا ، وقد يرى بعضهم أن هذا الباب صعب الدخول ، لأنهم تعوّدوا من العلماء الاقتصار على العلم والابتعاد عن مسالك السياسة ، مع أنه لا بد لنا من الجمع بين السياسة والعلم ، ولا ينهض العلم والدين حق النهوض ، إلا إذا نهضت السياسة بجد).

وقد مارساها عمليا ، أما الإمام البنا فقد كان يتفاعل مع كل القضايا السياسية في عهده ، وترشح للمجلس النيابي مرّتين ، كما أن الإمام ابن باديس كان هو أيضا يتفاعل ويبدي الموقف من كل القضايا السياسية المطروحة في وطنه وأمته في ذلك

الوقت ، وترأس وفد المؤتمر الإسلامي سنة ١٩٣٦م الذي ذهب للتفاوض مع الحكومة الفرنسية الاستعمارية حول الحقوق الدينية والمدنية والسياسية والاجتماعية للجزائريين.

٩) ـ الاهتمام بالمرأة :

لقد حرص الإمامان كذلك على العناية بالمرأة والاهتمام بها ، بحيث أنشأ الإمام البنا قسم الأخوات المسلمات مبكرا ، ليكون الحاضن للمرأة المصرية والمهتم بقضاياها والناشر للفكرة الإسلامية بين صفوفها وتوظيفها لخدمتها .

أما الإمام ابن باديس فقد حرص منذ البداية كذلك على تعليم المرأة وتربيتها ، فأنشأ المدارس في كل ربوع الوطن وشجّع الفتيات على الالتحاق بها ، وحاول إرسال بعثات منهن للمشرق العربي لإكمال تعليمهن بالتوازي مع البعثات الرجالية ، وقد ذكر الإمام أنه:(لن ينهض المسلمون نهضة حقيقية إسلامية ، إلا إذا شاركهم المسلمات في نهضتهم ، في نطاق عملهن الذي حدده الإسلام ، وعلى ما فرضه عليهن من صون واحتشام).

١٠) ـ الاهتمام بقضايا العالم الإسلامي :

كما اتفق الإمامان في درجة اهتمامهما بقضايا العالم الإسلامي في وقتهما ، فالإمام البنا أسس مبكرا قسم العالم الإسلامي في مكتب الإرشاد ، بحيث كان المركز العام في تلك الفترة مأوى ومحج كل زعماء العالم الإسلامي وقادة التحرر فيه من جاكرتا إلى طنجة ، أما مساهمة الإمام ومعه الإخوان في نصرة قضية فلسطين فأمر معلوم للجميع ، وجهادهم الذي دوّخ الصهاينة مازالت أصداؤه تدوي إلى الآن.

أما الإمام ابن باديس فرغم أن بلاده كانت تحت الاحتلال ، إلا أنه كان هو أيضا ومعه الجمعية يتفاعل بشكل إيجابي مع كل قضايا العالم الإسلامي التي كانت في وقته ، والقارئ لآثاره يجد الكثير من المواقف التي أبداها وبرقيات النصرة لجهاد المختار في

ليبيا وكذا قضايا المغرب وتونس ومصر وتركيا والجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى ، وكذلك تحذيره من المؤامرة التي كانت تحاك ضد فلسطين قبل قيام ما يعرف بدولة الكيان الصهيوني ، ولقد كان الإمامان على علاقة بالحاج أمين الحسيني مفتي القدس عن قرب بالنسبة للإمام البنا وعن بعد بالنسبة للإمام ابن باديس. هذه عشرة جوانب كاملة تبين أوجه الشبه في مواقف ودعوة الإمامين حسن البنا وعبد الحميد ابن باديس ، وهناك جوانب أخرى كثيرة يتشابهان إن لم نقل يتطابقان فيها لا شك ، في حاجة للبحث والتنقيب ، تؤكد الرابطة الوثيقة بين الفكرتين والعلاقة المتينة بين المدرستين والشبه الكبير بين الرجلين .

وفي الأخير لا يسعنا إلا أن نترحم على الإمامين الكبيرين ، ونعاهدهما على الثبات على منهجهما ، والمضي قدما على خطاهما للتمكين للأفكار والمبادئ التي جاهدا في سبيلها وماتا من أجلها ، إلى أن نلحق بهما ونحن على ذلك غير مبدّلين ولا مغيّرين ، فقد قيل للحسن البصري رحمه الله: سبقنا القوم (أي الصحابة) على خيل دهم ونحن على حمر معقرة ، فقال:(إن كنت على طريقهم ، فما أسهل اللحاق بهم).

(٨) نواسف الفهـــم السليـم

إن الدعاة إلى الله ، إذا لم يجمعوا بين عمق العلم ولباقة التصرف وسلامة التحرك ، وقبل ذلك ومعه وبعده صحة التجرد ونبل المقصد وسمو الغاية ، فإن فشلهم محقق لا محالة .

وسلامة السير تكون نتيجة للفهم السليم للدعوة ، بمبادئها وأصولها وثوابتها وأهدافها وغاياتها ، وكذلك للواقع بطبيعته ومكوناته ومؤثراته وإفرازاته ، فضغط الواقع ينبغي أن لا يسوق الدعاة إلى الحلول الخاطئة والخيارات القاصرة ، فمهما طال انتظار الحلول الصحيحة الدائمة والخيارات العميقة المدروسة ، فإنه هو الصواب، وطول الزمن وتسارع الأحداث ، لا يفقدان الحق أحقيته، وقصر الزمن وضغط الأحداث، لا يمنحان الخطأ صفة الصواب ، ولا القصور صفة الحكمة.

لذلك كانت نعمة الفهم السليم مع حسن القصد من أعظم نعم الله على العبد ، كما قال ابن القيم رحمه الله :(صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده ، بل ما أعطي عبدٌ عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجلّ منهما ، بل هما ساقا الإسلام ، وقيامه عليهما ، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم ، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم ، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم ، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة ، وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد ، يميز به بين الصحيح والفاسد ، والحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، ويمدّه حسن القصد وتحرّي الحق وتقوى الرب في السر والعلانية ، ويقطع مادته إتباع الهوى وإيثار الدنيا وطلب محمدة الخلق وترك التقوى).(١)

كما أن سوء الفهم أصل كل بلية ، يقول ابن القيم كذلك :(سوء الفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام ، بل هو أصل كل خطأ في الأصول و الفروع ، ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد).(٢)

لأجل ذلك كلّه جعل الإمام البنا رحمه الله ركن الفهم أول أركان البيعة قبل الإخلاص والعمل وغيرهما من الأركان.

فالتحرك السليم نتاج الفهم السليم ، والتحرك الخاطئ نتاج الفهم الخاطئ ، وقد ترفض في كثير من الأحيان أفكار سليمة ومواقف حكيمة ، بسبب الفهم الخاطئ والسقيم لها ، كما قال الشاعر:

وكم من عائب قولا سليما وآفته من الفهم السقيم

وللفهم السليم نواسف ونواقض كثيرة نذكر منها:

١) ـ عدم الإخلاص:

فالعمل لدعوة الله الغاية منه مرضاته عز وجل ، والمقصود به وجهه سبحانه ، فإن قصد به غير ذلك ، ودخلت فيه الأهواء الجانحة ، والشهوات الخفية ، والنزوات الدفينة ، أظلمت القلوب ، واختلت العقول ، وطاشت الإفهام ، فينسف عند ذلك الفهم السليم للدعوة، وتتعثر المسيرة ، فقد قال ابن الجوزي رحمه الله :(إنّما يتعثر من لم يخلص) ، وقيل :(مالا يراد به وجه الله يضمحل).

فالقلب القفر من الإخلاص لا ينبت قبولا ، كالحجر المكسو بالتراب لا يخرج زرعا.

والعلل الناشئة عن فقدان الإخلاص كثيرة ، وهي إذا استفحلت استأصلت الإيمان ، وإذا قلّت تركت به ثلما شتّى ، ينفذ منها الشيطان.(٣)

ونظرا للعلاقة الوثيقة بين الإخلاص والفهم ، كان الصالحون يجزمون بأنه :(ما فتح الله تعالى على عبد حالة سنية ، إلا بإتباع الأوامر وإخلاص الطاعات ولزوم المحاريب).(٤)

٢) ـ الجهل وقلّة العلم:

مستحيل أن يفهم الإنسان شيئا يجهله ، أو لا يعلم منه إلا القليل ، والجهل بقواعد الدعوة وأصولها وثوابتها وأبجدياتها ، قد يؤدي إلى معاداتها والإضرار بها من حيث يراد نفعها ، إن على مستوى التبليغ والاستيعاب ، أو على مستوى النشاط والممارسة ،

لأن من جهل شيئا عاداه ، وقد قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله :(ما عصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل ، قيل له: يا أبا محمد هل تعرف شيئا أعظم من الجهل؟، قال: نعم ، الجهل بالجهل).(٥)

وقد سئل سفيان الثوري رحمه الله: عمّن يحدّث بالعلم قبل تأهله، فقال :(إذا كثر الملاحون غرقت السفينة).(٦)

فقلّة العلم تنسف الفهم السليم، وتعمّق دوائر الخلاف لأنه :(لو سكت من لا يعلم ، لسقط الخلاف(، كما قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله.(٧)

(فالعامل على غير علم كالسائر على غير طريق ، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح ، فاطلبوا العلم طلبا لا يضر بترك العبادة ، واطلبوا العبادة طلبا لا يضر بترك العلم ، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم ، حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا) ، كما أوصى الحسن البصري رحمه الله .(٨)

كما أن قلة العلم والفقر المعرفي والثقافي ، تضيّق مساحة التصور ، وتمنع من النظر إلى المسألة أو الموقف أو المشكلة من كل جوانبها ، وتحجب الرؤية السليمة والعميقة والمتكاملة ، ممّا يؤثر سلبا على سلامة الفهم وصحته.

٣) ـ إتّباع الهوى:

فإن غلبة الهوى وإتباعه : ـ تصدّ عن الحق : بحيث تظهر الأدلّة المقنعة والحجج الدامغة، لكن صاحب الهوى لا يقنعه كل ذلك ، بل يجحده وينكره ويحرّفه ويؤوّله تأويلات تبرر هواه ، وقد كان أعظم تخوّف الإمام علي رضي الله عنه من ذلك فقال :(إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنتين : طول الأمل وإتباع الهوى، فأمّا طول الأمل فينسي الآخرة، وأمّا إتبّاع الهوى فيصدّ عن الحق).

ـ وتفسد العقول السليمة : كما قال الشاعر:

إنّ الهوى يفسد العقل السليم ومن يعصي الهوى عاش في أمن من الضرر

وفساد العقل معناه اختلال الفهم ونسفـــه ونقضه.

ـ وتثير التنازع بين الإخوة : كما قال سيد رحمه الله :(ليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر ، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها ، مهما تبيّن له وجه الحق في غيرها ، وإنما وضع الذات في كفة والحق في كفة ، وترجيح الذات على الحق ابتداء).

ـ وتورث البطالة وترك الجماعة والقعود عن العمل والمشاركة في أبواب الخير : كما قال الشاعر :

ثلاث مهلكات لا محالة هوى نفس يقود إلى البطالة

وشح لا يزال يطاع دأبا وعجب ظاهر في كل حالة

وقال الشاعر كذلك:

إذا اعتادت النفس الرضاع من الهوى فإن فطام النفس عنه شديد).(٩)

كذلك فإنه :(إذا غلب الهوى أظلم القلب وإذا أظلم القلب ضاق الصدر وإذا ضاق الصدر ساء الخلق وإذا ساء الخلق أبغضة الخلق وإذا أبغضه الخلق أبغضهم وإذا أبغضهم جفاهم وإذا جفاهم صار شيطانا).(١٠)

فكيف لمن يصاب بهذه السلسلة المتراكمة أن يرزق حسن الفهم ؟؟؟ ، هيهات هيهات.

كما أن استحواذ الهوى على العبد أيضا ، يحرمه التوفيق في الفهم والسلوك والممارسة ، فقد قال الفضيل رحمه الله :(من استحوذ عليه الهوى وإتباع الشهوات ، انقطعت عنه موارد التوفيق).(١١)

ومن انقطعت عنه موارد التوفيق كيف يوفق إلى فهم سليم ؟؟؟

٤) ـ العجلة وعدم التروّي:

فعدم التأنّي وعدم التريث، في التعامل مع الأفكار ، يفقد الرأي صوابه ، وينزل بالفهم إلى مدارك القصور والخلل، إذ لا فهم مع العجلة ، وقد أوصى أعرابي أولاده قائلا :(إياكم والعجلة ، فإنّ أبي كان يسميها أم الندم).(١٢)

وقديما قال الشاعر:

وما الرأي إلاّ بعد تثبّت ولا الحزم إلاّ بعد تلوّم ، (والتلوم : الانتظار والتأني).

وقال الآخر :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

(وإنما يؤتى الناس من ترك التثبت وقلّة المحاسبة) ، كما أكّد الجاحظ.(١٣)

وحول علاقة التثبت بالفهم الصحيح للمواقف والأحداث والمسائل ، يقول ابن الجوزي كذلك :(ما اعتمد أحد أمرا إذا همّ بشيء مثل التثبت ، فإنه متى عمل بواقعة من غير تأمل للعواقب ، كان الغالب عليه الندم ، ولهذا أمر الإنسان بالمشاورة ، لأن الإنسان بالتثبت يطول تفكيره ، فتعرض على نفسه الأحوال وكأنه شاور ، وقد قيل : خمير الرأي خير من فطيره ، وأشد الناس تفريطا من عمل مبادرة في واقعة من غير تثبت ولا استشارة).(١٤)

ولقد خلق الله السموات والأرض في ستة أيام ، مع قدرته تعالى على ذلك بقوله كن ، وذلك ليعلمنا التأني في الأمور ، كما يذكر الإمام النسفي رحمه الله في تفسيره.(١٥)

ورحم الله الأميري الذي قال :

فريث المثابر أمضى خطى وأبلغ من قفزات الصخب

وكانت أناة الفتى في التقدم أهدى وأجدى لنيل الأرب

ومستعجل الشيء قبل الأوان يصيب الخسار ويجني النصب.(١٦)

فلينظر السالك طريق الدعوة أين يضع القدم، فربّ مستعجل وقع في بئر بوار ، كما نصح الإمام ابن الجوزي رحمه الله.(١٧)

٥) ـ السطحية وعدم التعمُّق:

وعدم التعمق في فهم الأفكار والمعاني مرض اشتكى منه علماؤنا قديما ، حيث قال ابن الجوزي رحمه الله :(فأقلّ موجود في الناس ، الفهم والغوص في دقائق المعاني).(١٨)

والسطحية في التعامل مع الأفكار والآراء والمواقف والأحداث ، تجعل العقل لا يستوعب بالطريقة الصحيحة، ومن ثمّ لا تكتمل الصورة لديه ، فلا يتعمق ولا يدقّق ، فينتج عنها فهم غير سليم وسطحي وقاصر، فيبني عليه مواقفا وأحكاما ، تكون عواقبها وخيمة على الفرد والمجموع، لأن نسف الفهم نتيجته نسف كلّ ما يرتبط به ويبنى عليه.

أشرنا في الجزء الأول من المقال إلى خمسة نواسف للفهم السليم ، ونكمل في الجزء الثاني بقيتها لتصير عشرة كاملة ، نسأل الله أن يرزقنا حسن الفهم وأن يعصمنا نواقضه ونواسفه ، وأن يمنّ علينا بحسن القصد وأن يجنبنا مفسداته وشوائبه :

٦) ـ طغيان الأحقاد :

لأن الصدر الضيق يهدم ما يمكن أن يبنيه العقل الواسع ، وطغيان الأحقاد على القلب ، تجعل صاحبه كثير الاضطراب شديد الظلمة ، وإذا اشتدت ظلماته بسبب دفعات الأحقاد المتتالية عليه ، صدّرها بدوره إلى العقل ، فتحجب عنه الرؤية الصحيحة وتحرمه الفهم السليم وتمنعه التقدير الصائب.

فسلامة الصدر ونقاء القلب وصفاء السريرة وراحة البال وطهارة النفس ، كلها دوافع على الفهم والتفكير بشكل صحيح :(فليس أروح للمرء ولا أطرد لهمومه ولا أقر لعينه ، من أن يعيش سليم القلب ، مبرأ من وساوس الضغينة وثوران الأحقاد..

فالقلب الأسود يفسد الأعمال الصالحة ويطمس بهجتها ويعكّر صفوها .

أما القلب المشرق ، فإن الله يبارك في قليله ، وهو إليه بكل خير أسرع).(١)

فكثير ما تطيش الخصومة بألباب ذويها ، فتتدلّى بها إلى اقتراف الصغائر المسقطة للمروءة والكبائر الموجبة للّعنة ، وعين السخط تنظر من زاوية داكنة ، فهي تعمى عن الفضائل وتضخم الرذائل ، وقد يذهب بها الحقد إلى التخيّل وافتراض الأكاذيب ، وذلك كلّه ممّا يسخطه الإسلام ويحاذر وقوعه ويرى منعه أفضل القربات... فصاحب الصدر السليم يأسى لألام العباد ويشتهي لهم العافية ، أما التلهّي بسرد الفضائح وكشف الستور وإبداء العورات ، فليس مسلك المسلم الحق.(٢)

٧) ـ اليأس وانسداد الأفق :

كذلك فإن انسداد الأفق يمنع الرؤية ، وتمكّن اليأس واستفحاله لدى المرء ، يجعل حالته هذه تنعكس على كل سلوكاته وتنطبع بها كل أحكامه على الأفكار والأشخاص والأشياء ، فتنتقل الصورة القاتمة المترسخة لديه جرّاء غلبة منطق اليأس والقنوط والتشاؤم عليه ، إلى طبيعة فهمه للأمور ، فيحرم بذلك الإصابة والرزانة والموضوعية ، ويجعل بينه وبين الفهم السليم والنظرة الصائبة والتقدير الصحيح حجبا كثيفة تسد أفقه وتظلم الدنيا من حوله وإن كانت ملأى بالأنوار والآمال .

فلا يكسب المرء من وراء يأسه الدائم ، إلا انحسار ذاته وخمود نشاطه وارتباك وعيه ووهن عزيمته ، كما قال الشاعر :

فاليأس يحدث في أعضاء صاحبه ضعفا ويورث أهل العزم توهينا

توهينا على مستوى الفعل والعمل والنشاط والممارسة ، وكذا توهينا على مستوى الفكر والفهم والعقل والمدارسة .

فاليأس وانسداد الأفق يدفع صاحبه إلى خيارات الاندحار أو الانحدار أو الاندثار أو الانكسار أو الانفجار أو الانتحار، وكلها تتنافى والفهم السليم وتناقضه وتنسف البقية الباقية منه ـ إن كانت موجودة أصلا ـ .

٨) ـ إدمان الذنوب والمعاصي :

وتأثير ذلك على سلامة الفهم واستيعاب العلم ، أمر لا يختلف عليه اثنان في الميزان الإسلامي ، كما قال الشافعي رحمه الله :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال لي إن علم الله نـــور ونور الله لا يهدى لـعاصي

كما ذكر ابن المبارك رحمه الله هذا الميزان بقوله:

رأيت الذنوب تميت القلوب ويورث الذل إدمانـها

وترك الذنوب حياة القلوب وخيرٌ لنفسك عصيانها

فإذا مات القلب اختل العقل واضطرب التفكير ، فينحرف بذلك التقدير والفهم .

وقد أكّد الإمام ابن الجوزي هذه العلاقة بين اعتياد الذنوب والمعاصي والفهم بقوله :(رب شخص أطلق بصره فحرم اعتبار بصيرته ، أو لسانه فحرم صفاء قلبه ، أو آثر شبهة في مطعمه فأظلم سره وحرم قيام الليل وحلاوة المناجاة ...).(٣)

وقد عدّد الصالحون وسائل اكتساب الفراسة التي هي صورة من صور الفهم السليم ، فجعلوها تقريبا كلها متعلقة بهذه القاعدة ، كما قال شاه الكرماني رحمه الله :(من غض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشبهات ، وعمّر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره بإتباع السنة ، وعوّد نفسه أكل الحلال ، لم تخطيء له فراسة).(٤)

٩) ـ الغلو والتشدد :

كذلك فإن الجنوح إلى الغلو والتشدد يعتبر من أكثر ما يؤثر على الفهم السليم ، ويحوله لدى الغالي إلى تنطع في اختياراته العلمية والعملية وكذا في المواقف والمعاملات ،

وقد عدّ صلى الله عليه وسلم هذا المسلك من موجبات الهلاك في قوله:(هلك المتنطعون قالها ثلاثا)(رواه مسلم).

والمتنطعون كما يقول الإمام النووي رحمه الله هم :(المتعمقون ، الغالون ، المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم).(٥)

فالغلاة يحفظون أسماء الأدوية ، ولا يعرفون ممّا تتركب؟

ولا كيف تستعمل ، ليتم بها الشفاء؟ ، وربما أرادوا علاج مريض فقتلوه بسوء فقههم مع ما يبطنون من كبرياء.(٦)

كما أن الغالي يظهر سوء فهمه وانحرافه جليّا في سلوكه ، بحيث تجده يريد مالا يكون ويطلب مالا يوجد ويتخيل مالا يقع ، ويفهم الوقائع على غير حقيقتها.(٧)

ولعل معظم مصائب الفرق المنحرفة التي ظهرت في التاريخ الإسلامي ، نتجت عن خيارات الغلو والتشدد ، إن بشكل عام أو في قضية محددة ، فالفكر الخارجي على سبيل المثال لا الحصر ، لم يؤتى أصحابه من فساد ضمائرهم ، وإنما أوتوا من فساد تفكيرهم وسوء فهمهم واعوجاج فقههم .

فكلما تجاوز الواحد حد الاعتدال وتخلّى عن المرونة ، وجنح إلى الحدّية وغالى في أيّ مسألة من المسائل أو موقف من المواقف ، إلا حرم الخيار الأمثل فيها ، وابتعد عن الفهم السليم لها بمقدار ما أصيب به من غلو وتشدد ومجاوزة للاعتدال.

والعكس فإنما يوفق إلى الفهم الصائب والسليم لها ، بمقدار ما حافظ على اعتداله ووسطيته ورفقه ومرونته ، فقد جاء في الحديث :(يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين)(ابن عبد البر في التمهيد).

١٠) ـ سرعة الغضب :

أيضا فإن سرعة الغضب لأتفه الأسباب وفوران ناره لأبسط الأمور ، يغيّب العقل بالكامل ، ومن ثم ينسف الفهم السليم والصحيح نسفا ، كما قال الإمام ابن عقيل الحنبلي رحمه الله :(قلّ أن يصحّ رأي مع فورة طبع (غضب) ، فوجب التوقف إلى حين الاعتدال).(٨

فالشخص الغضوب كثيرا ما يذهب به غضبه ـ وإن كان من أهل الصلاح ـ إلى حرمانه من الرأي الحصيف وإفساد الأمور في ظل غيبة وعيه ، لذلك كان ضبط النفس والتحكم فيها عند سوران الغضب واستشاطته ، دليلا لا يخطئ على رجاحة عقل المرء وقوة تماسكه وقدرته على البلع وخوض الملمات، والتعامل مع المنعطفات الكبرى والأحداث العظيمة بشكل سوي وطريقة مثلى ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(ما تعدون الصرعة فيكم ؟ ، قالوا : الذي لا تصرعه الرجال ، قال : ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب)(رواه مسلم).

فإذا استطاع الإنسان أن يملك نفسه ، استطاع أن يفكر بشكل سليم ، فقد قيل لحكيم : متى يملك الإنسان نفسه؟ ، قال : إذا لم تذله الشهوة ، ولم يصرعه الهوى ، ولم يغلبه الغضب).(٩)

وقد بيّن حجة الإسلام الغزالي رحمه الله العلاقة الوثيقة بين الغضب وتغييب العقل ، ومن ثم غياب الفهم السليم ، فقال :(مهما اشتدت نار الغضب وقوي اضطرامها ، أعمت صاحبها وأصمّته عن كل موعظة ، فإذا وعظ لم يسمع ، بل زاده ذلك غضبا ، وإذا استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر ، إذ ينطفئ نور العقل وينمحي في الحال بدخان الغضب ...).(١٠)

وقد أكّد هذه الحقيقة كذلك أبو العتاهية شعرا بقوله:

ولم أر في الأعداء حين اختبرتهم عدوا لعقل المرء من الغضب

كما بيّن الإمام عطاء بن أبي رباح رحمه الله عاقبة الغضب على العلماء تحديدا بقوله :(ما أبكى العلماء بكاء أخر العمر ، من غضبة يغضبها أحدهم ، فتهدّم عمل

خمسين سنه أو ستين سنه أو سبعين سنه ، وربً غضبة قد أقحمت صاحبها ما استقاله).(١١)

ف:(قد أفلح من عصم عن الهوى والغضب والطمع) ، كما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله.(١٢)

هذه عشارية نواسف الفهم السليم لنتجنبها ونجاهد أنفسنا بجدّ كي نتخلص من رواسبها لدينا ، لأنه من فهم المقصود وعمل بالدليل ، كان كالباني على أساس وثيق.

فاللهم هب لنا توفيقا ينير الطريق، وهداية تقي العثرات ، وعناية تأخذ باليد إلى الحق، ويقينا يزيل اللبس في مواطن الشبهات ، وتأييدا يثبت الأقدام في مواقع الزلل، وثباتا يعصم من النكوص.

اللهم جنبنا زلة الرأي ، وزلزلة العقيدة ، ودغل الضمير ، ورين البصيرة ، وخيبة الرجاء.آمين ، كما كان يدعو العلامة البشير الإبراهيمي رحمه الله.

(٩) الضوابط التربوية لسير المجالس واللقاءات

في خضم العمل الميداني اليومي وتراكم الأعمال والواجبات ، وتسارع الأحداث التي قد تضغط على نفسيات الأفراد ، فتجعلهم يتجاوزون الكثير من الآداب والضوابط التربوية التي استوعبوها من خلال محاضنهم التربوية أو بدافع الالتزام الإسلامي الذي يعتبر أصلا من الأصول الثابتة التي لا يعذر فيها أحد ، خاصة الذين يمارسون المهام القيادية والشورية في مؤسسات العمل الدعوي والحركي المختلفة، ويتأكد هذا الأمر لدى المربين المشرفين على العملية التربوية ، الذين يعتبرون ملح الدعوة والحركة ، وهم أولى من يجب عليهم التحلي بهذه الضوابط أثناء تسييرهم وإشرافهم على اللقاءات الأسرية بمستوياتها ومراحلها المختلفة ، وكذا حرصهم على توريثها لكل الأفراد ، كي يلتزموا بها وتصاحبهم في كل مجلس أو لقاء يشاركون فيه.

هذا التجاوز قد يساهم في ظهور نوع من اللائكية الحركية ، خاصة في سير المجالس واللقاءات التنظيمية.

الأمر الذي دفعنا إلى التطرق لجملة من الضوابط التربوية والتذكير بها ، حتى تكون حاضرة في أذهان الجميع للالتزام بها أثناء انعقاد هذه اللقاءات والمجالس ، ولا يجوز بأي حال من الأحوال تجاوزها و القفز عليها ، لأن البعد التربوي لابد أن يكون حاضرا في أعمالنا ونشاطاتنا وممارساتنا ومعاملاتنا كلها ، لأنه المفروض أنه هو الذي يميز أبناء الحركة الإسلامية عن بقية الهيئات البعيدة عن التوجه الإسلامي ، فإذا غاب هذا البعد والسمت وتمّ التخلّي عنه وانخفض منسوب حضوره لديهم ـ أي أبناء الحركة ـ تكون الحركة عند ذلك قد فقدت هويتها وناقضت مرجعيتها وتخلّت عن أهم نقاط قوتها ، وأصبحت لا فرق بينها وبين الآخرين .

ولعل أهم هذه الضوابط العشارية التالية:

١) ـ احترام المواعيد والتقيّد بالوقت :

عند تحديد المواعيد يجب احترامها والالتزام بها ، مع التقيّد بوقت الانطلاق عند الحضور ، لأن ذلك يعتبر أول عامل من عوامل النجاح ، فالوقت هو الحياة ، والواجبات أكثر من الأوقات ، والتساهل في هذه القضية من شأنه أن يؤدي إلى فوضوية العمل وتعطيله وتأخيره ، والتمادي في ذلك يسوق إلى مرتبة خطيرة نربأ بأنفسنا أن نصل إليها ، وهي : من إذا وعد أخلف .

واحترام الموعد والالتزام بالوقت فضيلة حث عليها الإسلام ورغب فيها ، وسلوك حضاري استوعبه الآخرون وعملوا به فوصلوا إلى ما وصلوا إليه من التقدم والتحضر والإبداع ، ونحن أولى من يلتزم به ويعمل بمقتضاه ، خاصة ونحن ننشد التغيير إلى الأفضل ، وقد لفت الشيخ الغزالي رحمه الله إلى أهمية ذلك كمؤشر على النجاح والصعود بقوله:(عندما ترى مجتمعا صارما في مراعاة النظام ، دقيقا في احترام الوقت ، صريحا في مواجهة الخطأ ، شديد الإحساس بحق الآخرين ، غيورا على كرامة الأمة ، كثيرا عند الفزع ، قليلا عند الطمع ، مؤثرا إرضاء الله على إرضاء الناس .

عندما نرى هذه الخلال تلتقي في مجتمع ما ، نثق أنه يأخذ طريقه صعدا إلى القمة).(١)

٢) ـ تجنب الجدل والمماراة أثناء النقاش :

لأن ذلك يوحش القلوب ويوغر الصدور ويخلف آثارا سيئة ، وقد جاء في الحديث :(ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه ، إلا أوتوا الجدل)(الترمذي) ، وقد أوصى الإمام البنا بذلك عندما قال : (لا تكثر الجدل في أي شأن من الشؤون ، فإن المراء لا يأتي بخير) ، فالحوار لابد أن يكون بالحسنى ، والجدال بالتي هي أحسن ، فإذا كان هناك أسلوبان أو طريقتان إحداهما حسنة والأخرى أحسن منها ، فنحن مأمورون أن نتبع التي هي أحسن.

وقد ذكر الإمام الأوزاعي آثار الجدل في الصف بقوله :(دع من الجدال ما يفتن القلب وينبت الضغينة ويجفي القلب ويرق الورع في المنطق والفعل)(٢) ، كما حذر التابعي

الجليل بلال بن سعد من عواقب المراء واللجاجة على الفرد خاصة بقوله :(إذا رأيت الرجل لجوجا ماريا معجبا برأيه ، فقد تمت خسارته).(٣)

٣ ـ عدم رفع الصوت عند إبداء الرأي :

وقد أوصى بها لقمان ابنه ومن ورائه كل مسلم ـ بل وكل عاقل ـ :(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)(لقمان ١٩) .

وقال عاصم بن بهدلة الكوفي المقرئ صاحب القراءة المعروفة :(دخلت على عمر بن عبد العزيز ، فتكلم رجل عنده فرفع صوته ، فقال عمر: مه ، كف ، بحسب الرجل من الكلام ما أسمع أخاه أو جليسه)(٤) ، كما ورد أيضا في وصايا الإمام البنا :(لا ترفع صوتك أكثر مما يحتاج إليه السامع ، فإنه رعونة وإيذاء).

فمناقشة الأمور صغرت أم كبرت يجب أن تتم بهدوء بال واتزان نفس وضبط أعصاب ، فالذي يرفع صوته إنما يدلل على رعونة نفسه ، كما أنه علامة على احتقار الآخرين وإيذاء لهم ، كما أن رفع الصوت لا يقوي حجة صاحبه قط ، وفي أكثر الحالات يكون صاحب الصوت الأعلى قليل المضمون ، ضعيف الحجة ، يستر عجزه بالصراخ ، على عكس صاحب الصوت الهادئ ، الذي يعكس عقلا متزنا وفكرا منظما ، وأنظر إلى البحر تجد الصخب والضجيج على الشاطئ عند الصخور حيث الماء ضحل لا جواهر فيه ولا درر، وتجد الهدوء لدى الماء الأعمق حيث نفائس البحر وكنوزه ، وقد وجد بالتجربة والخبرة أن الصوت الهادئ المتأني من غير صياح أو صراخ ومن غير إسرار أو إخفات هو الأدخل للنفوس والأنفذ إلى الأعماق والأقدر على الإقناع والأحفظ لجلال الكلمة ووقار المتكلم .(٥)

وقد وصف الله الذين يصيحون بمحمد صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات بضعف العقل وضآلة التفكير ، حيث قال سبحانه :(إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)(الحجرات٤).

٤) ـ البعد عن تجريح الأشخاص والهيئات :

فإذا لزم النقد فلا يكون الباعث عليه الحقد ولكن موجها إلى الآراء بالتمحيص لا إلى الأشخاص بالتنقيص ، فإذا انتقدنا ننتقد وصدورنا خالية من الإحن مليئة بحب الخير صافية المعين ، همنا النصح لا النقد ، والتوجيه قبل التشهير ، لا نجرّح ولا نؤذي ولا نبغي ، وقد ورد في وصايا الإمام البنا كذلك :(تجنب غيبة الأشخاص وتجريح الهيئات ، ولا تتكلم إلا بخير).

فالكلمة العنيفة لا لزوم لها ولا ثمرة تجتني من ورائها ، إلا أنها تجرح المشاعر وتغير مودة القلوب ، فالأفضل الابتعاد عن كل مظاهر الإثارة والتهييج والعنف والاتهام والتجريح والدس والوقيعة والسخرية ، المؤدية إلى هوة سحيقة مع من إذا خاصم فجر ، كما أن الألفاظ الفجة القاسية بعيدة عن المنهج النبوي ، وإن كانت صادقة ، فقد روى البخاري في كتاب الأدب حديث :(لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ، ولكن ليقل لقست نفسي) ، قال بن حجر في الفتح :(يؤخذ من الحديث استحباب مجانبة الألفاظ القبيحة والأسماء ، والعدول إلى مالا قبح فيه.. وإن كان المعنى يتأدى بكل منهما).(٦)

فالكلمة الطيبة لا مبرر للعدول عنها مطلقا ، وانظر إلى المرشد عمر التلمساني وهو يتكلم عن الملهم الموهوب أنه كان :(إذا انتقد لا يجرح ، وإذا عارض لا يؤذي ، وإذا ناقش لا يبغي ، كله أدب ، لياقة ، كياسة.. إنه النظيف حسا ومعنى ، النظيف مظهرا ومخبرا ، النظيف قلما وبيانا).(٧)

وكذلك كان الشيخ محفوظ نحناح حتى مع مخالفيه ، حتى ظنه البعض تكلفا منه رحمه الله ، مع أنه كان فنانا بحق في سل سخائم النفوس وأمراض القلوب ، الأمر الذي جعله يكتسب احترام الجميع الموافق والمخالف القريب والبعيد.

وقد يلجأ البعض إلى كل ذلك تحت طائلة الجرح والتعديل ـ خاصة في المجالس المتعلقة بالتولية والترشيح ـ مع العلم أن لهذا العلم أصوله وآدابه ، لعل من أهمها إن يكسو المتكلم ألفاظه أحسنها ، روى المزني قال: سمعني الشافعي يوما وأنا أقول: فلان

كذاب ، فقال لي: يا إبراهيم أكس ألفاظك أحسنها ، لا تقل كذاب ، ولكن قل: حديثه ليس بشيء).(٨)

فلا بد من التثبت والدقة في تناول هذه المسائل ، لأن التمادي فيها قد يؤدي إلى مآلات خطيرة ذكرت في مجموعة من الأحاديث النبوية الصحيحة.

٥) ـ التأدب مع أهل الفضل :

وقد يغيب هذا المعنى في أحيان كثيرة ، فتختل الموازين ويوضع الجميع في كفة واحدة دون مراعاة لفضل أو سبق أو علم أو مكانة ، مع أن الله عز وجل قال:(وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)(الأعراف٨٥)، جميع أشيائهم : حقوقهم ، أموالهم ، علمهم ، شرفهم ، مكانتهم ، سبقهم ، فضلهم ، وقد أتى التعبير القرآني في الآية بعد الكيل والميزان ، كدلالة على وجوب العدل في ذلك ، وهذا لا يعني حرمان هذا الصنف من النصيحة والتوجيه ، فقد ذكر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه :(ليس في الدنيا أحد أكبر من أن ينصح ، ولا أصغر من أن ينصح).(٩)

لكن النصيحة لها آدابها ، والنقد البناء له أصوله ، أما أن نضع كبارنا وقادتنا ورجالنا وحتى هياكلنا ومؤسساتنا على المشرحة ، ونردد كل ما يشاع وبدون تثبت ولا مراعاة لآداب النصح ، فإنه والله التهديم والتعويق ، وربما الظلم ، وقد جاء في الحديث :(أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود)(أبو داود وأحمد والبخاري في الأدب المفرد) ، والحديث الآخر:(ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه)(أحمد والحاكم والطبراني) ، وذكر سعيد بن المسيب قاعدة جليلة في هذا الباب :(أنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب ، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه ، ومن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله)(١٠) ، وذكر ابن القيم أن :(من قواعد الشرع والحكمة ، أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر ، فإنه يحتمل له مالا يحتمل لغيره ، ويعفى عنه مالا يعفى عن غيره ، فإن المعصية خبث والماء إذا بلغ القلتين لا يحمل الخبث)(١١) ، كما أصّل إمامنا عبد الحميد بن باديس لهذه القاعدة في تعليقه على كتاب العواصم من القواصم

لأبي بكر بن العربي بقوله:(إذا لم يكن بد من الخطأ لغير المعصوم ، فليس تفاضل الناس في السلامة منه ، وإنما تفاضلهم في قلّة أو كثرة الصواب التي تغمره).(١٢)

فالخطر كل الخطر أن تضيع المنازل وتختلط الحدود وتتطاول الأعناق وتتزاحم الأكتاف ، تحت حجج واهية ، فالأولى بنا إذا مشينا في الطريق المعبدة أن نذكر فضل من تعبوا قبلنا في تعبيدها .

٦) ـ حسن الاستماع إلى الآخرين :

الإصغاء التام للمتحدث وهو يبدي رأيه من دون ضجيج أو شوشرة أو صخب ، من شأنه أن يزرع بذور الثقة والاحترام ، ويشجع المترددين والخجولين على التكلم والمشاركة ، إذ أن اللامبالاة بالمتكلم يعطي انطباعا له أن الآخرين لا يولون اعتبارا لما سيقوله ، فيصاب بانكسار النفس وجرح الشعور ، مما يدفعه إلى ردود أفعال عكسية ، فالمفروض أن تكون مجالسنا يسودها النظام والانضباط ، ويغلب عليها طابع الجدية والاحترام المتبادل ، حتى تؤتي أكلها وتحقق الأهداف المرجوة منها .

فالمتكلم الجيد في الحقيقة يجب أن يكون مستمعا جيدا ، ومهتما بكل رأي يطرح أو فكرة تقترح أو نصيحة تسدى ، كما قال بن المقفع :(تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، ومن حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى ينقضي حديثه ، وقلة التلفت إلى الجواب ، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم والوعي لما يقول)(١).

وقد ذكر ديل كارنيجي في كتابه القيم كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس وصفة بين فيها مساوئ عدم الإصغاء إلى الآخرين ، واللا اهتمام بما يطرحونه فقال :(إذا كنت تريد أن ينفض الناس من حولك ويسخروا منك عندما توليهم ظهرك فهاك الوصفة ، لا تعط أحدا فرصة الحديث ، تكلم بغير انقطاع ، إذا خطرت لك فكرة بينما غيرك يتحدث ، فلا تنتظر حتى يتم حديثه فهو ليس ذكيا مثلك فلماذا تضيع وقتك في الاستماع إلى حديثه السخيف ؟ اقتحم عليه الحديث وأعترض في منتصف كلامه)(٢).

فخير متحدث هو من يستمع إلى الآخرين بشغف .

٧) ـ احترام رأي الأغلبية :

يجب أن يتحرى الواحد الحق ومصلحة الإسلام والدعوة والحركة ، عند إبداء الرأي ، ويتجرد من الأهواء الشخصية ، وعندما لا يؤخذ برأيه الذي أبداه ، فأدب الشورى يحتم عليه أن يحترم الرأي المأخوذ بالأغلبية ، فتعدد الآراء داخل الجماعة أو الحركة جائز بل مؤشر صحة وعامل ثراء ودليل خصوبة ، وللأغلبية أن تختار ما تراه من الآراء المتعددة المطروحة ، دون حرمان صاحب الرأي من الثبات على رأيه مالم يقتنع بغيره ، لكن عليه ألا يعرقل سير الجماعة في إنفاذ ما اختارته ، ولقد أصر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على رأيه في عدم إجازة حمل المسلمين على مصحف واحد كما ذهب إليه أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، ولكن ابن مسعود لم يعرقل جهود عثمان في إنفاذ ما عزم عليه وأيده الكثيرون من أجلاء الصحابة ، وأثبت التاريخ أنه كان عين الصواب والحكمة .(٣)

فإذا رأى الأخ إخوانه مجمعين على أمر لا يراه ، فعليه أن يلتزم رأيهم مالم يقتنعوا بوجهة نظره ، فالخير كله في لزوم الجماعة ، هذا طبعا من دون التحجير على الآراء وبعيدا عن الإقصائية والوصائية والسلطوية .

٨) ـ المجالس بالأمانة :

وهو جزء من حديث يعني به النبي صلى الله عليه وسلم أن من جلس مع قوم وحدثهم حديثا كان مؤتمنهم عليه ، فإذا تواضع القوم على أن هذا الحديث سر فهم أمناء عليه ، ومن أفشاه فقد خان الأمانة ، وخيانة الأمانة نوع من النفاق الذي لا يتفق مع الإيمان الصادق ، فلا بد أن يعطى هذا الأدب حقه وقدره ، كما أنه يجب الحذر من كشف الأسرار خاصة عند اختلاف وجهات النظر، فمن لا يؤتمن على سر، لا يؤتمن على دعوة أو حركة أو جماعة ،

وهذا السلوك قبل ذلك وبعده يحط من قيمة صاحبه وينزل بها إلى الحضيض ، قيل لمحمد بن كعب القرظي :(أي خصال المؤمن أوضع له ؟ فقال : كثرة الكلام ، وإفشاء السر ، وقبول قول كل أحد).(٤)

أما إفشاء أسرار مجالس أستؤمن عليها الفرد ونشر تفاصيلها ، بمجرد الخلاف أو عندما لا يؤخذ برأيه في النهاية ، فإنه سلوك مشين يسقط مكانة صاحبه كائنا من كان ، وهو يتنافى وأخلاق الرجال ، كما أكد ذلك الإمام الشافعي وهو يتحدث عن خصال الخليل الخائن :

ولا خير في خل يخون خليله ويلقاه من بعد المودة بالجفا

وينكر عيشا قد تقادم عهده ويظهر سرا كان بالأمس قد خفا

وجعله الشاعر الحكيم الآخر من موجبات ترك صاحب هذا السلوك ، ومن مبررات التخلي عنه والزهد فيه لمّا قال :

إذا ما المرء أخطأه ثلاث فبعه ولو بكف من رماد

سلامة صدره والصدق منه وكتمان السرائر في الفؤاد

٩) ـ العدل والإنصاف :

عند المشاركة بالرأي في المجالس واللقاءات الدعوية والتنظيمية ، ومناقشة ما يطرح فيها من آراء ومواقف وقضايا ومواضيع ، لابد من التحلي بالعدل والإنصاف ، واستحضار وصية الإمام الشاطبي :(ألبس التقوى شعارا ، والاتصاف بالإنصاف دثارا ، واجعل طلب الحق لك نحلة ، والاعتراف به لأهله ملّة ، لا تملك قلبك عوارض الأغراض ، ولا تغير جوهرة قصدك طوارق الإعراض)(٥).

فالدفاع عن الرأي ومحاولة إقناع الآخرين به حق مشروع ، ولكن لا يجب أن يتم ذلك بالانحراف عن الحق ومجانبة الإنصاف والشطط في تسفيه وتخطئة آراء الآخرين ، فأجواء هذه المجالس الأصل فيها أنها أجواء أخوة وود وصفاء ، لا مجال فيها للمشاكسة وسوء الأدب وغمط الحق ، وإن اختلفت الآراء وتباينت وجهات النظر ، الذي هو أمر طبيعي ، فالعرب كانت تقول في أمثالها :(لا يزال الناس بخير ما تباينوا ، فإن تساووا هلكوا) ، ولكن هذا التباين وهذا النقد وذلك الرد يجب أن لا يقود إلى الخصومة ، ولا يؤدي إلى الكراهية ، بل الأصل بقاء المودة والألفة مادامت النية لله

تعالى والمقصد تبيان الحق والوصول إلى الخير وحرص الجميع على مصلحة الدعوة والحركة ،

وقد نقل شيخ الإسلام بن تيمية في الفتاوى عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشورة ومناصحة ، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية ، مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين)(٦).

١٠) ـ التحلي بآداب المجلس :

وفي الأخير لابد من التحلي بجملة من آداب المجلس ، والتي من بينها :

ـ خفض الجناح ، فقد قال الفضيل :(لأن يلاطف الرجل أهل مجلسه ويحسن خلقه معهم ، خير له من قيام ليله وصيام نهاره).

ـ ومنها الابتعاد عن النجوى من دون الآخرين ، فقد ورد في الحديث :(إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر ، حتى تختلطوا بالناس أجل أن ذلك يحزنه)(متفق عليه).

ـ ومنها عدم الجلوس في أماكن الآخرين بعد شغلها ، فقد ورد في الحديث كذلك :(لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن تفسحوا أو توسعوا)(البخاري في الأدب المفرد).

ـ ومنها الاستئذان في الدخول إلى مكان المجلس عند التأخر وعند الانصراف لطارئ .

ـ ومنها عدم التفريق بين اثنين إلا بإذنهما ، كما ورد في الحديث أيضا :(لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما)(الترمذي).

ـ ومنها اعتذار البعض للبعض وقبوله والافتراق على ذلك ، فقد جاء في الحديث :(من اعتذر إلى أخيه بمعذرة لم يقبلها ، كان عليه مثل خطيئة صاحب مكس)(ابن ماجه) ، وقال الشاعر :

قيل لي قد أساء إليك فلان وقعود الفتى على الضيم عار

قلت قد جاءنا فأحدث عذرا ديّة الذنب عندنا الاعتـــذار

ـ ومنها عدم الغفلة عن ذكر الله مهما كانت طبيعة هذه المجالس واللقاءات ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه ، إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان عليهم حسرة)(أبو داود) .

ـ ومنها دعاء كفارة المجلس ، فعن أبي برزة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يقوم من المجلس قال :(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)، فقال رجل: يا رسول الله إنك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى ، قال :(ذلك كفارة لما يكون في المجلس)(الحاكم).

صفات مسيري المجالس واللقاءات:

وقبل الانتهاء يحسن الإشارة إلى بعض الصفات التي يجب أن يتصف بها مسيرو المجالس ومديرو اللقاءات كما حددها علم الإدارة الحديث ، حتى تكتمل الصورة :

١ ـ كسب احترام المشتركين في المجلس وثقتهم .

٢ـ وضوح الهدف من الاجتماع أو جدول أعمال المجلس في أذهانهم منذ البداية.

٣ـ الحياد وعدم إبداء الرأي الشخصي قبل الآخرين .

٤ـ الكلام بلغة الحضور ، واستعمال نفس المصطلحات التي يستعملونها.

٥ـ وضوح اهتمامه بكل الحاضرين واحترامه لهم .

٦ ـ وضوح كلامه وفصاحة لهجته .

٧ ـ قدرته على توجيه المناقشات إلى موضوع الاجتماع وتسييره إلى أهدافه.

٨ـ قدرته على الإقناع.

٩ـ إشراك الجميع في المناقشة وإبداء الرأي.

١٠ ـ إشاعة روح المرح والارتياح.

١١ـ الحزم في غير شدة.

١٢ـ تجنب أسلوب (يجب عليكم) ، وإتباع أسلوب (ما رأيكم في ، أو لو، أو أقترح أن).

١٣ـ الابتعاد عن المجادلة والسخرية والاستهزاء من أحد الحاضرين ، أو تسفيه رأيه .

١٤ـ التقيد بالوقت وعدم السماح لأحد بإضاعته.

١٥ـ عدم الظهور بمظهر السيد على الحضور أو التسلط على أفكارهم وآرائهم.

١٦ ـ قوة الشخصية ، بحيث يكون قادرا على رد الأمور إلى نصابها كلّما وقع التجاوز.

(١٠) معرفة الشر

ذكر الناس رجلا عند عمر رضي الله عنه، وأثنوا عليه خيرا فقالوا : إنه لا يعرف الشر أبدا.

فقال عمر : ذاك أجدر أن يقع فيه .

إن التعرف على الشر وأهله ، والتفطن بل الخبرة بأساليبه وكيده ومؤامراته ومداخله ومخارجه ، وفقه مخططاته وعدم الانخداع بها ، قضية لابد منها لكل من يريد أن تكون له قدم تمكين بدينه ودعوته وحركته ومبادئه في ساحات الصراع وميادين التدافع وأساليب المناورة ، وتفويت الفرصة على أهل الكيد والشر الذين يريدون توريطه ، ويسعون إلى إيقاعه في دوائر تحكمهم ، ومن ثمّ استغلاله فإقصاؤه وتهميشه وإزاحته من الساحة، فعليه أن يكون كالفاروق رضي الله عنه الذي قال عن نفسه : (لست بالخبّ ، ولا الخبّ يخدعني).

وقد يفهم كثير من الناس الطيبة خطأ ، كما فهمها الذين أثنوا على الرجل في حضرة عمر ، ويتصورون أن الطيب هو ذاك الذي لا يعرف الشر ، ذاك المنكمش على نفسه ، الذي لا يعرف شيئا عن أساليب الكيد وطرق المكر، فهذه في الحقيقة ليست طيبة وإنما هي غفلة وعجز وسلبية وبلادة ، ويكون صاحبها عرضة للاحتواء والاستغلال ، من حيث لا يعلم فيكون وبالا على الدعوة والحركة ، إن كان من أهلها فإنه :(لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة ، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية) ، كما قال عمر رضي الله عنه.

وقد كان سيدنا حذيفة بن اليمان كاتم سر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :(كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أساله عن الشر مخافة أن أقع فيه).

وقديما قال الشاعر الحكيم:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقّيــه

ومن لم يعرف الخير من الشر يقع فيه

بل يستطيع الموازنة حتى بين الشرور، كما قيل :(ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ، ولكنه الذي يعرف خير الشرين).

وقد عدّ الإمام ابن القيم معرفة الشر من صفات المؤمن الأساسية ، بحيث يستطيع أن يسد أبواب الشر وأهله على نفسه ، وأن يرد سهامها إلى نحور أصحابها ، وأن يفقه مخططاته ، ويتفطن لحيله ، ولا يغتر أو يستغفل بمشاريعه ومغرياته ، فقال رحمه الله :(وهذه حال المؤمن ، يكون فطنا حاذقا أعرف الناس بالشر وأبعدهم منه، إذا تكلم في الشر وأسبابه ظننته من شر الناس، فإذا خالطته وعرفت طويته، رأيته من أبر الناس ، والمقصود أن من بلي بالآفات صار من أعرف الناس بطرقها ، وأمكنه أن يسدها على نفسه وعلى من استنصحه من الناس ، ومن لم يستنصحه).

فإذا كان كل منّا يملك هذه العقلية ، صارت الدعوة والحركة التي نعمل لها ، عندها المناعة الكافية ضد كل أنواع الكيد والمكر، أمّا أن نتعامل بعقلية غفلات الصالحين ومن خدعنا بالله انخدعنا له، فإن المصير يكون الوقوع في شباك وفخاخ الأعداء والخصوم ودوائر تحكمهم.

فالوقوع في الشر رذيلة ، والاستسلام له ولأهله والانخداع به حمق وعجز وفشل ، أما معرفته وفقهه والحذر منه وتحويل تياره إما بالرجوع على صانعيه ، وإما بتوظيف تناقضاته لخدمة الحق ، فواجب يفرضه الواقع ويؤصله ما نقلناه ، ويبرره ما تعرض له غيرنا.

(١١) ميزان النقد

يقول الشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله :(إذا لزم النّقد فلا يكون الباعث عليه الحقد ، ولكن موجّه إلى الآراء بالتمحيص ، لا إلى الأشخاص بالتنقيص).

إنّ النقد البنّاء والمراجعة المخلصة للأفكار والمواقف والأعمال والممارسات ، سواء داخل الدائرة أو خارجها ، نعتقد أنّه مؤشّر صحة ودليل خلود وعامل من عوامل الاستمرارية ، لأنّ التأسيس لمنهج نقدي سليم ، وامتلاك عقل نقدي قوامه غربلة الأفكار وتمحيصها وترشيد الممارسة وتوجيهها وتقويم الآراء وتصويبها ، من شأنه أن يقي العثار وينفي الخبث ويقوّم الاعوجاج ويصحّح الأخطاء ويمتّن البناء ويوسّع دائرة الشورى ويساعد على إبداء الآراء واقتراح الحلول ، كما أنه يقوّي المؤسسات ويفعّلها ويجعلها ميدانا خصبا لاعتصار العقول وتنشيطها وتحفيزها ، ومن ثمّ تعميق الخيارات وتأصيل الإحتهادات وتنضيج المواقف والقرارات ، فالتماثل يؤدي إلى الرتابة المؤدية بدورها إلى البرودة وغياب التحفز ، في حين فإن التنوع الإيجابي يؤدي إلى التبادل والخصوبة والثراء.

ولأن الكمال عزيز فإن الفجوة التي تكون بين ما هو كائن وما ينبغي له أن يكون على كل المستويات ـ والتي لا يمكن سدّها بشكل كامل مهما بذلت من جهود لأننا بشر في الأول والأخير ـ هي التي تعطي المشروعية للنقد ، بشرط أن تتوفر فيه صفة البناء لا الهدم والإشفاق لا التشفي ، حتى يؤتي أكله وتجنى ثماره ، ينطبق عليه قول القائل :

شهد الله ما انتقدتك إلا طمعا أن أراك فوق انتقاد

ولقد حدّد الإمام الإبراهيمي رحمه الله شرطين اثنين كي يكون النقد بناء ومثمرا ومفيدا:

ـ أولهما: أن لا يكون الباعث عليه الحقد :

لأنّ القلب إذا أظلم وضاق وامتلأ غيظا وكمدا وحقدا وحسدا ، غبشت مرآته وطمست بصيرته ، فتنقلب موازينه وتتشوّه الصورة لديه ، فيصبح صاحبه يخبط خبط عشواء ، فيطلق العنان للسانه ، يحسب أنه ناقد بصير وهو في حقيقته حاقد كبير ، يترصّد

الأخطاء وإن قلّت فيضخّمها ويجعل من الحبّة قبّة ، ويدفن الحسنات والإنجازات والنجاحات ويغيّبها ، كما قال الشاعر :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا عني وما سمعوا من صالح دفنوا

جهلا علينا وجبنا عن عدوهمو لبئست الخلّتان الجهل والجبن

وقد نبّه الشيخ الغزالي رحمه الله إلى دوافع هذا السلوك بقوله:(وكثير ما تطيش الخصومة بألباب ذويها ، فتتدلّى بها إلى اقتراف الصغائر المسقطة للمروءة والكبائر الموجبة للّعنة ، وعين السخط تنظر من زاوية داكنة ، فهي تعمى عن الفضائل وتضخم الرذائل ، وقد يذهب بها الحقد إلى التخيّل وافتراض الأكاذيب ، وذلك كلّه ممّا يسخطه الإسلام ويحاذر وقوعه ويرى منعه أفضل القربات... فصاحب الصدر السليم يأسى لألام العباد ويشتهي لهم العافية ، أما التلهّي بسرد الفضائح وكشف الستور وإبداء العورات ، فليس مسلك المسلم الحق).

ـ ثانيهما:أن يكون موجّها للآراء بالتمحيص لا إلى الأشخاص بالتنقيص :

أي أن تكون وجهة النقد والناقد الذي يريد البناء والتغيير نحو الأفضل ، الآراء فحصا وغربلة وتأصيلا وتصويبا وتصحيحا وتنبيها ، لا الأشخاص أصحاب هذه الآراء تجريحا وتنقيصا واتهاما وتشهيرا ومحاكمة لنواياهم وبخسهم أشيائهم .

فلا بد أن يتعوّد طرفا المعادلة أيّ الناقد والموجه إليه النقد ، على ضرورة الفصل والابتعاد بالأفكار والمواقف والاجتهادات عن العواطف والذوات والشخوص، فليس كل من خالف فكرتي أو انتقد رأيي أو عارض اجتهادي يكون بالضرورة يريد أن يسيء إلى شخصي ، وبالمقابل ليس انتقادي لرأي أو اجتهاد أو موقف يعطيني الحق في الانتقاص من صاحبه والتشهير به والحكم عليه بالإعدام الفكري والمعرفي وعدم الصلاحية وانعدام الكفاءة الأبدية ، لمجرد أني قدّرت أنه أخطأ في رأي أو جانبه الصواب في موقف أو فاته التوفيق في اجتهاد .

من الواجب أن تكون الأعراض خطا أحمرا مهما كانت المبرّرات والدوافع للنقد ، لأنّ الولوغ فيها حالقة للدين والإيمان ، ومحصدة للحسنات ، ومهتكة لجميل ستر الله على العبد ، كما أنها ناسفة لكل روابط الود والأخوة ، ماحقة لكل أواصر الوحدة

والتعاون ، محبطة للنفوس وموغرة للصدور وهادمة لكل جدران الثقة ، مانعة لاستمرارية العمل الجماعي المشترك ، حارمة ـ إن تفشت في الصف ـ من توفيق الله ومعيّته ونصره وتمكينه ، وقد جاء في الحديث عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(الربا اثنان وسبعون بابا ، أدناها مثل إتيان الرجل أمّه ، وإنّ أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه)(السلسلة الصحيحة).

والقاعدة المتعارف عليها في ساحتنا :(عدم غيبة الأشخاص و تجريح الهيئات).

مع ضرورة استحضار العدل والإنصاف كقاعدة أساسية وضابط مهم في التعامل النقدي مع الأفكار والآراء والاجتهادات والمواقف والممارسات ، أشار إليها وأكّد عليها الإمام الشاطبي رحمه الله في سفره العظيم (الموافقات) بقوله:(البس التقوى شعارا والاتصاف بالإنصاف دثارا ، واجعل طلب الحق لك نحلة ، والاعتراف به لأهله ملّة ، لا تملك قلبك عوارض الأغراض، ولا تغيّر جوهرة قصدك طوارق الإعراض). لقد أعطانا الشيخ الإبراهيمي الميزان الدقيق الذي نميّز به بين النقد البنّاء والنقد الهدّام ، فإن كنت كثير النقد والانتقاد . وهذا حقّك . فأعرض نفسك على هذا الميزان ، وزن به ما يصدر منك وعنك لتتأكّد أهو مساهمة في الإثراء ولبنة في البناء ورغبة في الإصلاح وحرصا على التحسين والتطوير، أم هو انتصارا للنفس وانتقاما لها وتبريرا للعجز وتغطية عن التقصير وتعبيرا عن هوى دفين وحقد مكنون لا غير ، عافانا الله وإيّاكم من كلّ ذلك .

(١٢) الوقت في قاموس الدعوة والدعاة

إن الوقت في قاموس الدعوة والدعاة هو الحياة ، ولا يعرف قيمة الوقت وحقيقته ، إلا من ذاق لذة العمل الدائب والحركة النشطة ، ولا يمكن أن تتحقق أهداف الدعوة وتسير إلى الأمام بخطى ثابتة وتقطف ثمارها ناضجة ، إلا إذا عرف أبناء هذه الدعوة والعاملين لها قيمة الوقت وأدركوا :(أن إضاعة الوقت اشد من الموت ، لأن إضاعة الوقت تقطع عن الله و الدار الآخرة ، والموت يقطع عن الدنيا وأهلها) ، كما قال ابن القيم رحمه الله.

وتيقنوا بما أكّده الوزير الصالح يحي بن هبيرة لمّا قال :

الوقت أنفس ما عنيت بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيع

فالحركة الدائبة والعمل الدائم المثمر حياة الدعوات وقبس نورها وسر نجاحها كما قلنا في مقال سابق ، فالممارسة الفاعلة الواعية تخصب الأفكار وتعدّلها وتحفظها من الأفول :(فجرّب وأنت تركب الدراجة ليلا ، كلّما تحركت أكثر كلما ازداد النور إشعاعا واتساعا ، فالحركة تقوّي النور والنور يوضح الطريق ، فتنشط الحركة وتتسارع ، وهذه بدورها تزيد تألّق النور وهو بدوره يعين في توضيح الطريق أكثر ، فزيادة الحركة تؤدّي إلى تألّق جيّد للنور ورؤية واضحة للطريق ، والعكس بالعكس حيث تقلّ الحركة فيخفت النور فيحدث الاضطراب ، حتى يصل إلى نقطة التوقف) ، كما أستنتج الدكتور خالص جلبي .

ولقد أبدع الجيل الأول من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان وحقق المعجزات، لمّا وعى قيمة الوقت حتى قال الحسن البصري رحمه الله:(لقد أدركت أقواما كانوا على أوقاتهم ، أشد منكم حرصا على دراهمكم ودنانيركم) ، وقد أوصى الصالحون أنّ:(نهارك ضيفك فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك ، وإن أسأت إليه ارتحل بذمّك وكذلك ليلك) ، وقد اعتبروا الراحة والفراغ والبطالة وإضاعة الوقت من نواقض المروءة ومن دنو الهمة ومن علامات المقت حتى قال قائلهم :(الراحة للرجال غفلة)(وطلب الراحة لا يصح لأهل المروءات) و(إضاعة الوقت من علامات المقت

) ، ولّما سئل بعضهم :(متى يجد العبد طعم الراحة ؟ ، قال : عند أول قدم يضعها في الجنة).

كانت هممهم دائما متطلّعة إلى هدف أسمى وغاية عظمى لا يألون جهدا ولا يدّخرون طاقة إلا وبذلوها في سبيل غايتهم .

ولقد أدرك الرعيل الأول من قادة الدعوة في العصر الحديث ما أدركه سلفهم من قيمة الوقت وعاقبة الفراغ ، فقد ذكر الإمام البنا رحمه الله عن نفسه أنّه:(ليس يعلم أحد إلا الله كم من الليالي كنّا نقضيها نستعرض حال الأمة وما وصلت إليه في مختلف مظاهر حياتها ، ونحلّل ونعلّل الأدواء ونفكّر بالعلاج وحسم الداء ، ويفيض بنا التأثر لما وصلنا إليه إلى حد البكاء...

وكم كنّا نعجب إذ نرى أنفسنا في مثل هذه المشغلة النفسانية العنيفة والخلّيون هاجعون يتسكّعون بين المقاهي ويتردّدون على أندية الفساد والإتلاف.

وإذا سألت أحدهم عمّا يعمله على هذه الجلسة الفارغة المملّة قال لك : أقتل الوقت.

وما درى هذا المسكين أن من يقتل وقته إنّما يقتل نفسه ، فإنّما الوقت هو الحياة).

كما أورد وصيتين من وصاياه العشر تتعلّقان بهذا الموضوع ، حيث قال في الوصية الثانية :(أتل القرآن أو طالع أو استمع أو أذكر الله ، ولا تصرف جزء من وقتك في غير فائدة) ، وفي وصيته العاشرة قال:(الواجبات أكثر من الأوقات ، فعاون غيرك على الانتفاع بوقته ، وإن كان لك مهمّة فأوجز في قضائها) ، بل إنّه رحمه الله نبّه حتى إلى قيمة دقائق الليل في ميزان الدعاة لما قال :(دقائق الليل غالية فلا تضيعوها بالغفلة).

إن سنن الله لا تحابي حيث لا يمكن في ميزانها أن نغفل ونتراخى ونضيع الأوقات في غير فائدة بل نقتلها ونعيش في أجواء الفراغ والبطالة الدعوية ، ثم نريد أن ننام الليل فنستيقظ فنجد الواقع قد تغير في الصباح وأهداف الدعوة قد تحققت ، فما هذه إلا منى والمنى رؤوس أموال المفاليس.

وقد صور لنا سيد قطب رحمه الله النفوس الفارغة المضيعة لأوقاتها الخالية من الجدية تصويرا دقيقا لما قال:(إنها صورة النفوس الفارغة التي لا تعرف الجد ، فتلهو في أخطر المواقف وتهزل في مواطن الجد وتستهزئ في مواطن القداسة ، والنفس التي تفرغ من الجد والاحتفال بالقداسة ، تنتهي إلى حالة من التفاهة والجدب والانحلال ، فلا تصلح للنهوض بعبء ولا الاضطلاع بواجب ولا القيام بتكليف وتغدو الحياة فيها عاطلة هيّنة رخيصة).

وكما أن للفراغ وإضاعة الوقت تأثير على الفرد فإن له تأثير على المجموع كذلك ، فالصف الذي تنتشر فيه البطالة تكثر فيه المشاغبات، ولعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن ينبهنا إلى هذه القاعدة في العمل التربوي والدعوي لما حدث ما حدث في غزوة بني المصطلق حيث أمر بالرحيل في وقت لم يكن يرحل فيه كما يقول ابن هشام :(ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذاك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما حتى آذتهم الشمس ، إنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس).

فلابد بأن يملأ الفراغ بعمل مثمر بحيث يستفرغ الوسع ويصرف عن الاشتغال بالقيل والقال وكثرة السؤال ، إذ أن الفراغ المقعد هو طريق للتواكل فالتآكل فالتراكل ، كما قال الشاعر :

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أيّ مفسدة

فمن علامات حياة قلب الداعية ودليل جديته وحرصه على دعوته حساسيته المفرطة من تضييع وقته وخشيته وحذره من الغبن في فراغه ووقته وصحته كما جاء في الحديث :(نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ، الصحة والفراغ)(البخاري).

كذلك من العلامات أن يكون منحناه البياني في صعود وترقي دائم ، فإن مجرّد تساوي يومه مع أمسه من حيث الزيادة في الخير والعمل والحركة والإيجابية هو غبن كذلك في عرف الصالحين الذين قالوا:(من تساوى يوماه فهو مغبون).

كذلك من العلامات الندم والتحسر على كل جزء من وقته يضيع في غير فائدة في دينه ودنياه ، قال ابن مسعود رضي الله عنه :(ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه ، نقص فيه أجلي ولم يزدد فيه عملي).

وقال عمر رضي الله عنه :(إني لأكره أن أرى الرجل سبهللا (فارغا) ، لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة).

كذلك من العلامات أن يتبرّم ويجفل من قاتلي أوقات أهل الجد ولصوصها وسارقيها الذين تحدث عن بعضهم ابن الجوزي رحمه الله وبيّن لنا كيف استطاع توظيفهم لمّا قال :(فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد وبري الأقلام وحزم الدفاتر ، فإن هذه الأشياء لا بد منها ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب ، فأرصدتها لأوقات زيارتهم ، لئلا يضيع شيء من وقتي).

ولقد أحصى لنا أحد الصالحين مجالات استغلال الوقت بشكل عام وكل مجال تدخل تحت مسمّاه عدة مجالات فرعية تفصيلية ، فقال :(من أمضى يومه في غير حق قضاه أو فرض أدّاه أو مجد أثلّه أو حمد حصّله أو خير أسّسه أو علم اقتبسه ، فقد عق يومه وظلم نفسه) .

فمن غفل عن هذه الأمور الستة ، وخلا قاموسه منها أو من بعضها فهو عاق لوقته ولعمره ولحياته وسيكون مآله الخسران ومصيره البوار بلا أدنى شك ، وما أشدّه من عقوق وأقساه وأهلكه وأسوده عاقبة. لا يفهم من حديثنا أنّنا ننفي الراحة مطلقا عن مجتمع الدعاة بل :(لابد من سنة الغفلة ورقاد الهوى ، ولكن كن خفيف النوم) ، كما أرشدنا العلامة ابن القيم في فوائده .

فالبدار البدار فإنه لا توفيق مع الفراغ ولا نجاح مع إضاعة الوقت ولا انتصار مع عقوقه وقتله في الترّهات ، ولا قيمة لأهل الفراغ والغفلة والبطالة في ميزان الدعوات فالوقت هو الحياة ، فإمّا أن يكون وقتنا نماء وعمارا أو يكون هلاكا ودمارا ولا توسّط بينهما البتّة.

(١٣) دوام التحرّك الإيجابي من علامات صحّة الابتداء

إن التحرّك الدائم والمستمر هو حياة الدعوات والحركات وقبس نورها وقوام أمرها وسر نجاحها وجوهر بقائها واستمرار سيرها ودوام فعاليتها وحفظ كيانها وسبب تقدّمها وعامل انتصارها ووسيلة تجديدها وتطويرها وارتيادها الآفاق.

فلا خير في ركود بعد تحرك ، وغفلة بعد صحوة ، ونكوص بعد إقدام ، وانتكاس بعد معافاة ، كما أنه لا خير كذلك في تذبذب واضطراب بعد صبر وثبات ، وشك وتردد بعد ثقة ويقين ، وسلبية وقعود بعد جد ونشاط ، وغبش وأخلاط بعد نقاء وصفاء ، وتدابر واختلاف بعد أخوة وائتلاف.

ولا تظهر هذه الظواهر المرضية التي عددناها ، إلا بعد أن يعمّ الفراغ وتنتشر البطالة ويكرّس القعود ، وتستمرأ الراحة ويستلذ النوم وتنطفئ الفعالية ويقل المردود وتغيب الحرقة وتنسد شهية العمل ، وينعدم الشعور بالتبعة ، ويفلسف التثاقل والكسل والانسحاب ، وتنقلب الروح الأنصارية رأسا على عقب ، بحيث نصبح نرى بوضوح الكثرة عند الطمع والمنافع والمغانم والتهارش والازدحام عليها ، والقلّة عند الفزع والعمل والنشاط ، ومن ثمّ والتهرب والتسلل اللّواذ.

ففي الحركة بركة ، وفي السكون هلكة ، ورحم الله الشيخ الغزالي الذي صوّر لنا الوجه المظلم والقاتم والمفزع للقعود عن العمل تصويرا دقيقا فقال: (في أحضان البطالة تولد آلاف الرذائل ، وتختمر جراثيم التلاشي والفناء ، إذا كان العمل رسالة الأحياء ، فإن العاطلين موتى ، وإذا كانت دنيانا هذه غراس لحياة اكبر تعقبها ، فإن الفارغين أحرى الناس أن يحشروا مفلسين، لا حصاد لهم إلا البوار والخسران).

ونتعجب ونحن نرى من لا قيمة لأفكاره ومشاريعه في ميزان الحق والواقع ، ومع ذلك نجده يتحرك ويعمل ليل نهار ويثابر ويقتحم كل الأبواب ويستخدم كل الوسائل ، من أجل أن يحافظ على ما يملك من أفكار ويمكّن لها في دنيا الناس ويلبسها ثوب الحق الذي لا مرية فيه والنفع الذي لا ضرر بعده والمصلحة التي لا صلاح إلا بها ، ويصر أن لا مخرج من الأزمات التي نعانيها إلا من خلال بابه ، ولا حلّ للمشكلات التي نتخبّط فيها إلا بما عنده من حلول ، قد يقول قائل : إنك تسمع جعجعة ولا ترى

طحينا ، لكنه قد يسبقك بجعجعته ويشوّش عليك ويعوق سيرك وتقدمك ، وقد يمنع تحركك ويشلّ حركتك ويحول بينك وبين تحقيق أهدافك ، إن لم يشكّكك في طريقك ويزهّدك فيها ويصرفك عنها بالكلية ويبهرك بما عنده ويغرس في نفسك وعقلك القابلية للانهزام وترك الساحة ، فالسلعة النفيسة قد تكدس ويصيبها البوار بسوء العرض وقصور الإعلان و غياب الجد وفقدان المنافحين وغفلتهم وضعفهم ، وتسبقها سلع أخرى أقل نفاسة ، أحسن أصحابها الدعاية لها واجتذاب الأنظار إليها ، وضحوا من أجل التمكين لها وإغراء الآخرين بها.

فالجبن والضجر والتقاعس واللامبالاة وعدم الشعور بالمسؤولية والتخلي عن الواجبات وترك الميدان للآخرين ، كلها أمراض ما كان لها أن تتسلل إلى صفوف أهل الدعوة وأبناء الحركة وحرّاس المشروع وحاملي الفكرة ، لولا ضعف الوازع وتدهور التربية واختلال الفهم وضبابية الهدف ونسيان الغاية.

فلابد لها من علاج مستعجل ودقيق وعميق وتدارك الأمر قبل فوات الأوان على المستوى الفردي والجماعي ، كما أنه لابد أن تتضافر الجهود وتتشابك الأيدي وتتوحد القوى وتتقاسم الأعباء ، من أجل رتق هذه الفتوق التي تظهر بين الحين والآخر وسد الثغرات التي قد تكون مدخلا لعوامل الهزيمة والتراجع.

ما أحوجنا إلى هبّة إيمانية صادقة ومؤثرة ، وانتفاضة تربوية وفكرية ، تقوي عناصر الغيرة على الفكرة والمنهج والحركة والمشروع ، فتنبّه المتورط والغارق في أوحال الفتور والكسل والتخلي عن واجبه تجاه دعوته وحركته ، وتوقظ النائم و تقنع المتردد وتشجع الجبان وتفعّل الراكد وتنهض القاعد وتدفع المتقاعس إلى التحرك والإيجابية والفعالية ، وتبعث الجامد على الخروج من شرنقة جموده إلى فضاءات الإنجاز والإبداع الرحبة ، للتمكين لدعوته وحركته في كل هذه الفضاءات التي يمد فيها شبكة علاقاته ومعاملاته وانفتاحه على من يصادفهم في طريقه فيها. فلا ينبغي أن يخلط الجامد منّا بين جموده ويبوسته وجفافه وعدم تقبله للتطوير والتجديد في الأفكار والمواقف والوسائل والآليات ، وبين الثبات على الحق والأصول والثوابت ، فيتصور أن جموده السلبي بالمعنى الذي ذكرناه هو في الحقيقة نوع من الثبات بالمعنى الإيجابي كركيزة مهمة من ركائز طريق الدعوة والحركة ، فيجب

أن يعلم أن هناك فرق بين الثبات والجمود ، فالثبات هو الحفاظ على المبادئ وحمايتها والعمل الدائب من أجل التمكين لها والاعتزاز بها دون خيلاء أو تكبر ، وأن لا يستريح البال إلا عند القيام بعمل في سبيل تقدمها خطوات إلى الأمام.
أما الجمود فهو الركود على الأشكال البالية من دون إبداع ، والتهرب من الأعمال المكلفة ، وكثرة الأعذار والشكوى الدائمة والتخفي البليد والقعود عن التحرك بحجج واهية والنقص المستمر والانحدار المتتالي على كل المستويات.

نريد من أبناء هذه الدعوة والحركة في كل مكان ، أن يجسدوا مبادءهم وأن يجعلوا من أنفسهم ودعوتهم وحركتهم المرفأ الآمن الذي تأوي إليه الزوارق التائهة التي زلزل الإعصار ثباتها ، وليكن اسمهم الدعوي والحركي كنداء النجدة ، لا يكاد يسمعه المفزعون حتى تسكن ضلوعهم الواجفة وتعود إليهم طمأنينتهم الضائعة ، وأن يبرهنوا أنهم أهل الإقدام في موطن الخذلان ، وأهل الوفاء في ساعة النكوص ، وأهل الثبات إذا استفحل التراجع والتولّي ، وأهل الفصاحة إذا رطنت الألسن ، وأهل الكرم إذا اختبأت الأيدي ، وأهل السمو إذا نطق الإغراء ، وأهل النبل عندما يسفل التعامل ، وأهل الستر إذا استرسلت الفضائح، وأهل الجد إذا وهنت القوى، وأهل الاجتهاد إذا جمدت العقول ، وأهل التضحية إذا ظهر البخل ، وأهل الإيجابية إذا تفشت مظاهر السلبية ، وأهل التعب والمشقة في سبيل الله إذا استلذ الآخرون الراحة ، وأهل الأمل والتفاؤل إذا اجتاحت النفوس ظلمات اليأس والتشاؤم ، وأهل الطموح وعلو الهمم عند سفالتها وانعدامها لدى الآخرين ، وأهل التمكين والإصلاح إذا استشرى الفساد وتغلبت الشهوات واستفحلت المغريات. فدوام التحرك واستمرارية النشاط وبقاء الحيوية ، وإن اختلفت نسبها وتذبذب مستواها علامة لا تخطيء على سلامة البداية والعكس صحيح كذلك إذ أنّ النكوص بعد الجد والانتكاسة بعد العافية دليل على فساد الابتداء ، لأن الصالحين قديما قالوا :(الفترة بعد المجاهدة ، من فساد الابتداء).

(١٤) تفرّغ الكفايات

يقول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه :(والله إني لأشتري ليلة من ليالي عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود بألف دينار من بيت مال المسلمين ، فقيل : ياأمير المؤمنين أتقول هذا مع تحرّيك وشدّة تحفظك وتنزّهك ؟ فقال : وأين يذهب بكم؟ والله إني لأعود برأيه ونصحه وهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف دنانير).

إن تشعب ميادين العمل الدعوي والحركي وتعدّد واجهاته وكثرة اهتماماته وتنوع وسائله ، كلها أمور تستدعي السعي إلى تأكيد المبدأ الذي أصّله لنا الخليفة الراشد بحسن فقهه وسعة أفقه ونور حكمته ونفاذ بصيرته ، ألا وهو تفرغ الكفايات ، وقد يفهم العارف بسيرته أن هناك نوع من التناقض بين شدّة زهده رضي الله عنه وقوة تحرّيه ، وبين إنفاقه بسخاء على عبيد الله بن عبد الله ، بين إطفاء السراج عندما يتعلّق الأمر بمصالحه الخاصة ، وبين إخراج ألف دينار في ليلة واحدة يهبها لرجل واحد كما فهم ذلك سائلوه أيضا ، ولكنه أوضح لهم القصد ، وبين لهم ثمرة فعله ، وتركه لنا أصلا مهما ومعلما ثابتا بيّنا على طريق الدعوة والحركة .

فتفرّغ مجموعة من القدرات والكفايات في مؤسسات الدعوة و الحركة المختلفة حتمية يفرضها الواقع وتؤكدها طبيعة العمل المؤسساتي والتنظيمي ، لضمان مسايرة المتغيرات ومواكبة المستجدات ودوام الحضور الايجابي ، وكذا لنجاح مشروع الانفتاح والانتشار وتوسيع دوائر التواجد ، وقبل ذلك وبعده السهر على حفظ الصف من الداخل وتمتينه وتقوية روابطه وتحصينه وتطوير الجوانب التربوية والفكرية لأفراده والرفع من مستوياتهم وتنمية مواهبهم وتفجير طاقاتهم ، لما يعود بالنفع على حاضر الدعوة والحركة ومستقبلها ، ويسد الثغرات ويغطي النقص ويراعي التنوع والتكامل ، فيشمل مشروع التفرغ أو التفريغ الذي نتحدث عنه كل مجالات العمل الدعوي والحركي ، خصوصا مجال العلم والفكر ، مجال الدعوة والتنظيم ، مجال التربية والتكوين ، مجال الدعاية والإعلام ، مجال السياسة والتخطيط ، مجال العمل الاجتماعي والخيري ، وكذا العمل الجمعوي والشباني ، وكذلك الثقافي والاقتصادي.

فلا ينبغي أن تبقى الدعوة والحركة معتمدة بشكل كلي على جهود أبنائها المتطوعين بفضول أوقاتهم ، ولا يمارسون معظم عملهم الدعوي والحركي والتنظيمي إلا بعد انتهاء دوامهم الوظيفي أو في العطل والمناسبات ، بعدما استفرغوا طاقتهم لمدة ثماني ساعات أو أكثر أو أقل في اليوم ، ثم نطلب منهم نشاطا دعويا ومردودا حركيا أكثر فعالية ، عند ذلك نكون نطالب بالمستحيل ونخالف نواميس الكون ونتغافل عن الواقع والظروف.

فالتفرغ بهذا المفهوم لابد من التفكير الجاد في تعميقه وتوسيع دوائر تواجده ، ليس عدديا وكميا فحسب ، ولكن كيفيا ونوعيا كذلك ، مع مراعاة الإمكانات الموجودة والفرص المتاحة ، والانتقال بالتالي من الأسلوب الهاوي في العمل إلى الاحترافية بكل أبعادها .

ولا ينبغي كذلك أن يكون المال عقبة في سبيل تحقيق ذلك ، وقد أفتى العلاّمة القرضاوي بأن

:(بذل المال لذلك من أهم ما يتقرب به إلى الله، ويمكن أن يصرف فيه من أموال الزكوات والصدقات والأوقاف والوصايا وغيرها.

بل يجوز أخذ الفوائد من الأموال المودعة في البنوك الأجنبية والمحلية، لتنفق في هذا الجانب، ولا يقال: إن أصلها حرام، لأنها حرام في حق مودعها، ولكنها حلال زلال للمصالح الإسلامية، وتفريغ العاملين للإسلام في مقدمتها.

ولا يجوز للعاملين المخلصين أن يستنكفوا من أخذ الأجر الكافي الملائم لأمثالهم لو عملوا في أي مجال آخر، حتى يستمروا في العمل ولا يتبرموا به، المهم هو العدل في غير إسراف ولا تقتير).

وعندما نقول هذا الكلام لا يعني أننا ننتقص من أهمية العمل التطوعي كما قد يتبادر إلى أذهان البعض ، بل يبقى هو الرافد الذي لا يمكن للقافلة أن تتحرك أو تتقدم ، ولا الأهداف القريبة والبعيدة أن تتحقق ، ولا الأعمال الصغيرة والكبيرة أن تنجز بدونه ، بل من الواجب أن تسري روح التطوع وتتجذر في ساحتنا الدعوية

والحركية وفي ممارساتنا المتنوعة ، حتى تغدو طبعا نتطبع به وعرفا نعرف به وسمتا نتميز به وماركة مسجلة باسمنا .

فتفرغ الكفايات بالطريقة الآنفة الذكر لابد منه ، والتطوع مطلوب في كل وقت وفي كل حين ، والتكامل بينهما ضروري وأكيد .

(١٥) من هنا يؤتى الحق

يقول مصطفى السباعي رحمه الله :(لا يؤتى الحق إلا من الدخلاء في حشوده والأغرار في قيادته والنائمين في حراسته والفساد في أسلحته).

إن صواب الفكرة لا يكون سببا كافيا لانتصارها ، وصحة المنهج لا تعني وجوب النصر ، وطبيعة الحق ليست بالضرورة دليلا على التمكين له ، ما لم يصاحب كل ذلك حملة أوفياء وقادة أذكياء وحراس أيقاظ وأسلحة في مستوى التحدي الذي يواجهه ، لأنه قد يكون الحق معك ولكنك لا تحسن الوصول به ، ولا تجيد الدوران معه حول منعطفات الطريق ، لتتفادي المآزق وتتخطى العقبات ، وتبلغ به ما تريد ، وقد يكون الباطل مع غيرك ، ولكنه يلبسه ثوب الحق ، ثم يجيد الانطلاق معه ويبدع في استخدام الوسائل الملائمة لدفعه إلى الأمام حتى يصل به إلى حيث ينبغي أن يصل الحق . وعموما فإن أهم الثغرات التي يؤتى من قبلها الحق حسب الدكتور السباعي . وقد صدق . هي:

١ ـ الدخلاء في حشوده :

وهم صنف مغشوش النوايا ، معطوب السيرة ، معلول الغاية ، مستور المطامع ، يكون منفذا يلج من خلاله أعداء الحق وخصومه ، ويشكل قناة موصلة لكل ما من شأنه أن يشوّه الصورة ويزعزع الكيان ويعوق الحركة ويثبّط العزائم ، الأمر الذي يستدعي تقوية عناصر المناعة الإيمانية والتربوية والفكرية ، وتعهدها باستمرار لكل أبناء الحق وحاملي لوائه ، حتى تلفظ كل دخيل مهما تستّر وتمسكن للحيلولة دون أن يتمكّن.

٢ ـ الأغرار في قيادته :

وهذا الصنف قد لا ينقصه الإخلاص وصدق المقصد ، وإنما يفتقد إلى عامل الذكاء وبعد النظر ، مع مجانبته للصواب وحسن التقدير ، وسرعان ما تنطلي عليه حيل

المتربصين ، خبّ سريع الانخداع ممّا يسهّل توريطه ودفعه للمغامرة والخيارات الخاطئة ، فيجر الويلات على نفسه وعلى الحق الذي يحمله بسبب غفلته وسوء تدبيره وقلة نباهته.

٣ ـ النائمون في حراسته :

وهذا الصنف أخطر من سابقيه ، وهو مطيّة لكليهما ، إذ عن طريقه يتسرب الدخيل ويتمكّن ويصل القائد الغرّ إلى المراكز المتقدّمة دون عناء ، ومن خلاله تستباح ساحة الحق وتنتهك حرماته.

٤ ـ الفساد في أسلحته :

وهو الذي يؤدي إلى تراجع الحق وانهزامه في ميادين الصراع المختلفة ، لأن فساد وسائل الدفاع وآليات المواجهة معناه اختلال موازين القوى لصالح الأعداء الخصوم .

فهذه أربعة معاول هدم لو اجتمعت على الحق لهدت كيانه وهزّت أركانه ، لذا وجب التنبه المستمر واليقظة الدائمة وتعبئة النفوس ليكون كل جندي من أبناء الحق ضوء كاشفا يفضح الدخلاء وصفّارة إنذار تصم الآذان ، كلما حاول البعض التسلّل إلى الصف لتفريقه أو إلى القلوب لإفسادها أو إلى المشروع لتشويهه أو إلى الغاية لتحريفها أو إلى الفكرة لتسفيهها أو إلى المؤسسات لإضعافها وتغييبها والتمرّد عليها أو إلى القيادة لانتقاصها والاستهتار بها أو إلى الإنجازات للتزهيد فيها ، فيستيقظ بها النائم ويتذكر الغافل ويتقدم المتأخر ويجدّ المقصّر ويستأنف المتوقّف ويقدم المتلكئ ويثبت المتزعزع ويقرّ المتذبذب ويعود المتردّد ويستدرك ويرجع المغرّر به ويكتشف الحقائق أو ينردع المتحامل وتوصد الأبواب في وجه النفعي .

(١٦) كبيرة الإعراض عن القراءة

يقول الراشد:(الإعراض عن القراءة من كبائر الناس الكبيرة ، ولعلها الموبقة الحادية عشر بعد أن أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم باجتناب العشر الموبقات ، فنعم فتيان الدعوة لو قرءوا...).

إن القراءة ينبوع العطاء المتجدد، ومصدر الفعالية المستمرة ، ووسيلة الوعي المتدفق ، تكمن أهميتها في أنها الخلفية القوية التي يجب أن تكون وراء تفكيرنا وتصوراتنا ، عن طريقها نصل إلى سعة الفهم وتعميق الفكر وألمعية الذهن وتزويد الرصيد، بها ننمي مكتسباتنا العلمية والمعرفية سواء في فقه الشرع أو في فقه الواقع، وكلا الفقهين من ضروريات الالتزام الفردي والجماعي ، ومن أبجديات التغيير والتمكين.

فضحالة القراءة أو نضوب الثقافة ، تكرس الأمية العلمية والفكرية والثقافية ، ومن ثم الابتعاد عن دور الشهادة على الناس ، لأن الشاهد يفترض فيه الحضور ، والفقراء علميا ومعرفيا شهود كغياب إذا حضروا لم يعبأ بهم وإذا غابوا لم يفتقدوا .

فالإعراض عن القراءة والمطالعة ، والجفول من الكتاب واستثقاله والخصومة معه ، وانخفاض منسوب المقروئية ، كلها خوارم عدها الراشد كبيرة إن لم تكن موبقة ، وقد أصاب كبد الحقيقة . لله دره . خاصة في مجال الدعوة ، لأن كثيرا مايكون القصور الذي نراه راجع أساسا إلى الفقر العلمي والمعرفي والثقافي ، ولايمكن أن نواكب الواقع المتغير بدعوتنا ونكون بها في مستوى العصر ، ونغري وننافس بها الآخرين ، بتخلف معرفي وفقر علمي واستهتار بالكتاب .

فكلما كثر إطلاع المرء وتعددت قراءاته ، كلما اتسعت مداركه وآفاقه وكثر علمه وزاد عمله وامتلك النظرة الصائبة في الحكم على الأشياء .

فالقراءة الدائمة والمستمرة والواعية والمبصرة هي طريق الريادة والقيادة والسعادة والنجاح ، فقد سئل الأديب الفرنسي فولتير : (عمن سيقود الجنس البشري ؟ فأجاب: الذين يعرفون كيف يقرؤون).

إن الروح العلمية التي من المفروض أن تسود الوسط الدعوي والحركي ، من أول سماتها الشغف بالكتاب اهتماما وقراءة وتحليلا ونقدا كذلك ، وكلما زادت نسبة هذا الشغف وارتفع مستوى هذه المقروئية كلما قويت عناصر المناعة الفكرية والعلمية والمعرفية لدى أبناء الدعوة والحركة واتسع أفقهم الفكري وتخلصوا من الأحادية الثقافية والقراءة الانتقائية التي يتهمون بها من طرف خصومهم ـ هذا إن قرءوا ـ ، ومن ثم امتلكوا القدرة على الفلترة لما يقرءون وتوظيف ذلك في ترقية أنفسهم أولا وخدمة دعوتهم وحركتهم ومشروعهم ثانيا .

كذلك لابد أن نشير في هذا المجال إلى المعدل الذي ذكره الدكتور طارق السويدان في صناعة الثقافة ، إذ يرى أن المعدل المقبول للقراءة يجب ألا يقل عن كتابين شهرياً ، كل كتاب ما بين ٢٠٠ إلى ٢٥٠ صفحة من الحجم المتوسط . اقل من هذا المعدل لن يكون بالإمكان تكوين ثقافة.

فلو استعملنا هذا المعدل ، فأين يمكن أن نصنف ابن دعوة وحركة وأمة ورسالة منطلقها (اقرأ) ، لايفتح كتابا في شهور وربما في سنة أو أكثر .

فمن القصور والتفريط أن الدنيا من حولنا غرقى في بحر المعلومات ونحن نعاني جوعا وشحا معرفيا وعلميا وثقافيا ، ولو اطلعنا على ترتيبنا العالمي في نسب المقروئية وطبع الكتاب مقارنة بغيرنا ـ أعداؤنا على وجه الخصوص ـ لوجدنا واقعا مرا ووضعا كارثيا ومخيفا ، ولأدركنا لماذا لم نتقدم بل تقادمنا ، ولم نتطور بل تورطنا في مدارك التخلف والتبعية والذيلية كأمة في كثير من الأحيان .

والقراءة التي نقصدها ، والتي تكون من مستلزمات الإيجابية والفعالية والوعي ، ليست الترف الفكري الذي عناه طه حسين بقوله:(كثيرا مانقرأ لنقطع الوقت ، لالنغذ العقل والذوق والقلب ، وكثيرا مانقرأ لندعو النوم ، لالنذوده عن أنفسنا)، بحيث إذا أصيب أحدهم بأرق أمسك كتابا، فإذا بالنوم يحضر في الحين .

فبقدر منزلة الكتاب عندنا، وقيمته في ساحتنا والشغف به لدينا ، تتحدد قيمتنا في الحياة ، كما قال الزيات صاحب مجلة الرسالة :(مادمنا لانرى الكتاب ضرورة للروح ، كما نرى الرغيف ضرورة للبدن ، فنحن مع الخليقة الدنيا على هامش الحياة).

ولو تأملنا سيرة سلفنا الصالح لوجدنا عجبا في شدة الاهتمام بالقراءة واللهف على الكتاب حتى ملأوا الدنيا علما ومعرفة ففرضوا احترامهم وهيبتهم وريادتهم على العالمين ، فهذا الإمام الزبير بن بكار تنظر زوجته إلى ناحية في البيت مملوءة بالكتب فتقول:(والله إن هذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر)، لشدة ولعه بها وعنايته بدراستها.

ويحدث الإمام ابن الجوزي عن نفسه:(وإني أخبر عن حالي ماأشبع من مطالعة الكتب ، وإذا رأيت كتابا لم أره ، فكأني وقعت على كنز ، فلو قلت أني قد طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعد في طلب الكتب ، فاستفدت بالنظر فيها ملاحظة سير القوم وقدر هممهم وحفظهم وعاداتهم وغرائب علوم لايعرفها من لم يطالع).

وهذا أبو الحسن الفالي اضطر ـ لشدة فقره وحاجته لنفقة عياله ـ لبيع كتاب الجمهرة لابن دريد بستين دينارا ، وكان الذي اشترى الكتاب الشريف المرتضى ، فوجد في آخر الكتاب أبياتا غاية في اللوعة والتأثر سطرها أبو الحسن وهو يبيع كتابه الذي كان له أرفع قيمة وأسمى مكانة في نفسه وشعوره قال فيها:

أنست بها عشرين حولا وبعتها لقد طال وجدي بها وحنيني

ماكان ظني أنني سأبيعها ولو خذلتني في السجون ديوني

ولكن لضعف وافتقار وصبية صغار عليهم تستهل شؤوني

وقد تخرج الحاجات ياأم مالك كرائم من رب بهن ضنين

فلما قرأ الشريف الأبيات أرجع النسخة إلى أبي الحسن وترك الدنانير له).

وحتى لانبعث اليأس في النفوس بأن المعاصرين لايملكون هذه الروح الشغوفة بالكتاب والمتلذذة بالمطالعة ، فإننا لابد أن نشير إلى تفرد بعض الأفاضل بذلك فأبدعوا وأنتجوا وأثمروا ، فهذا الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله يتحدث عن تجربته فترى العجب العجاب يقول:(لو أحصيت معدل الساعات التي كنت أطالع فيها لزادت على عشر في اليوم ، فلو جعلت كل ساعة عشرين صفحة ، اقرأ من الكتب الدسمة نصفها ومن الكتب السهلة نصفها ، لكان لي في كل يوم مائتا صفحة...).

فأين نحن من همة القوم وسعة إطلاعهم وتنوع قراءاتهم وحسن استغلالهم لأوقاتهم ، مجسدين عمليا قاعدة:(الوقت هو الحياة).

فإلى القراءة إلى القراءة ، حتى نكون عند حسن ظن القائل:(نعم فتيان الدعوة لو قرؤوا).

(١٧) ما أحوجنا لمن يأخذ لنا بمجامع الطرق

روي أن قتيبة بن مسلم لمّا صافّ أعداءه . أي وقف حيالهم في الحرب . هاله أمرهم فقال: أين محمد بن واسع ؟

فقيل له: هو في أقصى الميمنة ، يومئ بأصبعه نحو السماء .

فقال قتيبة : تلك الإصبع الفاردة أحب إلي من مئة ألف سيف شهير وسنان طرير.

فلمّا فتح الله عليه ، وانتصر على أعدائه ، قال لابن واسع: ماكنت تصنع؟

قال: آخذ لك بمجامع الطرق.

إن الدعوة والحركة بحاجة إلى ثلة من الرجال الأفذاذ ، يكونون على قدر كبير من الربانية والعلم والصلاح والتقوى والزهد والورع ، ينتصبون مصابيحا هادية وقدوات مشعة ، يجسّدون المبادئ ويحفظون الأصول ، يكونون حجة للدعوة وللحركة لاعليها ، يستوعبون الآخرين ويأخذون بأيديهم إلى ساحة الدعوة وميدان الحركة بلسان حالهم قبل لسان مقالهم ، يحل الواحد منهم محل جيش بكامله في ميزان الصراع بإيمانه و بصفائه وإخلاصه وصلاحه وربانيته.

إن وجود نماذج حية من هذا الصنف في الركب، تدفعه إلى الجد والفعالية ، حيث بهم ينتبه الغافل ويسرع المترهل ويلتحق المتخلف ويتحرك الفاتر ويمضي المتردد ويستحي المتقاعس ويستأنف المتوقف ويستأنس السائر ويرتدع المتجاوز وينتصح المفرط ويتيقن المتشكك ، قال جعفر بن محمد وهو يتحدث عن القوة الإيمانية الإشعاعية الآسرة لشخصية محمد بن واسع :(كنت مهما فترت في العمل ، نظرت إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة ، فيرجع إلي نشاطي في العبادة وفارقني الكسل وعملت عليه أسبوعا)(١).

فمجرد رؤية الواحد منهم تمنح اليقظة للآخرين ، وتشحنهم وتدفعهم إلى العمل أياما وشهورا .

لكن لعل مقتضيات الطريق وضغوطاتها وأشواكها وصوار فها وجواذبها واكراهاتها وتحدياتها، قد تنسينا هذه الحقيقة المهمة ، وهي وجوب توفر رجال من هذا النوع ، يشكلون أسوارا مانعة من الاختراق والتسلق ، ويفعلون فعل المضادات الحيوية التي تمنع التجرثم ، ويثبتون خرسانات قوية تحفظ من التزلزل والتزعزع والانحراف ، فيتوفر بهم الاتزان وتضمن الأصالة وتستقيم الانطلاقة وتستمر الحركة وتحفظ المسيرة ويتدعم الرصيد وتتحقق الأهداف

إن مسببات الاستهلاك الإيماني ـ كما سماها فتحي يكن رحمه الله ـ كثيرة ومتشعبة ومتجددة في دنيانا المتقلبة ، وعمليات الإستفراغ الروحي متواصلة من دون توقف ، بل تزداد يوما بعد يوم ، والتخلية من عناصر القوة الإيمانية مستمرة هي كذلك ، تحت وقع المغريات والشهوات ، وستترك الفرد خالي الوفاض وعلى الحديدة كما يقال وكذلك المجموع إن لم يتم تدارك ذلك ، وضمان التزود والتعويض والتحلية الدائمة ببرامج عملية وانتصاب قدوات يحيون سيرة الصالحين من السلف في هذا الجانب تحديدا .

فما أحوج الدعوة والحركة والإسلام والأمة إلى رجال كمحمد بن واسع رحمه الله ، يأخذون بمجامع الطرق ويكونون أسباب نصر وعوامل تمكين وعناصر ترجيح في ميادين التدافع والصراع .

فمن النفوس جداول وجلامد ومن النفوس حرائر وإماء

(١٨) دواعـي الظهور

قال الإمام أبو بكر بن العربي رحمه الله : (سألت شيخنا أبا منصور الشيرازي الصوفي عن قوله تعالى:(إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)(البقرة١٦٠).

مابيّنوا ؟

قال : أظهروا أفعالهم للناس بالصلاح والطاعات.

قلت: ويلزم ذلك؟

قال : نعم، لتثبت أمانته، وتصح إمامته ، وتقبل شهادته.

قال ابن العربي : ويقتدي به غيره)(١).

في كثير من الأحيان تختلط عندنا المفاهيم وتتداخل المصطلحات وتختلّ الموازين ، فتغيب أدوات الفهم السليم ، فنقتنع بقضايا نحسبها من المسلّمات لو دقّقنا فيها النظر وفكرنا فيها بعمق ، لوجدنا أنفسنا ضحايا فهم خاطئ أو قاصر لاغير، كما قال الشاعر:

وكم من عائب قولا سليما وآفته من الفهم السقيم

من جملة هذه القضايا قضية إعلان الأعمال والظهور وارتياد مواقع الصدارة بها، فالبعض منّا بحجة أن حب الظهور يقسم الظهور ، يتوارى عن الأنظار ويبتعد عن الأضواء ويتملّص من تحمل المسؤوليات ، ويمارس نوعا من الورع السلبي ، ويصبح الفرد العامل النشط الفعال الحيوي المتوقّد المنفتح ، الذي يتصدّر القافلة متّهما في نظر هؤلاء ، وما دروا أنهم ضحايا إفهام مقلوبة ومغلوطة وقاصرة ، مما يتسبب في تدمير فاعليتهم وتهديم طموحاتهم وانحطاط هممهم ، ويجعلهم ذيولا في القافلة وهمّلا في الركب ، فيستثقلون الانفتاح ويندفعون إلى العزلة القاتلة والانسحاب من الميدان والجفول من العمل العام ، فيحرمون بذلك أنفسهم من خير جزيل وأجر

كبير، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وقد فهم البعض قديما هذا الفهم واعتزلوا فنبّههم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إلى عظيم خطئهم وانحراف مسلكهم

، فقد بلغ ابن مسعود رضي الله عنه أن رجالا خرجوا من الكوفة ونزلوا قريبا منها يتعبدون (اعتزلوا)، فأتاهم ففرحوا بمجيئه ، فقال لهم: ماحملكم على ماصنعتم؟

قالوا : أحببنا أن نخرج من غمار الناس نتعبّد.

فقال لهم : لو أن الناس فعلوا مثل مافعلتم، فمن يقاتل العدو؟ ، ماأنا ببارح حتى ترجعوا)(٢).

فابن العربي وشيخه رحمهما الله ينبّهاننا إلى أن هناك أمورا تستدعي الظهور، بل تدفع إليه وتوجبه والتي حدّداها بـ:

١ ـ تثبيت الأمانة

٢ ـ صحّة الإمامة

٣ ـ قبول الشهادة

٤ ـ توفير شروط الإقتداء

بل أكثر من ذلك فإن بعض السلف كان يتحدّث بما أنعم الله عليه من التوفيق إلى الطاعات ، ويعدّ ذلك من التحدّث بنعمة الله المأمور بها شرعا، فقد كان عبد الله بن غالب رحمه الله إذا أصبح يقول :(لقد رزقني الله البارحة خيرا ، قرأت كذا ، وصليت كذا ، وذكرت كذا، وفعلت كذا

فيقال له : ياأبا فراس ، إن مثلك لايقول مثل هذا ! فيقول: إن الله تعالى يقول:(وأمّا بنعمة ربّك فحدّث)(الضحى١١) ، وأنتم تقولون : لاتحدّث بنعمة ربّك)(٣)!!.

عبد الله بن غالب هذا الذي كان يقول في دعائه :(اللهم إنّا نشكو إليك سفه أحلامنا ، ونقص أعمالنا ، واقتراب آجالنا ، وذهاب الصالحين منّا)(٤).

ومع كل هذا نحن لاننكر أن هناك نفوسا مريضة تستهويها الأضواء ويطغيها الإطراء ويسكرها الدلال ، فتنتفخ وتغتر وتنتشي ، لكن نحن نعرف أيضا أن :(من سامى نفسه فوق ما يساوي ردّه الله إلى قيمته)، كما قال الإمام الشافعي رحمه الله(٥).

فإن لم يراجعوا أنفسهم ويتوبوا ويستدركوا ، لانقسمت ظهورهم فعلا وانكشف زيفهم وخسروا الجولة وخرجوا من ميدان السباق واستمرت المسيرة بغيرهم، أما الموقف السليم فهو ماعبر عنه العبد الصالح أبو العباس المرسى رحمه الله بقوله:(من أراد الظهور فهو عبد الظهور ، ومن أراد الخفاء فهو عبد الخفاء ، أما عبد الله حقا فهو من إذا شاء الله أظهره ، وإذا شاء أخفاه لا يختار لنفسه ظهورا ولا خفاءً).

كما أنّنا ندرك كذلك أن المرء ـ مع ضرورة التعامل الإيجابي مع دواعي الظهور التي أشرنا إليها ـ لابد أن يكون له حظّه من عمل الخبيئة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :(من استطاع منكم أن يكون له خبء من عمل صالح فليفعل)(صحيح الجامع).

وقال الزبير بن العوام رضي الله عنه :(اجعلوا لكم خبيئة من العمل الصالح كما أن لكم خبيئة من العمل السيئ) ، وعمل الخبيئة هو عمل صالح تقدّمه إلى مولاك لايعلمه إلا هو سبحانه وأنت .

لكن ذلك لايعني بأي حال من الأحوال ترك ساحات العمل واستمراء منطق إذا غابوا لم يفتقدوا ـ الذي يفهم في الكثير من الأحيان بغير مقصوده ـ ، وتغليب منهجية التخفّي والانسحاب ، بحجة الخوف من الرياء والشرك ، فسهل أن يحبس العبد نفسه بين أربعة جدران ، مبتعدا عن ضوضاء العمل الجماعي العلني الملفت للأنظار ، ثم يقول أنني حصلّت الإخلاص وحافظت على النية الصحيحة وأدركت مرتبة التجرّد ، فإن المحك الحقيقي لاختبار الإخلاص، والامتحان الأمثل لمعرفة صدق النوايا من عدمها ، والميزان الأصح لابتلاء التجرد ، هو العمل العام والمخالطة والميدان ، أو ماعبّر عنه الرافعي رحمه الله :(في اللهب ولا يحترق).

فالحذر من الرياء والحرص على الإخلاص مطلوب ، وكذلك مراعاة دواعي الظهور التي أشار إليها الإمام ابن العربي وشيخه أبو منصور الشيرازي رحمهما الله مطلوب كذلك ، والجمع بينهما هو الأمثل.

(١٩) شروط التوثيـق

ذكر الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله في الإحياء أنه :(إذا أثنى على الرجل جيرانه في الحضر (السكن)، وأصحابه في السفر، ومعاملوه في الأسواق ، فلا تشكوا في صلاحه)(١).

تختلف موازين توثيق الرجال من شخص إلى آخر ، حسب الخلفية التي يرتكز عليها ، فيستعمل المعايير التي تتناسب وهذه الخلفية، فهناك من يستعمل المال كمعيار ، وهناك من يستعمل الجاه والنسب، وهناك من يستعمل العلم والمعرفة ، وهناك من يستعمل العمل والسلوك ، وهناك من يستعمل المظاهر والشكل ، وهناك من يستعمل القدرة على الخطابة وتزويق الكلام وتدبيجه وهكذا ، وكل هذه المعايير إما منقوصة أو مغلوطة أو مغشوشة، وقد استعمل البعض أحد هذه المعايير المنقوصة في عهد عمر رضي الله عنه ، فردّه الفاروق إلى المعايير الحقيقية والمتكاملة في التوثيق، فقد شهد عند عمر شاهد ، فقال له : ائتني بمن يعرفك ، فاتاه برجل فأثنى عليه خيرا ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى (الأقرب)الذي يعرف مدخله ومخرجه ؟

قال الرجل: لا، فقال له عمر: كنت رفيقه في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟

قال الرجل : لا ، قال له عمر : فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورع الرجل؟

قال: لا، فقال عمر : أظنك رأيته قائما في المسجد يهمهم بالقرآن ، يخفض رأسه طورا ويرفعه أخرى ؟

قال الرجل : نعم ، فقال عمر : اذهب فلست تعرفه ، وقال للرجل الشاهد : اذهب فأتني بمن يعرفك)(٢).

إن قضية معايير التوثيق وشروطه تعتبر قضية مهمة ، حدثت بجهلها فتن عمياء ، كان يمكن أن نكون بمنأى عنها لو عرفناها وعلمناها وخبرناها وطبقناها بعيدا عن المجاملات والمعاملات البروتوكولية .

وقد ذكر حجة الإسلام الغزالي ثلاثة معايير رئيسية ، وشروط أساسية لتوثيق الرجال ، وجزم أن من استكملها فقد استكمل الصلاح وهي:

- أولها: إذا أثنى على الرجل جيرانه في الحضر :

والجيرة الصالحة من الأخلاق الأصيلة ، ومن أخص ميزات الرجال التي يفضلون بها غيرهم ، فما أكثر من تراهم تحسبهم قد بلغوا الذروة ، فلما تختبرهم في هذا الجانب تجدهم أصفارا ، لذلك كان لحسن الجوار قيمة كبرى عند السلف وكان من المعايير ذات الأولوية التي يوزن بها الرجل عندهم ، فقد روي أن محمد بن الجهم كان جارًا لسعيد بن العاص عاش سنوات ينعم بجواره فلما عرض محمد بن الجهم داره للبيع بخمسين ألف درهم ، وحضر الشهود ليشهدوا ، قال : بكم تشترون مني جوار سعيد بن العاص ؟ قالوا : إن الجوار لا يباع ، وما جئنا إلا لنشتري الدار .

فقال : وكيف لا يباع جوار من إذا سألته أعطاك ، وإن سكتَّ عنه بادرك بالسؤال ، وإن أسأت إليه أحسن إليك ، وإن هجته عطف عليك ؟ فبلغ ذلك الكلام جاره سعيد بن العاص فبعث إليه بمائة ألف درهم وقال له : أمسك عليك دارك.

والعكس كذلك ، إذ كان سوء الجوار سببا في رخص الديار حيث قال شاعرهم:

يلومنني أن بعت بالرخص منزلي ولم يعرفوا جارا هناك ينغص

فقلت لهم كفوا الملام فإنـــه بجيرانها تغلو الديار وترخص

- ثانيها: إذا أثنى عليه أصحابه في السفر :

والسفر محطة مهمة من المحطات التي يوزن بها الرجال ، فالسفر يسفر عن أخلاق الرجال كما قيل ، وكم من رجل يعجبك في مظهره ومعاملته وسلوكه ، حتى تعتقد ويصور إليك أنه من أهل القمم ، بل تعرفه وتعاشره سنين ، وأنت تثني عليه خيرا وتمدح أخلاقه ، وماإن تسافر معه حتى يسقط من عينك ، وتفاجأ بحاله وتعرف حقيقته ، وتدرك أن السفر فعلا يعرّي المرء من كل الأقنعة التي كانت عليه، وتتأكد أن السفر ميزان الأخلاق ، وأنه سمي كذلك :(لأنه يُسفر عن وجوه المسافرين وأخلاقهم فيظهر ما كان خافيا منها)(٣).

وقد أوصى الشاعر الحكيم :

إذا أنت صاحبت الرجال فكن فتى كأنك مملوك لكل رفيـــق

وكن مثل طعم الماء عذب وبارد على الكبد الحري لكل صديق

لذلك كان السلف ـ رحمهم الله ـ يعلمون حق رفيق السفر، فيحسنون صحبته، ويواسونه بما تيسّر لديهم من طعام وشراب، وكان كل واحد منهم يريد أن يخدم أخاه ويقوم بأعماله، لا يمنعه من ذلك نسبٌ ولا شرفٌ ولا مكانة عالية. قال أنس رضي الله عنه :(خرجت مع جرير بن عبد الله في سفر فكان يخدمني وكان جرير أكبر من أنس)(البخاري ومسلم).

وقال مجاهد :(صحبت ابن عمر لأخدمه فكان يخدمني)(ابن أبي عاصم وابن عساكر). وقد قدم أحد السلف لك دليل المسافر ، وسماه مروءة السفر، فقال ربيعة رحمه الله:(المروءة في السفر بذل الزاد ، وقلّة الخلاف على الأصحاب ، والمزاح في غير مساخط الله عزّ وجل).

ـ ثالثها : إذا أثنى عليه معاملوه في الأسواق:

فالورع في المعاملات المالية ، صفة أساسية وشرط ضروري من شروط التوثيق ، فكثيرا ماتغرنا مظاهر أناس وكلامهم ، فإذا عاملناهم بالدرهم والدينار ، ودخلوا السوق تجارا وبائعين ومشترين ومتعاملين ، ذهبت تلك الصورة التي كنا قد رسمناها لهم ، ووجدناهم ذئابا ضارية ، همهم الربح لاغير، على حساب دينهم وأخلاقهم ومبادئهم ، يمارسون الميكيافلية بأبشع صورها ، غاياتهم تبرر وسائلهم ، وإذا لمتهم أو نصحتهم أو نبهتهم ، برّروا منطقهم ومسلكهم هذا بمبررات واهية ، ماأنزل الله بها من سلطان ، ورحم الله الفاروق رضي الله عنه الذي كان قد سنّ قانونا في عهده أنه : (لايبيع في أسواقنا إلا فقيه)، أي يعرف أحكام البيع والشراء ، ويزن كل معاملاته المالية بميزان الشرع ، ويتقي ربه ويخشاه ، ويستحضر رقابته سبحانه عند كل تصرف .

فهذه ثلاثية الشروط لتوثيق الرجال ، والشهادة لهم أو عليهم من خلالها ، لابد أن تتوفر مجتمعة حتى تكتمل الصورة ، ويحكم بصلاح الرجل وأمانته وعفته.

(٢٠) تقاسم الأعباء

يقول الشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله :(الأعمال الكبيرة إذا توزعتها الأيدي وتقاسمتها الهمم، هان حملها وخف ثقلها، وإن بلغت في العظم مابلغت).

إن كثرة الأعمال، وتعدد جبهات التحرك وتوسعها، وثقل المسؤوليات الملقاة على عاتق أبناء الدعوة والحركة، إضافة إلى التمدد الأفقي والعمودي الذي يحدث يوما بعد يوم، مع ضخامة التحديات التي تواجه كل ذلك، إلى جانب المجهودات الكبيرة التي تتطلبها طبيعة الانفتاح الايجابي الذي نتبناه، وتفرضها الإستراتجية التي نعتمدها، كلها أمور تستدعي مشاركة الجميع باختلاف مستوياتهم ومواقعهم، في مجهود جماعي كل حسب طاقته وقدرته وإمكانياته، يتقاسمون فيه الأعباء، ويوزعون الجهود للتغلب على كل العقبات التي تعترض سبيل تحقيق الأهداف وبلوغ الغايات .

أما أن تقتصر الأعمال على عدد محدود من الأفراد، وتتراكم على كواهلهم كل المهام والمسؤوليات، والبقية الباقية معطلة كليلة الأيدي والعقول إلى إشعار آخر، فغير معقول البتة، لأن ذلك يكون على حساب دقة الأداء، ومنهجية العمل وغزارة الإنتاج، بل إن البعض لايكتفي بتهربه وتسلله وإنسحابيته، فتجده لجوجا ماريا ناقدا معترضا، عوض أن يقدر العاملين ويبارك جهودهم إذا عجز هو أو قصر أو امتنع تحت أي مبرر من المبررات، وذلك أضعف الإيمان، ففرق شاسع بين أسلوب بني إسرائيل في النصرة والمعية لما قالوا لسيدنا موسى عليه السلام :(فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)(المائدة٢٤)، وبين طريقة الصحابة عليهم الرضوان لما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم :(اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون).

فهناك للأسف من تحمله الدعوة وتئن منه الحركة بدل أن يحملها ويرتاد بها الآفاق، وتجره وتسحبه وهو حرون بدل أن يدفعها هو ويخفف من أثقالها .

لقد ساهمت التراكمات المختلفة في إضعاف تلك الجذوة حتى لانقول إطفائها، والتي كانت تملأ القلوب حرقة للعمل والفعالية، وتعطي النفوس رغبة في المشاركة في كل مامن شأنه أن يقدم المشروع خطوة إلى الأمام، ويفتح به وله أبوابا كانت مغلقة، ويقتحم به وله كذلك ساحات كانت تجهله، ويلج به نفوسا وقلوبا كانت

إما أنها لاتسمع به إطلاقا أو صورته عندها مشوشة أو مغلوطة، أو ينافح عنه باستماتة ويرد سهام المشككين والمغرضين والمتحاملين .

فما أحوج الدعوة والحركة إلى عودة ذلك التفاني في بذل الجهد، والتنافس الشريف بين جميع أبنائها على الخير والمعروف والعمل في سبيل الله، الذي يعمق الشعور لديهم أن كل واحد منهم على ثغرة من ثغورها، فليحذر أن تؤتى من قبله، فيقفون حراسا أوفياء، يشكلون جدارا متينا وحصنا منيعا، تنكسر دونه كل محاولات الاختراق والتحجيم مهما تطورت وسائلها وتكررت محاولاتها .

فسمو الغاية وجمال الفكرة وأهمية المشروع ووجوب التمكين وعظم المسؤولية وضرورة العمل والتحرك ومشروعية الطموح وارتفاع منسوب الجدية والفعالية والإيجابية، يستدعي منا جميعا كأبناء لهذه الحركة وأوفياء لهذه الدعوة وعشاق لهذه الفكرة وموالين لهذا المنهج ومؤمنين بهذا الخط ومنتمين لهذه الجماعة، أن نتقاسم أعباء العمل مهما بلغ من الثقل والكثرة والاتساع، ويقوم كل منا بواجبه تجاه حركته ودعوته وجماعته، دون أن ينظر إلى ضعف الآخرين وتقصيرهم وفتورهم وفراغهم وبطالتهم وتفرجهم، فالله سائله عن جهده وعمله ورصيده هو:(وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً)(مريم٩٥) .

كما ينبغي أن يستشعر كل واحد منا أنه نائحة ثكلى لامستأجرة في حمله لهم الدين و الدعوة والحركة والأمة وقضاياها، فيبلغ من الشفافية الروحية وعلو الهمة والرغبة الصادقة في القيام بواجباته، أنه حتى في دعائه لله عز وجل أن يسأله تقوية ظهره بدل أن يسأله تخفيف حمله

(٢١) الانفتاح الإيجابي

يقول ابن القيم رحمه الله :(البصير الصادق من يضرب في كل غنيمة بسهم، ويعاشر كل طائفة على أحسن مامعها)(١).

من لايعرف الإمام ابن القيم ، ويقرأ العبارة بسطحية ، يقول أن الرجل يدعو إلى النفاق والانتهازية ، ولكن من يدقق النظر ويقرأ العبارة بتمعّن وتركيز يدرك أنّه رحمه الله قد أبدع قاعدة من ذهب في العمل الدعوي والتربوي والسياسي يحدد فيها ركني الانفتاح الإيجابي والتموقع الفعال، في مرحلة نحن في أمس الحاجة إلى إدراك مثل هذه القاعدة وتجسيدها ميدانيا في أرض الواقع.

ـ الركن الأول :الضرب في كل غنيمة بسهم:

بمعنى استثمار كل الفرص المتاحة على كل المستويات ، والاستفادة منها لصالح الدعوة والحركة ، وعدم ترك الفرصة للآخرين كي ينفردوا ويحتكرونها ، فإن كان للحياة صانعون ، فلابد أن نكون من صنّاعها بل في مقدمة صناعها، ولانبقى على هامش التأثير، نستلذ الحياة في الأبراج العاجية، ونستحسن الانكفاء على الذات ، ونمارس العزلة السلبية بكل أنواعها الشعورية والجسدية والفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية ، ونحن ندرك يقينا أفضلية المخالطة بميزان الله ورسوله ، كما ورد في الحديث :(المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لايخالط الناس ولا يصبر على أذاهم) (رواه الترمذي) ، رغم أن المخالطة قد تعرض صاحبها للأذى أي أن لها ثمن وضريبة لابد أن يدفعها المخالط لكنها تبقى هي الأفضل بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم من العزلة والإنسحابية والانغلاق والتمتع بوضعية غير المهتم أو المتفرج.

كذلك فإنه لا يجوز شرعا ولا عقلا أن نحتكر الخير والمعروف ، ولاحتى الحق والصواب ، لأنه في شرعنا :(لايحتكر إلا خاطئ) (رواه مسلم) ، فالاحتكار بمفهومه الشامل والواسع مرفوض، لقد كان الإمام حسن البنا رحمه الله يقول :(أرأيت إن

كنت تحمل قارورة عطر مغلقة ، هل يستمتع من حولك بطيب ريحها، كذلك الفرد في مجتمعه لايكتفى منه بتقواه وصلاحه ومجموعة الفضائل القاصرة على نفسه ، بل لابد وأن تنفتح على المجتمع ليجد منها الريح الطيب والخلق الطيب والعمل الطيب)، (وقولوا للناس حسنا) (البقرة٨٣)(٢).

أيضا فإن طبيعة الدعوة و الحركة كما عبر عنها المؤسس هي :(روح يسري في هذه الأمة ..) ، فكيف يمكن لهذه الروح أن تسر في أمتها ومجتمعها إذا لم تمارس الانفتاح الإيجابي بكل صوره وأشكاله.

ـ الركن الثاني: معاشرة كل طائفة على أحسن مامعها

وهذا ركن مهم من أركان الانفتاح ، وذلك بأن نمارس المخالطة على أكثر من صعيد، ونوسع دوائر علاقاتنا قدر مانستطيع ، ونعاشر كل الطوائف والفئات والأصناف ، مهما تعدّدت وتنوّعت واختلفت توجهاتها واهتماماتها ، على أحسن مامعها ، أي أن نبني معهم جسورا للتعايش والتفاهم والحوار والتنسيق والتعاون على مامعهم من خير ومعروف وحق وصواب ، مستغلين القواسم المشتركة التي تجمعنا بهم وإن قلّت وضاقت مساحتها لديهم، ونثمن الإيجابي الذي عندهم وننمي جانب الخير في نفوسهم وممارساتهم مهما صغر ، ونضيق دوائر الشر والسوء عندهم مهما كثرت وتعاظمت ، كما يؤكد ذلك سيد رحمه الله :(لن يعدم إنسان ناحية خيرة أو مزية حسنة تؤهله لكلمة طيبة ، ولكننا لانطلع عليها ولا نراها حتى تنمو في نفوسنا بذرة الحب)(٣).

لأن الإنسان لايكون خيرا كلّه ولاشرا كلّه ، بل يكون جامعا بين هذا وذاك بنسب متفاوتة ، فيجب أن يتم التعامل معه وفق هذه النسبية ، ويوضح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذه القضية بجلاء ووضوح حين يقول :(إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر ، بر وفجور ، طاعة ومعصية، سنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر مافيه من الخير ، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب مافيه من الشر ، فيجتمع في الشخص الواحد، موجبات الإكرام والإهانة)(٤).

وكل هذا لايكون في الحقيقة إلا إذا صاحبه زاد تربوي وروحي وفكري كبير يكسب صاحبه مناعة وحصانة قوية تمنعه من التسيب وتحفظه من الذوبان والتأثر السلبي ، وحتى لاينقلب السحر على الساحر ، فإن توفّر هذا الزاد وهذه المناعة ، مارس الانفتاح وتموقع وتوغل في مسالك التأثير والاستيعاب والتوظيف ، وأنت على يقين أن :(المصباح في الموضع النجس لايبعث النور نجسا)، كما قال الرافعي رحمه الله(٥).

(٢٢) ماهـو رصيـد تـأهلك الدعـوي والحركي؟

إن الانتماء الدعوي والالتزام الحركي، لايمكن لكليهما أن تحققه الأمنيات، ولا تثبته الدعاوى والرغبات، فلا يمتن أسسه ويعمق ركائزه ويظهر حقيقته لدى الفرد، ويؤهله لذلك عن جدارة واستحقاق، إلا رصيده العملي الذي يملكه من جهود وتضحيات وإنجازات، كونه بشكل تراكمي على مدى عمره الدعوي والحركي، وما قدمه ويقدمه من دلائل وبراهين يقينية لاتدع مجالا لشاك، ولا تترك فرصة لجاحد ، في فهمه وسلوكه ومعاملاته وأعماله وأفعاله ونشاطاته، هذه الدلائل والبراهين يثبت بها انتماءه، ويحرر بها ولاءه، ويجسد عن طريقها وفاءه.

يصنع بجهده وجهاده مجدا لدعوته تليدا، وحسبا لحركته رفيعا شريفا، يكتسب قيمته في دعوته ومكانته في حركته بقدر مايقدمه لهما من عطاء، يقدم ويؤخر فيهما بقدر رصيده من جلائل الأعمال، وصحائف الجدية والفعالية والإيجابية التي تسبقه وتميزه ويظهر عبقها الطيب وأثرها البين على نفسه وإخوانه ودعوته وحركته ومجتمعه وأمته في كل مكان يحل فيه.

فخير الناس ذو حسب قديم أقام لنفسه حسبا جديدا

فإما أن يكون لاحقا بأهل الفضل والمروءة من الرجال على طريق الدعوة والحركة، فيعمل مثلما عملوا ويبدع مثلما أبدعوا ويثمر مثلما أثمروا ويجتهد مثلما اجتهدوا وينجز مثلما أنجزوا، وإما أن يكون سابقا بالخيرات، فاعلا مالم يفعله الأوائل، محققا ماعجز عنه بعضهم، ويربأ بنفسه أن يكون ماحقا لمجد دعوته، ناسفا لشرف حركته، كالذي قال عن نفسه:

ورثنا المجد عن أباء صدق أسأنا في ديارهم الصنيعا

قال أحمد بن سهل رحمه الله:(الرجال ثلاثة : سابق ولاحق وماحق، فالسابق الذي سبق بفضله، واللاحق الذي لحق بابيه في شرفه، والماحق الذي محق شرف آبائه)(١).

هذا الرصيد على طريق الدعوة الذي ينبغي أن يصاحب كل سالك مخلص صادق لهذا الطريق، هو الذي عناه ابن القيم بقوله:(يامخنث العزم أين أنت والطريق طريق،

تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورمي في النار الخليل، وأضجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس ولبث في السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داوود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد صلى الله عليه وسلم، وتزهو أنت باللهو واللعب)(٢).

وعلى منوال ابن القيم نواصل فنقول: وعلى نفس الطريق سبق وصدق ونصر وأنفق ماله كله الصديق أبو بكر وضرب حتى أدمي، ووقف المواقف العظيمة وأقام العدل وقتل الفاروق عمر، وقدم الصدقات الكبيرة وأستشهد عثمان، وجاهد ونافح وضحى وطعن علي، وترك ماله كله وهاجر صهيب، وعذب ونال صنوف الأذى بلال، وتعرض إلى كل أنواع التنكيل آل ياسر، ووضع في النار أبو مسلم الخولاني، وربط في الشمس أياما سعيد بن المسيب، وجر في أزقة المدينة مالك، وحبس ولوحق أبو حنيفة، وطورد وضويق الشافعي، وأمتحن أحمد، وسجن ومات في سجنه ابن تيمية،وتنسك وعبد وأسال الدمع الفضيل بن عياض، وأجتهد وأعاد العدل عمر بن عبد العزيز، وتحدى أمراء المماليك وظلمهم العز بن عبد السلام، وأبتلي وأمتحن الشاطبي، وحورب ابن حزم، وأسترجع هيبة الأمة وحرر القدس صلاح الدين، وفتح القسطنطينية محمد الفاتح، وجاهد عزالدين القسام، واستشهد حسن البنا، وأعدم سيد قطب، وأمتحن حسن الهضيبي، وحبس عشرات السنين عمر التلمساني، ومات واقفا منافحا عن الإسلام محمد الغزالي، وملأ الأرض علما القرضاوي، وأسس وثابر ولقي ربه شهيدا أحمد ياسين، وتقدم الصفوف وزأر بالحق ونال ماتمنى عبد العزيز الرنتيسي،ورفع الراية وكافح وجاهد الأمير عبد القادر، وعلم وربى وواجه المستعمر عبد الحميد بن باديس، وحوصر وضويق ومات محبوسا في بيته البشير الإبراهيمي، وأبدع أينما حل ومات ملاحقا الفضيل الورتلاني، وطهر البلد من دنس المحتل وأسترجع الكرامة شهداء الجزائر، وأثمر وأينع وأزهر وأورق وصال وجال محفوظ نحناح، وذبح من الوريد إلى الوريد محمد بوسليماني، وأخترق الرصاص جسد أبو جرة سلطاني، وكثير كثير لم أذكرهم ..

فماهو الرصيد الذي تملكه أنت، كي يؤهلك لتكون حلقة من هذه السلسلة الذهبية المباركة؟؟؟ وماهي الصفة التي ترضاها لنفسك، لتكتب بجانب اسمك ضمن كوكبة الرواحل هؤلاء؟؟؟

استفتي قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك، وحدد موقعك بصدق، وراجع ما في جعبتك من أوراق رابحة تكون وقودا لتأهيلك لتنال شرف الإنتماء وفضل الصحبة وفخر الملازمة ووحدة المصير بمعية جميع الرجال الكبار الذين ذكرنا، من النجائب الذين أنجبتهم الأمة على مدار تاريخها ـ ولازالت ولعلك تكون أحدهم ـ فالخير في ساحتها ممتد إلى يوم القيامة بإذن الله تعالى.

وأنت تراجع نفسك، وتتلمس رصيدك المؤهل لذلك وتحاول لملمته، وتتفقد خزانك وما يحتويه من عمل وجد وجهاد، وعبادة وتضحية واجتهاد، حتى تعرف مكانك في موسوعة العز التي ذكرناها .

وأنت تفعل كل ذلك لابد أن تستحضر الأمور التالية :

الأمر الأول:

إياك أن تحقر نفسك، وتقلل من قدراتك، وتستهجن إمكانياتك، وتشرعن لنفسك اليأس والقنوط، وتبرر لها التأخر والتقاعس والانسحاب، وتصنع لها الأعذار، بحجة أين أنا من هؤلاء، وما ترك الأول للآخر شيئا، وأجعل بين ناظريك قول ذلك الحكيم الذي أوضح وقال لك

قل لمن لايرى المعاصر شيئا ويرى للأوائل التقديما

إن ذاك القديم كان حديثا وسيغدو هذا الحديث قديما

فبادر فأنت قادر ـ بعون الله ـ وطريق الألف ميل يبدأ بخطوة، وكن على طريقهم وتأسى بهم، وأجعل سيرتهم نبراسا لك، فقد قيل للحسن :(سبقنا القوم، هم على خيل دهم، ونحن على حمر معقرة)، فقال: (إن كنت على طريقهم، فما أسرع اللحاق بهم)(٣).

فكن إيجابيا كبير الأمل، شديد الطموح، عالي الهمة، وأبذل الجهد، وداوم العمل، وألزم المثابرة، وأكثر الزاد، سوف تنل المكانة، وتترك بصمتك الخيرة وأثرك الطيب على الطريق وما ذلك على الله بعزيز:

فخذ لك زادين من سيـــرة ومن عمل صالح يدخـــر

وكن في الطريق عفيف الخطا شريف السماع كريم النظر

وكن رجلا إن أتوا بعـــده يقولون مر وهذا الأثـــر

الأمر الثاني:

بموازاة عدم احتقارك لنفسك وتشكيكك في قدراتك، وابتعادك عن الروح اليائسة المستسلمة، كذلك ينبغي عليك أن لاتكثر المن بعملك، وتستكثره على دينك ودعوتك وحركتك وأمتك، كما لاينبغي أن يستولي عليك إعجابك بنفسك، وتنسى ذنوبك وتقصيرك، وتحب أن تحمد بمالم تفعل، فإن ذلك محبط للعمل ماحق له نازع لبركته، حائل دون عون الله، حاجز لمعيته وتوفيقه، فاتح الباب على مصراعيه للشيطان، كي يستحوذ عليك، ومن ثم ينحرف بك عن غايتك، ويصرفك عن مبتغاك، ويحرمك اللحاق بقافلة الموفقين التي نتحدث عنها .

وأجعل نصب عينيك دائما تحذير الفضيل بن عياض، وهو ينبهك أنه:(إذا ظفر إبليس من ابن آدم بإحدى ثلاث خصال، قال: لا أطلب غيرها : إعجابه بنفسه واستكثاره عمله ونسيانه ذنوبه)(٤).

الأمر الثالث:

أن تعلم علم اليقين أن الوصول إلى مثل هذه مكانة، لايكون بالأمنيات الفارغة، ولا يتحقق بالدعاوى الجوفاء، فالدعاوى إن لم يكن عليها دليل فأهلها أدعياء

فتحقيق الأهداف النبيلة والغايات العظيمة، وضمان المرتبة العلية عند الله وفي دنيا الناس، والرغبة الصادقة في اللحاق بقوافل الصالحين، يحتاج ممن يريد ذلك، إلى أن يقدم الأدلة البينة والبراهين الواضحة والأمارات الأكيدة، على صدق رغبته وصحة دعواه ونبل مقصده، هذه الأدلة والبراهين التي ينبغي عليك أن تقدمها مهرا لكل ذلك لخصها لك الإمام البنا وهو يقول لك :(إن تكوين الأمم وتربية الشعوب وتحقيق الآمال ومناصرة المبادئ تحتاج من الأمة التي تحاول هذا أو من الفئة التي تدعو إليه على الأقل إلى قوةٍ نفسيةٍ عظيمة تتمثل في عدة أمور:

إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف.

ووفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر.

وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل.

ومعرفة بالمبدأ وإيمان به وتقدير له يعصم من الخطأ فيه والانحراف عنه والمساومة عليه والخديعة بغيره..

وكل شعب فقد هذه الصفات الأربعة، أو على الأقل فقدها قواده ودعاة الإصلاح فيه، فهو شعب عابث مسكين، لايصل إلى خير ولا يحقق أملا، وحسبه أن يعيش في جو من الأحلام والظنون والأوهام:(إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً)(يونس٣٦)(٥).

أما التمني الذي لايصدقه عمل، والإدعاء الذي لايصاحبه دليل، فمردود على صاحبه، وهو رأس مال المفاليس كما قال الإمام علي رضي الله عنه، لأنه يتنافى وقيم العدل والإنصاف، فقد مر الحسن البصري برجل يعبث بالحصى ويدعو :(اللهم زوجني من الحور العين)، فقال له الحسن:(بئس الخاطب أنت، تعبث بالحصى وتطلب الحور)(٦).

فلا مجال لضربات الحظ هنا، كما قال الشاعر:

بقدر الكد تقتسم المعالي ومن طلب العلا سهر الليالي

ومن رام العلا في غير كد أضاع العمر في طلب المحال

فعلى قدر عطائك تتحدد قيمتك، وعلى قدر تضحياتك تكون مكانتك،، أما أن تستلذ الراحة، وينعدم لديك الشعور بالتبعة والمسؤولية، وتغيب عندك الحرقة، وتفقد طعم الجد والتعب والاجتهاد، ويتبلد لديك الحس بحقيقة الإنتماء، وتغلب عليه لديك المزاجية بدل المصيرية، وتنسد عندك شهية العمل وبذل الجهد وكثرة الحركة، وتملأ قاموسك بالأعذار والتبريرات، ومع كل ذلك تكون كثير التردد سريع التلكؤ بطيء الاستجابة ثقيل التفاعل، ثم تطمع في اللحاق بالصالحين، والتخندق مع الرواحل، والوصول إلى القدر العلي عند الله وعند الناس، فهيهات هيهات، فما أنصفت وماهي إلا أضغاث أحلام، سرعان ماتذهب أدراج الرياح، وأسمع إلى الإمام ابن الجوزي وهو يعظك في ذلك:(يامن إذا صلى خفف، وإذا كال طفف، وإذا قيل له تب سوف، وإذا دعي تخلف، ثم يطمع في لحاق الصالحين ن فما أنصف).

في الأخير نقول لك : جدد العزم وقوي الإرادة، وأقتحم العقبة، لتصنع لنفسك رصيدا معتبرا، يؤهلك كي تكون ضمن سلسلة صناع المجد، وأتعب قدمك فكم من تعب قدمك، مستصحبا الأمور الثلاثة التي نبهناك عليها، وأستعن في كل ذلك وقبله وأثناءه وبعده بربك، فسوف يوفقك سبحانه ويتكرم عليك بما تتمنى، (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)(الروم٤).

(٢٣) أصول مواحق الطاعات

إن المؤمن ما خلق إلا لغاية عظيم،وهي أن يعيش في ظلال عبودية الله عز وجل،ويتلمس أسبابها ويوفر لنفسه شروط القيام بها على أحسن وجه،ويوظف كل وسائل الثبات على طريقها،إلى أن يلقى ربه وهو عنه راض غير مبدل ولا مغير، تظهر ثمارها وآثارها في قوله وفعله وخلقه ومعاملته، في سره وعلانيته، في كل حركاته وسكناته، قال تعالى:(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)(الذاريات٥٦).

يقوم المؤمن بكل ذلك،استجابة لأمر الله ، و التماسا لحسن المآل والمصير:(يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ،إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)(الشعراء88،٨٩).

ورغبة في أن يحشر في زمرة أهل العبودية المكرمين في جنات النعيم:(الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً)(النساء٦٩).

عند ذلك يكون قد نال مراده، وحقق أمنيته التي طالما تغنى بها وعمل لها وقدم دلائلها وأعطى عربون النزول بساحتها وهو يردد مع ذلك العاشق الولهان :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

ويحدو مع الآخر المتيم:

أن تدخلني ربي الجنة هذا أقصى ما أتمنى

وهو يدرك أن أعظم الغبن وأسوء الخسران أن يخبره الله في كتابه بأن الجنة التي أعدها لعباده المتقين عرضها السموات والأرض ، ثم لايجد فيها موضع قدم،كما روي أن رجلا من الصالحين قام يصلي بالليل، فمر بقوله تعالى:(وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)(آل عمران١٣٣)، فجعل يرددها ويبكي حتى أصبح ، فقيل له:لقد أبكتك آية مامثلها يبكي ، إنها جنة عريضة واسعة ، فقال: يا ابن أخي وما ينفعني عرضها إذا لم يكن لي فيها موضع قدم.(١).

لذلك تجده حريصا على تقديم الثمن،عاملا بجد على تكوين رصيد كبير من الطاعات،وملء خزائنه بالحسنات، فلا يحقرن من المعروف شيئا ، ينوع مصادر حسناته،ويعدد مجالات طاعاته، يمارس العبودية المطلقة ويصطف في قوافل أهلها،ويربأ بنفسه أن يكون من أهل العبودية المقيدة كما قال ابن القيم رحمه الله:(الصنف الرابع ، قالوا : إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد : الجهاد،وإن آل إلى ترك الأوراد ، من صلاة الليل وصيام النهار ، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض ، كما في حالة الأمن .

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلا القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب،وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل .

والأفضل في أوقات السحر الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار .

والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل،الإقبال على تعليمه والاشتغال به .

والأفضل في أوقات الأذان ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن .

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه،والمبادرة إليها في أول الوقت،والخروج إلى الجامع،وإن بعد كان أفضل .

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال، الاشتغال بمساعدته وإغاثة لهفته وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره ،أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك .

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثار من التعبد ، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد ، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين ..

والأفضل في العشر الأخير من رمضان لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم ، وإقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء .

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته ، وحضور جنازته وتشييعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك .

والأفضل في وقت نزول النوازل و أذاة الناس لك، أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم ، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه .

والأفضل خلطتهم في الخير ، فهي خير من اعتزالهم فيه ، واعتزالهم في الشر ، فهو أفضل من خلطتهم فيه ، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم .

فالأفضل في كل وقت وحال إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال ، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه .

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق ، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد ، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته ، فهو يعبد الله على وجه واحد ، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت ، فمدار تعبده عليها ، فهو لا يزال متنقلا في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى ، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره ، فإن رأيت العلماء رأيته معهم ، وإن رأيت العباد رأيته معهم ، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم ، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم ، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم ، فهذا هو العبد المطلق ، الذي لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذتها وراحتها من العبادات ، بل هو على مراد ربه ، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه ، فهذا هو المتحقق بـ(إياك نعبد وإياك نستعين) حقا ، القائم بهما صدقا ،

ملبسه ما تهيأ ، ومأكله ما تيسر ، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته ، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليا ، لا تملكه إشارة ، ولا يتعبده قيد ، ولا يستولي عليه رسم ، حر مجرد ، دائر مع الأمر حيث دار ، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه ، ويدور معه حيث استقلت مضاربه ، يأنس به كل محق ، ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع ، وكالنخلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكها ، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله ، والغضب إذا انتهكت محارم الله ، فهو لله وبالله ومع الله ، قد صحب الله بلا خلق ، وصحب الناس بلا نفس ، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين ، وتخلى عنهم ، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها ، فواها له ! ما أغربه بين الناس ! وما أشد وحشته منهم ! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به ، وطمأنينته وسكونه إليه ! ! والله المستعان ، وعليه التكلان)(٢).

كلما سمع أو رأى أو دعي إلى باب من الخير والمعروف والطاعة والعمل الصالح يزود به الرصيد ويثقل به الميزان ويملأ به سجل صاحب اليمين، هرع إليه ولبى النداء وشمر على ساعد الجد من غير كسل أو تقاعس أو تلكؤ أو تثاقل أو تأخر ، ونال نصيبه من الأوائل، يتتبع مواسم الخيرات ومحطات التزود الإيمانية التي يكرم الله بها عباده ، فيستثمر فيها بجد ويستغل زيادة الكرم الإلهي فيها ويزداد كيل بعير ،

يرفع شعار الصالحين الذي يقول:

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل خافقة سكـــون

ولا تغفل عن الإحسان فيها فلا تدري السكون متى يكونُ

وإن درت نياقك فاحتلبها فما تدري الفصيل لمن يكون

وإن ظفرت يداك فلا تقصر فإن الدهر عادته يخـــون

وبعد أن يحقق كل هذا الفضل ، ويكون كل هذه الثروة ، يأتي عليه واجب أكبر ومهمة أعظم ألا وهي تسييج رصيده من الطاعات والحسنات والعمل الصالح وحمايته من الآفات ، وضمان وصوله إلى الله عز وجل سليما معافى من كل عوارض الإحباط ، محفوظا من كل طوارق الإفساد ، محفوفا بكل شروط ومسببات القبول، وصيانته من

المواحق والمحبطات التي إن طرأت عليه وخالطته ، جعلته في مهب الريح مهما عظم وكثر ، ونزعت بركته وحولت بوصلته ، ليصبح وبالا على صاحبه ، فيتحول من طوق نجاة وسعادة ،إلى دليل إدانة وسبب شقاء ، بعد أن كان حجة للعبد وجواز عبور به إلى الجنة ، يصبح حجة عليه وسائق له إلى النار والعياذ بالله.

فإن ضمن العبد قبول ولو جزء يسير من عمله من دون محبطات و مواحق فقد أفلح ،قال فضالة بن عبيد رحمه الله :(لأن أعلم أن الله تقبل مني مثقال حبة ، أحب إلي من الدنيا و مافيها)(٣).

وقد حذرنا المولى عز وجل من هذا الأمر الخطير ، ونبهنا إلى ضرورة التيقظ له ، والعمل على النجاة من عواقبه، وتجنب أسبابه ومسبباته، فقال تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ)(محمد٣٣).

وقال أيضا:(أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)(الحجرات٢).

وقال أيضا:(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً)(الفرقان٢٣).

وإن مواحق الطاعات ومحبطات الأعمال ومواحي الحسنات وموانع القبول كثيرة ولكن أصولها بالنسبة للمؤمن تحديدا ثلاثة وهي:

١) ـ الريـــــاء:

وهو أشد هذه المواحق وأخطرها، وأحد أصولها الذي تنبني عليه بقيتها، إن دخل الطاعة محقها ، وإن خالط العمل الصالح أفسده، وإن صاحب الحسنات ذهب بها ، وهو أحد أنواع الشرك الذي قال الله فيه:(وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)(الزمر٦٥).

وقد سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر والشرك الخفي ، فعن محمود بن لبيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(إن أخوف ماأخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا : ومالشرك الأصغر يارسول الله؟، قال: الرياء، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم ، إذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء)(أحمد والبيهقي).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عليه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتذاكر المسيح الدجال، فقال: ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟ ، قلنا: بلى يارسول الله ، قال: الشرك الخفي ، أن يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل)(ابن ماجة والبيهقي).

فالرياء من أخطر المواحق التي بسببها يرد الله عمل العبد عليه مهما عظم، ويتركه ولا يبالي به، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تعالى:(أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه غيري معي تركته وشركه)(مسلم).

وقال الجنيد رحمه الله:(لو إن عبدا أتى بافتقار آدم وزهد عيسى وجهد أيوب وطاعة يحيى واستقامة إدريس وود ا لخليل وخلق الحبيب ،وكان في قلبه ذرة لغير الله ،فليس لله فيه حاجة)(٤).

لذلك فإن الرياء أكثر مايجفل الصالحين ويخيفهم ، حيث كان في عرفهم وقاموسهم من المهلكات التي لاتبقي ولاتذر، قال حامد اللفاف رحمه الله:(إذا أراد الله هلاك إمريء عاقبه بثلاثة أشياء : يرزقه العلم ويمنعه العمل، يرزقه صحبة الصالحين ويمنعه معرفة حقوقهم ، يفتح عليه باب الطاعات ويحرمه الإخلاص).

وهو كذلك عندهم من دواعي اضمحلال الأعمال، قال الربيع بن خثيم رحمه الله:(كل مالا ينبغي به وجه الله يضمحل)(٥).

كما أنه عندهم من رذائل العجز، قال الشيخ الغزالي رحمه الله:(إلى جانب قصور الهمم ووهن المناكب وضعف الإدراك ، وما إلى ذلك من رذائل العجز .. نجد رذيلة أخرى إذا لحقت بالأقوياء شانتهم وحطمتهم ، وهي سوء النية أو بتعبير أدق غش النية.

إن القصد المد خول يجعل الرجل يأتي عمل الأخيار ، وهو بضميره بعيد عنهم ، فيخرج منه ضعيفا لايصل إلى هدفه أو منحرفا لاينتهي إلى موضعه.

ثم إن صاحب هذا العمل محسوب على قوى الإيمان والإخلاص ، في حين أنه دسيسة مقحمة فيها ، أو هو في الحقيقة جرثومة تعمل ضدها وتثير داخل كيانها العلل..)(٦).

والأشد من ذلك كله في باب الرياء ومحقه للطاعات حديث الثلاثة الذين أول من تسعر بهم النار ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليهوسلم قال: (إن أول الناس يُقضى عليه، رجل استشهد فَأَتى به فعرَّفه نِعمهُفعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدتُ. قال: كذبت ولكنكقاتلت لأن يُقالَ جَريء، فقد قيل، ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى ألقِيَ فيالنار. ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن فأُتى به فعرفه نعمه فعرفها،قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمتُ العلم وعلمتهُ وقرأت فيك القرآن. قال:كذبت ولكنك تعلمت العلم ليُقالُ عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقدقيل، ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسَّعَ الله عليهوأعطاه من أصناف المال كُلِّه، فأُتى به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملتفيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك.

قال :كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جَوَاد. فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثمألقي في النار)(مسلم).

لذلك فإن العبد المؤمن دائم الحذر من الوقوع في الرياء، دائم التفتيش في أغوار نفسه ، دائم المرابطة على أبواب قلبه لئلا يلج إليه، دائم الحراسة لثروته الإيمانية من الطاعات لئلا يتسلل إليها فيمحقها ويحبطها ويورثه البوار والخسران ، إلى أن يلقى ربه وهو على هذه الحال من التيقظ ، قال الحارث المحاسبي رحمه الله:(ومن علم شدة حاجته إلى صافي الحسنات غدا يوم القيامة ،غلب على قلبه حذر الرياء وتصحيح الإخلاص بعمله، حتى يوافي الله تعالى يوم القيامة بالخالص المقبول ، إذ علم أنه لايخلص إلى الله جل ثناؤه إلا ماخلص منه، ولايقبل يوم القيامة إلا ماكان صافيا لوجهه لاتشوبه إرادة شيء بغيره)(٧).

أو ماسماها ابن القيم رحمه الله في مدارجه منزلة الإشفاق والتي شرحها بقوله:(.. وإشفاق على العمل : أن يصير إلى الضياع ،أي يخاف على عمله أن يكون من الأعمال التي قال الله فيها :(وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)، وهي الأعمال التي كانت لغير الله ، وعلى غير أمره وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويخاف أيضا أن يضيع عمله في المستقبل ، إما بتركه ، وإما بمعاصي تفرقه وتحبطه ، فيذهب ضائعا ، ويكون حال صاحبه كالحال التي قال الله تعالى عن أصحابها:(أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات) الآية،

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للصحابة رضي الله عنهم : فيمن ترون هذه الآية نزلت ؟ فقالوا : الله أعلم ، فغضب عمر ، وقال : قولوا : نعلم ، أو لا نعلم ، فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، قال : يا ابن أخي قل ، ولا تحقرن نفسك ، قال ابن عباس : ضربت مثلا لعمل ، قال عمر : أي عمل ؟ قال ابن عباس : لعمل ، قال عمر : لرجل غني يعمل بطاعة الله ، فبعث الله إليه الشيطان ، فعمل بالمعاصي حتى أغرق جميع أعماله) (٨).

وسألت السيّدة عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم :على من يصدق قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ

رَاجِعُونَ)(المؤمنون٦٠).أَهُمْ الذين يسرقون ويزنون ويشربون الخمر وهم يخافون من الله ؟ فقال:(لا يا بنت الصديق ،ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون ويخافون ألا يتقبل منهم)(الترمذي وابن ماجة).

وللمرائي علامات يعرف بها ذكرها الإمام علي رضي الله عنه بقوله:(للمرائي ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده وينشط إذا كان في النّاس ، ويزيد في العمل إذا أثني عليه وينقص إذا ذُمَّ)(٩).

فالرياء أصل أصول مواحق الطاعات ، ورائد كل محبطات الأعمال ، من عالجه ووفر أسباب الوقاية منه نجا، ومن وقع في حبائله وأستسلم له واستلذه هلك.

٢) ـ ذنوب ومعاصي الخلوات:

ثاني أصل من أصول المواحق والمحبطات ، انتهاك محارم الله في الخلوات ، بحيث ترى العبد في ظاهره فإذا هو حريص على الطاعة مداوم عليها بشتى أنواعها ، منخرط في صفوف الصالحين ، مقبل على كل أبواب الخير والمعروف ، يعب منها عبا، شغوف بكل عمل صالح مهما صغر، ولكنه إذا خلا بنفسه واختفى عن أعين الرقيب من البشر ، تجرأ على الآثام ونزع لباس الحياء ووقع في الحمى ، وتخلص من قناع الورع والتقوى والخشية وانتهك محارم الله وتجاوز الخطوط الحمر ، وتخلص من ربقة الصلاح وغرق في براثن الرذيلة حتى النخاع، مستمرئا المعصية ، غافلا عن مراقبة مولاه ، جاعله أهون الناظرين إليه ، مستهترا وغير آبه بالرقيبين الملازمين من الملائكة ، طاويا لصفحة الإيمان ولو لفترة مؤقتة ، فيكون ذلك سببا في فري طاعته فريا ومحقها محقا ، وجعلها هباء منثورا.

هذا المآل السيئ والمصير المرعب يصوره لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم محذرا وناصحا ومبينا العاقبة الوخيمة لهذا الفعل ـ المداومة على ذنوب الخلوات ـ يوم القيامة ، ومحوه لرصيد الصالحات مهما كثرت ، وهدمه لجبال الحسنات مهما عظمت ،ومحقه لخزان الطاعات مهما كان ممتلئا ، وإحباطه لصندوق الأعمال مهما

كان عامرا، ويحشر العبد بعد ذلك خالي الوفاض ، فارغ اليدين ، فاقدا لأسباب النجاة بعد ظنه أنه قد أحسن صنعا،

عن ثوبان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا ، قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ، قَالَ : أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا)(سنن ابن ماجه).

ماأخطر ذنوب الخلوات ، وما أبشع معاصي السر ، وما أشد آثام الإنفراد، أعمال أمثال جبال تهامة تجعلها هباء منثورا ، وتردها قاعا صفصفا ،إضافة إلى أنها تهتك الستر وتورث الفضيحة ، كما قال ابن القيم :(للعبد ستر بينه وبين الله ، وستر بينه وبين الناس، فإن هتك الستر الذي بينه وبين الله ، هتك الله الستر الذي بينه وبين الناس).

لذلك نفقه لماذا كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم:(أسألك خشيتك في الغيب والشهادة)(جزء من حديث رواه أحمد والنسائي).

فالنجاة كل النجاة ، والسلامة كل السلامة أن ترافق العبد خشية الله ومراقبته في الغيب والشهادة ، في السر والعلانية ، في الظاهر والباطن ، في الخلطة والخلوة، فإن وفقه الله لذلك وثبته عليه وختم له به ، فليتأكد من علو مقامه عنده في الدارين كما قال ابن عطاء:(إذا أردت أن تعرف عند الله مقامك ، فأنظر فيما أقامك).

فقمة الخسران أن يكيل العبد بمكيالين بين ظاهره وباطنه ، بين الناس وخالقه ، فيظهر لهم الصالح من أعماله ، فإن هو اختلى بربه بارزه بالمعاصي ، كما قال ابن الأعرابي:(اخسر الخاسرين من أبدى للناس صالح أعماله وبارز بالقبيح من هو اقرب إليه من حبل الوريد)(١٠).

ولخطورة هذا الأمر على عمل المؤمن ، كان الإمام أحمد رحمه الله يستحسن قول الشاعر ويكثر من ترديده:

إذا ماخلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعـــة ولا أن ما نخفيه عنه يغيبُ

فمنتهك المحارم في الخلوات لايخرج من اثنين ، إما أنه جريء على ربه ، وإما أنه مستهزئ به ـ والعياذ بالله ـ ، قال سليمان بن عبد الملك لحميد الطويل): عظني، فقال له: إن كنت عصيت الله وظننت أنه يراك فلقد اجترأت على رب عظيم ، وإن كنت تظن أنه لايراك فلقد كفرت برب كريم).

يفعل المنتهك ذلك وهو يعلم يقينا . وإن غفل وكابر . أن الله مطلع عليه ، قال سبحانه:(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)(الإسراء١٧).

وقال أيضا:(وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)(البقرة٧٤).

ويقول :(أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)(البقرة٧٧).

ويقول:(أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ)(التوبة٧٨).

ويقول:(يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً)(النساء١٠٨).

ويقول:(وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ)(فصلت٢٢و٢٣).

فإذا ماخلوت بريبة في ظلمة والنفس داعية إلى الطغيان

فاستحيي من نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني

ونستحضر في هذا المجال ذلك الحس الرقابي المرتفع والخشية المتأصلة لتلك الجارية المؤمنة ، والتي كانت تدرك عواقب ذنوب الخلوات ، لما اختلى بها رجل منطمس البصيرة غافل عن رقابة مولاه ، غلبته وطغت عليه شهوته قائلا ومراودا لها: لايرانا إلا الكواكب، فقالت له: وأين مكوكبها.

لذلك كانت درجة الإحسان أعلى من درجتي الإسلام والإيمان ، (قال: فأخبرني عن الإحسان. قال أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)(رواه مسلم. من حديث طويل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه).

ولذلك أيضا ندرك سبب علو مرتبة الذين يخشون ربهم بالغيب ، وسمو منزلتهم وسر تكريم الله لهم بمغفرته وعفوه ورضاه وجنته، وكثرة تأكيده على هذه الخصلة المباركة في كتابه الكريم،

قال تعالى:(إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)(يس١١).

وقال أيضا:(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)(الملك١٢).

وقال أيضا:(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)(ق ٣١ ـ ٣٥).

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى فقد عزّ في الدارين واستوجب الثنا

فإن خالف الإعلان سراً فما له على سعيه فضل سوى الكدّ والعنا

٣) ـ أذى الناس وظلمهم والتعدي على حقوقهم:

الأصل الثالث من أصول مواحق الطاعات ومحبطات الأعمال ، الإمعان في أذى الناس وظلمهم والاستطالة في إعراضهم والتعدي على حرماتهم وحقوقهم وأموالهم ، فإن ذلك من شأنه أن يؤدي بصاحبه إلى درجة الإفلاس في الآخرة، وإن قدم على ربه بملء الأرض طاعة ومعروف وعمل صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال صلى الله عليه وسلم:(إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا،

فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)(رواه مسلم).

قال النووي :(المفلس هو الهالك الهلاك التام ،و المعدوم الإعدام المُقْطِع ،فتُأخذ حسناته لغرمائه ،فإذا فرغت حسناته ،أُخذ من سيئاته فوضع عليه ثم أُلقيَّ في النار فتمت خسارته وهلاكه وإفلاسه)(١١).

فالغبن كل الغبن أن يتعب العبد في تحصيل الطاعات وجني الحسنات ، ثم بعد ذلك يهديها في طبق من ذهب إلى الآخرين ، فتكون سبب نجاتهم وتثقيل ميزانهم ودخولهم الجنة، ويتخلصون من سيئاتهم وتطرح عليه ثم تطرحه في النار ، والله إنها لصفقة خاسرة وتجارة فاسدة بأن يبادل المرء الطيب من حسناته والصالح من أعماله، بالخبيث من سيئات غيره والطالح من أعمالهم، ثم يكون مصيرهم بها النعيم ومآله الشقاء .

فالعاقل من كان بخيلا بحسناته ، شحيحا بطاعاته ، ضنينا بأعماله الصالحة عاضا عليها بالنواجذ ، إلى أن يلقاها كماهي عند مولاه يوم القيامة، أما السخي بها المبعثر لها بسبب أذاه للآخرين والولوغ في أعراضهم وأكله لأموالهم بالباطل وإطلاق لسانه في الانتقاص منهم والتماس عيوبهم وغفلته عن عيوب نفسه ، فإنه أحرى أن يقدم على الله يوم الحساب مفلسا معدما .

فالاشتغال بمالايعني المرء ولا يفيده بل يضره ويقضي على مكتسباته من الحسنات هو علامة من علامات إعراض الله على العبد وخذلانه له، كما قال الحسن رحمه الله:(من علامة إعراض الله على العبد ، أن يجعل شغله فيما لايعنيه).

وقال معروف رحمه الله:(كلام العبد فيما لايعنيه خذلان من الله عز وجل).

فالمشتغل بعيوب الناس الغافل عن عيوبه دائر بين مرتبتي الإعراض والخذلان، وكلاهما مصيبة المصائب.

فلا تلتمس من مساوي الناس ماستروا   فيكشف الله سترا من مساويكا

وأذكر محاسن مافيهم إذا ذكــــروا   ولاتعب أحدا منهم بما فـــيك

فالوقوع في الناس مهلكة لدين العبد ، مفسدة لطاعاته ، محرقة لحسناته، كما قال سفيان رحمه الله:(إياك والغيبة ، إياك والوقوع في الناس فيهلك دينك).

كما أنه ذنب عظيم يورد صاحبه سوء المصير وإن كان من أهل الطاعات ، عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(الربا اثنان وسبعون بابا أدناها مثل أن إتيان الرجل أمه، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه)(السلسة الصحيحة).

وقد كتب رجل لابن عمر رضي الله عنهما يسأله عن العلم ، فكتب إليه ابن عمر:(إنك كتبت تسألني عن العلم ،فالعلم أكبر من أكتب به إليك ، ولكن إن استطعت أن تلقى الله كاف عن أعراض المسلمين ، خفيف الظهر من دمائهم ، خميص البطن من أموالهم ، لازما لجماعتهم فأفعل)(١٢).

فهذه أصول المواحق إن سلطت على الطاعة محقتها ، وإن أصابت العمل الصالح أحبطته وذهبت به أدراج الرياح ، وإن تسللت إلى الحسنات جعلتها هباء منثورا.

فليكن المؤمن على حذر وليحصن نفسه ضدها ، ويشدد الحراسة على أبواب قلبه وجوارحه ، وليكن يقظا لها أشد اليقظة، شديد المحاسبة لنفسه ، مستحضرا دوما رقابة الله سبحانه له ، دائم اللجوء والتضرع والانكسار إليه ، ليعينه على النجاة منها ، ويسدد خطاه ويحفظه في السر والعلن ، حتى لايسقط في بئر بوار.

(٢٤) الواقعية الدعوية

إن الدعاة إلى الله وهم يتحركون بدعوتهم في دنيا الناس ، لابد أن تصاحبهم الواقعية في كل خطواتهم ، نظرا للعقبات الكثيرة والعراقيل العديدة والأحداث الجسام التي يفرزها الواقع المتغير والمتحرك ويتمخض عنها كل حين ، والضخ الفكري والإعلامي والثقافي والسياسي والإجتماعي والإقتصادي الذي يصاحب كل ذلك، والأزمات التي تتوالد بشكل مستمر ، وتأثير ذلك على الدعوة والدعاة مما يحتم عليهم أن يتعاملوا معه بواقعية وموضوعية ، واقعية في التفكير ،واقعية في التصور، واقعية في التحرك، واقعية في التعامل ، واقعية في السلوك ، لأن الإتكال على الخيال والمنى بضاعة المفاليس ، فلاينبغي الطيران بغير جناح ، ولاالسباحة في غير ماء ، ولامعالجة الأمراض المستعصية بالإسبرين ، فإن ذلك لايجدي نفعا ، بل يكون محل سخرية وإستهزاء ، كحال الرجل الذي جاء لإبن سيرين فقال له: إني رأيت نفسي في المنام أطير بغير جناح وأسبح في غير ماء ، فقال له إبن سيرين : إنك رجل كثير الأماني).

فماذا تعني الواقعية التي تكون لازمة للدعاة وضرورية للدعوة ؟

الواقعية :أن توازن بين الطموحات والإمكانيات، بين ماتصبو إليه وماتقدر عليه فلا تتورط في امور لاتعد لها العدة ولم تهيء لها الوسائل المناسبة ولاتملك الأدوات الكافية لتحقيقها، وهو ماعناه المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله:(إ ياك ومايعتذر منه)(الحاكم والبيهقي)، والحديث الآخر:(لاينبغي لمؤمن أن يذل نفسه \"قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: \"يتعرض من البلاء لما لا يطيق \" (رواه ابن ماجة وأحمد عن حذيفة، والترمذي).

الواقعية: أن تدرك أن التمكين للمشروع الدعوي الذي تحمله وضمان القبول للدعوة من طرف الآخرين ، لايكون بالهتاف الهائج ولابالسان السليط ولا بالعواطف الطاغية ولابالشعار المخدر، لأن من غذى نفسه واتباعه بالشعارات حصد الأزمات ، إنما يكون التمكين بالخبرة والقدرة والتفوق والإستبصار والحكمة والعمل النافع الجاد

والوفاء الثابت والتضحية العزيزة ، وهذا لايستطيعه أصحاب الأماني الزائفة والخيالات الكاذبة.

الواقعية: أن تتكيف مع المرحلة التي تفرض على الدعوة أن يعلو فيها صوت العقل على صوت العاطفة ، وحجة الفقيه على جلجلة الخطيب ، ومنطق المفكرين على مشاعر المتحمسين ، وأن يتقدم فيها من هو أنضج فكرا لامن هو اطول لسانا ، وأن تزن أعمالها وتحركاتها وفقا للأحكام الشرعية الفسيحة ومصلحة الأسلام الذي تعمل له والمشروع الذي تسعى إلى تحقيقه ، لاإستجابة لشعور وقتي ولاإرضاء لحماسة العامة وأهواء الخاصة ، فالدعاة ليسو فنانين يقدمون مايطلبه المستمعون.

الواقعية :أن تقدر للرجل قبل الخطو موضعها ، وتخشى أن تضعها على أرضية رخوة أو هشة أو ملغمة، يقطف ثمارها من يرصدها ويوجهها إلى مبتغاه وبأقل التكاليف ، فالدعاة والدعوة أكبر من أن يتلاعب بهم ذوو الأهواء والمصالح ، فالمنبت لاأرضا قطع ولاظهرا أبقى.

الواقعية: تعني أن الدعوة ليست طلقة فارغة تحدث دويا ولاتصيب هدفا ، إنها نور في الفكر وزيادة في الخير وأصالة في العلم وهداية للحيارى وحب للآخرين وحرص وشفقة عليهم وكمال في النفس ونظافة في الجسم وسماحة في المعاملة ودماثة في الأخلاق

وإشعاع للجمال وإبداع في الإنجاز وصلاح في العمل ونظام يرفض الفوضى ونشاط يحارب الكسل وحياة وجد وجهاد في كل ميدان ، وقبل ذلك ومعه وبعده إرضاء لله وحرص في ثوابه ورغبة صادقة في جنته.

الواقعية: أن تقول للمحسن أحسنت وإن كان من ألد أعدائك وخصومك، وللمسيء أسأت وإن كان أقرب الناس إليك ، ولايكن حالك كالذين وصفهم الشاعر:

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا عني وماسمعوا من صالح دفنوا

جهلا علينا وجبنا على عدوهمو لبئست الخلتان الالجهل والجبن

الواقعية :أن تعلم أن النصر في حلبة الصراع لايكون بعاطفة ساخنة يتحرك بها شخص أو يستفز بها جمهور ، فربما كان سقوط المشاريع وفسادها وإضمحلال الأفكار وإصابتها في مقتل ناشئا عن مشاعر حارة وراء أفكار مرفوضة.

الواقعية :أن لاتصور دعوتك ومشروعها دموي المزاج شرس المسلك ، يؤخر اللطف ويقدم العنف، يهتم بقص الأظافر والأشعار أكثر مما يهتم بقص زوائد الأنانية والغرور والكبر والحسد والبغضاء والإنحراف والفساد، ويغمط الناس حقهم ويبخسهم أشياءهم.

الواقعية: أن تراع قوانين الله في كونه وسننه في الحياة ، كما تراعي أحكامه في شرعه ، أن تتبن سياسة النفس الطويل والصبر الجميل والخلق الأصيل والعمل الجليل ، أن تصبر على البذرة حتى تنبت وعلى النبتة حتى تورق وعلى الورقة حتى تزهر وعلى الزهرة حتى تثمر وعلى الثمرة حتى تنضج وتينع ويحين قطافها ، وتؤتي أكلها بإذن ربها ، فلايمكنك قطف ثمارك حصرما ، ولاأن تجن من الشوك العنب كما يقولون. فهل أدركنا المقصد من الواقعية الدعوية التي نريدها أن تكون حاضرة في قاموس الدعاة ومجسدة في عملهم بعيدا عن التفريط والإستسلام والإمعية وإخضاع الدعوة وثوابتها من دون علم والوقوع تحت ضغط الأحداث حتى نصل إلى التمييع وفقدان الهوية و التميز ، فالواقعية التي نقصدها بضوابطها وتأصيلها الشرعي المتحررة من كل عوامل ذهاب الريح المؤدي إلى الإتلاف : (فالظروف تستطيع تكييفنا ، ولاتستطيع ـ بإذن الله إتلافنا) كما قال العلامة إبن باديس رحمه الله.

(٢٥) السلبيــون

يقول الرافعي رحمه الله:(فهم(أي السلبيون) يأخذون السياسة مأخذ من لايشارك فيها ، ويتعاطون الجدّ تعاطي من يلهو به، ويتلقّون الأعمال بروح البطالة ، والعزائم بأسلوب عدم المبالاة، والمباحثة بفكرة الإهمال ، والمعارضة بطبيعة الهزء والتحقير، وهم كالمصلين في المسجد ، فمثّل نفسك نوعا من المصلين إذا إصطفوا وراء الإمام ، تركوه يصلي عن نفسه وعنهم وأنصرفوا)(١).

إن السلبية داء فتّاك ، إذا إنتشر في أمة أو جماعة أو حركة ، زعزع كيانها وفكّك أوصالها وهدّ أركانها ، وجعلها إمعة في فكرها وعملها ومواقفها، وتسبب في تخلفها وإندحارها إلى المراتب الأخيرة في ميادين الصراع والمدافعة والمنافسة .

والسلبيون كلما زاد عددهم في الصف كلما ضاقت مساحات الإيجابية ، وإندثرت معالم الجدية ، وغابت مظاهر الفعالية ، وإنحسرت القدرة على الإبداع ، وتوقفت مسيرة التطوير ، وتقلصت معاني التضحية والثبات ، وإنتشرت ظواهر الفتور والكسل والتقاعس واليأس والتساقط والبرودة والفشل .

وقد حدد الرافعي رحمه الله بعض أهم صفاتهم:

١) ـ يأخذون السياسة مأخذ من لايشارك فيها:

أي لايتفاعلون مع الأحداث ،ولايلقون إهتماما لما يجري من حولهم ، كأن الأمر لايعنيهم ، ومن ثم يعيشون كمّا مهملا، هامشيوا التأثير ، بل منعدميه، شهود كغياب ، يتعاملون بمنطق جحا لمّا قيل له : إن الحريق قد شب في قريتكم ، قال : المهم أن لايكون في بيتنا ، قيل له : إن الحريق في بيتكم ، قال : المهم أنني لست في البيت .

٢) ـ يتعاطون الجد تعاطي من يلهو به:

أي أن الجد لايعرف لساحتهم طريق ، بحيث يتعاطون مع كل القضايا مهما كانت جديتها وأهميتها ، بسطحية مفرطة، ولهو طفولي عابث ،حياتهم هزل في هزل ،فلا أثر لمظاهر الجدية في كل مايقومون به ،، هذا إن كانوا يقومون بشيء أصلا، لذلك تجد أن الأحداث تتجاوزهم دوما ، وتبتلعهم في كثير من الأحيان .

٣) ـ يتلقّون الأعمال بروح البطالة :

أي أنهم لايقومون بواجب وإن صغر، ولايقدمون عملا إيجابيا وإن قلّ ، ولايحققون إنجازا وإن كان بسيطا ، يستلذّون البطالة والقعود، يستمرؤون الراحة ، شعارهم ناموا فمافاز إلا النوّم ، ديدنهم فراغ في فراغ في فراغ.

٤) ـ يتلقون العزائم بأسلوب عدم المبالاة:

أي لاأثر للعزيمة في قاموسهم، حتى وإن تعرضت لهم العزائم من الأمور قابلوها بعدم الإكتراث واللامبالاة ، وواجهوها بعدم الإستجابة وإنعدام التفاعل، يبحثون عن الرخص والترخص ، ويجفلون من العزيمة وإن كانت قطعية الثبوت قطعية الدلالة.

٥) ـ يتلقون المباحثة بفكرة الإهمال:

أي أنهم مهملون غافلون ، لايبحثون في شيء ، ولايتباحثون في أمر أو مع أحد، ولايهمهم مايتباحث حوله الآخرون ، تقليديو التفكير ، إمعيو المواقف، منعدمو الطموح ، سافلو الهمة ، يتهيبون صعود الجبال ، قانعون بالعيش الدائم بين الحفر، يائسون من المعالي ، بعيدون عنها وعن أهلها ، بل عن أبسط أبجديات بلوغها.

٦) ـ يتلقون المعارضة بطبيعة الهزء والتحقير:

أي بلغة عصرنا أنهم دائما مع الواقف، إكتسح قلوبهم ظلام اليأس والإحباط، حتى جعلهم يتعاملون مع كل رأي معارض وإن كان إيجابيا مفيدا بروح منهزمة فاشلة ، لاتحسن إلا الهزء والتحقير ،لايؤمنون كثيرا بنظرية العلاقة بين الأحلام والحقائق التي تحدث عنها الإمام البنا رحمه الله، يكبّلون أنفسهم بعدم الوثوق في قدراتهم وإمكانياتهم ، ويوثقونها بضعف شخصيتهم ، ولايتصورون أنهم يملكون شيئا يمكن أن ينفع الناس، لذلك تجدهم لايشاركون برأي ، ولايساهمون بفكرة ، ولا يتقدمون بمقترح ، إتّكاليون في تفكيرهم وفي عملهم وفي نشاطهم وفي مواقفهم . ثم ذكر لهم - أي السلبيون - في الأخير صفة جامعة تشمل كل الصفات التي تقدمت ، وهي أنهم ينسحبون من الميدان كلية ،وينصرفون عن الميدان نهائيا ، وينعزلون عن العمل والنشاط بشكل دائم ، ويتركون الفرصة والزمان والمكان للآخرين، يقررون بدلهم، ويصنعون الأحداث نيابة عنهم ، كالمصلين الذين يغادرون المسجد ويتركون الإمام يصلي عن نفسه وعنهم ، أو بلغة ولسان بني إسرائيل:(فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)(المائدة٢٤).

(٢٦) البطالة الدعوية والحركية

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله:(في أحضان البطالة تولد آلاف الرذائل ، وتختمر جراثيم التلاشي والفناء ، إذا كان العمل رسالة الأحياء ن فإن العاطلين موتى ، وإذا كانت دنيانا هذه غراس لحياة اكبر تعقبها فإن الفارغين أحرى الناس أن يحشروا مفلسين، لاحصاد لهم إلا البوار والخسران)(١).

هناك أمراض تربوية خطيرة إذا إنتشرت في الصف الدعوي ، ووجدت لها القابلية في نفوس أفراده ، فإنها تؤدي لامحالة إلى الإنتكاس والتساقط والتملص والتسلل اللواذ، ومن ثم الإفلاس بمعناه الواسع والشامل.

من بين هذه الأمراض وفي مقدمتها البطالة الدعوية والكسل الحركي والفتور والفراغ والقعود عن العمل ،والتقاعس عن أداء الواجب، والتنصل من القيام بالمهام الدعوية المختلفة، وإستمراء حالات الراحة والتحرر من تحمل التبعة والمسؤولية.

وكل هذه المعاني هي مظاهر لمرض واحد إذا أصاب العاملين في الميدان الدعوي والحركي أصابهم في مقتل ، إلا من تداركته صحوة ضمير أو إعتبار بموعظة أو إستفادة من نصيحة ، وقبل ذلك وأثناءه وبعده رحمة الله ومعيته وتوفيقه.

ومن خلال الممارسة والمعايشة ظهر أن هناك جملة من العوامل تساهم في الإصابة بهذا المرض ويكون بذلك نتيجة منطقية لها والتي من أهمها:

- إنخفاض منسوب الإخلاص ودخول النية.
- إختلال عناصر الفهم.
- جهل الذات الدعوية والحركية
- الإستجابة للإغراءات الدنيوية ، والتطلع لبهرجها الكاذب.
- نسيان الغاية والإنحراف عنها والغفلة عليها.
- اليأس والقنوط والتشاؤم.

ـ ضبابية وغموض الأهداف.

ـ عدم التفاعل مع العملية التربوية.

ـ غياب أخلاق المرحلة كالثبات والصبر والثقة والتجرد والتضحية وغيرها.

ـ ضعف الشعور بالمسؤولية والتبعة.

ـ بعد الشقة وإستطالة الطريق.

ـ غياب الحرقة وإنطفاء شعلة الرغبة في العمل.

ـ تشوش سلم الأولويات وتدحرج العمل للدعوة إلى مراتب متاخرة إن بقي.

ـ التآكل الروحي والتربوي والإيماني والخلل في الإلتزام.

ـ إنسداد شهية العمل ، وعدم التلذذ ببذل الجهد في سبيل الله.

ـ فقد طعم التعب والإجتهاد في ميادين العمل المختلفة.

ـ تبلد الحس بحقيقة الإنتماء للدعوة وللحركة ، وضمور عناصر الولاء لها.

ـ غبش في صورة العزة بالمنهج الدعوي وبرودة في الغيرة عليه.

ـ ضعف المناعة الفكرية والإيمانية والتربوية.

كل هذه العوامل والأسباب وغيرها تدفع إلى القعود والإنسحابية والإبتعاد عن ساحات العمل ، وصناعة الأعذار لذلك ،ومنه يصبح الواحد من هذا الصنف عبئا ثقيلا على الدعوة وعلى الحركة ، وتصبح تئن من حمله وجرّه ، بدل أن يحملها هو ويرتاد بها الافاق.

فإذا ماانتشرت آفة البطالة في الصف الدعوي والحركي ، فإنها تتولد عنها ومنها آلاف الرذائل على المستوى الفردي والجماعي :(فالصف الذي تنتشر فيه البطالة تكثر فيه المشاغبات)، والبيت الخاوي (الفارغ) يكثر فيه الضجيج ويتضاعف.

فعلى حاملي لواء الدعوة والحركة أن لايقفوا في منتصف الطريق ، ولاتبرد هممهم وتنطفيء فاعليتهم كلما هبّت عليهم رياح اليأس ،أو تشل حركتهم وينقطع سيرهم

وتتغير وجهتهم ، كلما إجتاحتهم أعاصير الفتن ، وهم يعلمون أن:(المكارم منوطة بالمكاره ،والسعادة لايعبر إليها إلا على جسر من المشقة ،فلا تقطع مسافتها إلا في سفينة الجدّ والإجتهاد)(٢).

وأن الفراغ للرجالة غفلة ، وأن من نواقض العزم طول الآمال وحبّ الراحات ، وأن الأمل لابد أن يصاحبه عمل وإلا كان مجرد أمنية مردودة على صاحبها ، فلقد رأى الحسن البصري رحمه الله شابا يعبث بالحصى وهو يدعو :(اللهم زوجني الحور العين) ، فقال له: بئس الخاطب أنت تخطب الحور العين وأنت تعبث بالحصى).

فنحن كذلك لايحق لنا ، بل لايمكن لنا أن نخطب ودّ التمكين والتغيير والإصلاح ، ونحن نلهو بما هو أحطّ من الحصى ، ونحن بطالون كسالى متفرجون وكفى ، إذ لابد للخاطب من مهر يقدمه ،ومن يخطب الحسناء لايغله المهر،وكما قال الإمام البنا رحمه الله:(أستطيع أن أتصور المجاهد شخصًا قد أعدَّ عدته وأخذ أهبته وملك عليه الفكر فيما هو فيه نواحي نفسه، وجوانب قلبه فهو دائم التفكير عظيم الاهتمام على قدم الاستعداد أبدًا إن دُعِيَ أجاب وإن نُودِيَ لبى، غدوه ورواحه وحديثه وكلامه وجدُّه ولعبه لا يتعدى الميدان الذي أعد نفسه له، ولا يتناول سوى المهمة التي وقف عليها حياته وأرادته يُجاهد في سبيلها تقرأ في قسمات وجهه،

وترى في بريق عينيه، وتسمع من فلتات لسانه ما يدلك على ما يضطرم في قلبه من جوى لاصق وألم دفين، وما تفيض به نفسه من عزيمة صادقة، وهمة عالية وغاية بعيدة، ذلك شأن المجاهدين من الأفراد والأمم، فأنت ترى ذلك واضحًا جليًا في الأمة التي أعدت نفسها للجهاد تلحظه في مجالسها، وأنديتها وتراه في أسواقها وشوارعها وتستشعره في مدارسها وبيوتها وتستجليه في شبابها وشيبها ونسائها ورجالها، حتى ليخيل إليك أنَّ كل مكان ميدان، وكل حركة جهاد. أستطيع أن أتصور هذا لأن الجهاد ثمرة الإدراك يولد الشعور، وينفي الغفلة، والشعور يبعث على الاهتمام واليقظة، والاهتمام يؤدي إلى الجهاد والعمل، ولكل ذلك آثاره ومظاهره.

أما المجاهد الذي ينام ملء جفنيه ويأكل ملء ماضغيه، ويضحك ملء شدقيه، ويقضي وقته لاهيًا لاعبًا عابثًا ماجنًا، فهيهات أن يكون من الفائزين أو يُكتب في عداد المجاهدين.

والأمة التي ترى كل حظها من الجهاد كلمات تُقال أو مقالات تُكتب، ثُمَّ إذا فتشت قلوب القوم وجدتها هواء، وإذا خبرت اهتمامهم بالأمر رأيته هباءً، وانغمسوا في غفلة لاهية ونومة عابثة فمحالهم وأنديتهم ومجامعهم وبيوتهم لا ترى فيها إلا لهوًا ومجونًا وعبثًا ودعابةً ولعبًا وتسليةً وقتلاً للوقت في غير فائدة كل هَمِّ أحدهم متعة فانية أو لذة زائلة أو ساعة مرحة أو نكتة مستملحة فهذه الأمة الهزل أقرب منها إلى الجد بل لا حظَّ لها في الجد أبدًا)(٣).

فالبطالة طريق الإفلاس ، أما الريادة والقيادة والسيادة فلاتنال إلا بالجدّ والإجتهاد ، ولايتوصل إليها إلا بكم هائل من التضحيات ثبت ذلك عمليا على مدار التاريخ كله ،وإبن الدعوة والحركة المفروض فيه أنه حلقة في السلسلة الذهبية من الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين والعلماء والدعاة العاملين ، فلايمكنه أن ينال شرف الإنتساب ، ويمنح بطاقة الإنخراط والإنتماء إلا إذا قدم الثمن ، وقد كان العلامة إبن القيم رحمه أكثر صراحة مني لّما عدّ إدعاء الإنتماء إلى هذه السلسلة المباركة دون تقديم الدليل العملي على ذلك من تخنّث العزم فقال:(يامخنث العزم أين أنت والطريق طريق ، تعب فيه آدم ، وناح لأجله نوح ، ورمى فى النار الخليل ، وأضجع للذبح اسماعيل ، وبيع يوسف بثمن بخس ولبث فى السجن بضع سنين ، ونشر بالمنشار زكريا ، وذبح السيد الحصور يحيى ، وقاسى الضر أيوب ، وزاد على المقدار بكاء داوود ، وسار مع الوحش عيسى ، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد صلى الله عليه وسلم ، وتزهو أنت باللهو واللعب).

(٢٧) حاجتنا إلى فقه الواقع

إن من أخص سمات التحرك السليم والمأمون العواقب في حياة الدعاة، ضرورة فقه الواقع بآلياته ومكوناته وتناقضاته والعناصر المؤثرة فيه والموجهة له ، سواء كانت مادية أم معنوية ،تاريخية وجغرافية وإجتماعية وإقتصادية وسياسية وفكرية وثقافية .

لأن الجهل بالواقع أو فقهه على غير حقيقته ، يفضي إلى عواقب وخيمة وغير مأمونة،فالسلوك الصحيح والتصرف السليم ، لايعدو أن يكون ثمرة للتصور الصحيح للواقع .

وفقه الشرع كذلك لابد أن يصاحبه فقه الواقع ، أو مقتضى الحال بالمصطلح الفقهي الأصولي ، حيث لايمكن الفصل بينهما في صناعة الحكم الشرعي ، والفتوى خاصة في النوازل والمتغيرات ، وقد ذكر العلامة إبن القيم رحمه الله :(أن الفقيه هومن يزاوج بين الواجب والواقع)،وقد فقه علماؤنا قديما هذا التزاوج ، وتعاملوا بمقتضاه مع كل ا لأقضية التي حدثت لهم في زمانهم ، فهذا الإمام إبن أبي زيد القيرواني المالكي رحمه الله صاحب كتاب الخلاصة الفقهية المشهورة في الفقه المالكي ، يقتني في عهده كلبا للحراسة مخالفا ماأثر عن صاحب المذهب إمام دار الهجرة الإمام مالك رحمه الله من كراهية ذلك ، فلما لامه من لامه على مخالفته لإمام المذهب قال: لو كان مالك في زماننا لأتخذ أسدا ضاريا، يعني أن الواقع قد تغير وإختلف .

لذلك فإن التعامل مع الواقع بمنهجية صحيحة وسليمة ، وفقهه بمقتضى هذه المنهجية أمر في غاية الأهمية ،ومقام الشهادة على الناس الذي أوكله الله عز وجل إلى هذه الأمة ، وهو من مقتضيات التفضيل والتمييز الذي منحها المولى سبحانه لها، ومقام الشهادة لابد له من الشهود والحضور ، إذ لاشهادة لغائب أو بعيد ، أو شهود كغياب كما قال الإمام علي رضي الله عنه وهو يصف بعض أصحابه ، ولايمكن أن يتحقق هذا الشهود والحضور لمن لا يفقه واقعة أو يتجاهله أو ينعزل عنه ، وقد أكد المفكر المبدع مالك بن نبي رحمه الله هذه الحقيقة لّما قال :(فالواقع أن الشاهد في أساسه هو الحاضر في عالم الآخرين ، والصفة الأولى المكتسبة لإثبات قيمة أي شهادة ، هي حضور الشاهد ، إذا كان متعينا على المسلم أن يقوم بالدور الملقى على عاتقه في

الآيـة:(وَكَـذَلِكَ جَعَلْنَـاكُمْ أُمَّـةً وَسَـطاً لِّتَكُونُـواْ شُـهَدَاء عَلَـى النَّـاسِ وَيَكُـونَ الرَّسُـولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدا)(البقرة ١٤٣).

فهو مجبر على الحياة في إتصال وثيق بأكبر عدد من الذوات البشرية ومشاكلها كذلك ، ومن ثمّ يتعين على حضوره أن يعانق أقصى حد ممكن في المكان ، لكي تعانق شهادته أقصى كم ممكن من الوقائع، وعلاوة على ذلك فإن المسلم في هذه الحالة ليس صاحب دور سلبي محض، إذ أن حضوره نفسه يؤثر على الأشياء وعلى أعمال الآخرين ، فعندما يكون الشاهد حاضرا ، يمكن لحضوره فحسب أن يغير من سير الأحداث ، وأن يجنب الوقوع في المحظور، وعلى هذا فإن رسالة المسلم في عالم الآخرين لاتتمثل في ملاحظة الوقائع ، ولكن في تبديل مجرى الأحداث ، بردها إلى إتجاه الخير ماإستطاع)(١)

ـ نواقض الفقه السليم للواقع:

ومما يتنافى والفقه السليم للواقع ، ويناقضه وينقضه :

١) ـ العشوائية والفوضى والإرتجال و سوء التقدير

٢) ـ المبالغة المفرطة في تقييم القدرات المختلفة ، وذلك بتضخيم الهين وتهوين العظيم.

٣) ـ غياب وتغييب فقه السنن الكونية الجارية والخارقة.

٤) ـ الفقر العلمي والمعرفي والثقافي وضعف الإلمام بالمعطيات والمستجدات.

٥) ـ تشوش الأولويات وإضطراب ترتيبها.

٦) ـ التحديد الخاطيء لخارطة الأعداء والخصوم ، وكذلك الأصدقاء .

٧) ـ التخلف والقصور في توظيف الوسائل الحديثة وإستخدامها .

٨) ـ الفهم الخاطيء والممارسة الخاطئة للإستعلاء والولاء والبراء.

٩)ـ الإنكماش على الذات والشعور بالقداسة والطهر المطلق والنقاء التام، مع المثالية الجانحة.

١٠) ـ الأحكام المسبقة والصور النمطية

ـ مستلزمات الفقه السليم للواقع:

ومما يساعد على الفقه السليم للواقع ، ويكسب الطريقة المثلى للتعامل معه:

١) ـ المتابعة المستمرة والمبصرة ، والإلمام بمكونات الواقع ومستجدّاته المتتالية.

٢) ـ المرونة ،وذلك بإنسجام الأفكار والأقوال والأفعال والمواقف مع ماتقتضيه المرحلة ،من غير تجاوز للضوابط الشرعية ، ولامصادمة للحقائق الواقعية.

٣) ـ سعة الأفق وبعد النظر، والتقدير الصائب للإحداث وتحليلها وتقييمها .

٤) ـ التحلّي بالحكمة ، وهي كما عرفت:(فعل ماينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي).

٥) ـ ألمعية الذهن وسرعة البديهة ، وذلك بالإبتعاد عن العقلية التي إشتكى منها الشاعر:

أقول له عمرا فيسمع خالدا ويقرؤها زيدا ويكتبها بكرا.

فاللبيب تكفيه الإشارة ، وتغنيه العبارة.

٦) ـ الموازنة والقياس والتمحيص والتنقيح والغربلة والتصفية ، عملا بنصيحة شيخ الإسلام إبن تيمية رحمه الله لتلميذه إبن القيم:(لاتجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة، فيتشربها لاينضج إلا بها ،ولكن إجعله كالزجاجة المصمتة، تمر الشبهات بظاهرها ، ولاتستقر فيها ، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته ، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها ، صار مقرا للشبهات)(٢).

٧) ــ دراسة التجارب بأنواعها ، دراسة نقدية بناءة ،لتجنب العثرات ، وإستثمار الإيجابيات ، وقد صدق الرافعي رحمه الله لما قال:(إذا أردت أن تأخذ الصواب ، فخذه عمّن أخطأ)(٣).

٨) ـ معاشرة الآخرين على أحسن ما معهم،أشار إلى هذه القاعدة الإمام ابن القيم رحمه الله بقوله:(والبصير الصادق من يضرب في كل غنيمة بسهم ، ويعاشر كل طائفة على أحسن ما معها)(٤).

٩) ـ التكيف الإيجابي وعدم التعامل بسياسات ردود الأفعال، وقد ذكر الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله أن :(الظروف تستطيع تكييفنا ولا تستطيع بإذن الله إتلافنا)(٥).

مع ضرورة توفر المناعة العلمية والفكرية والتربوية.

١٠) ــ التحرر من ذهنيات الانغلاق: ذهنية المغالبة والتحدي ، ذهنية الانكماش والانغلاق على الذات ، ذهنية التكبر والاستعلاء على الآخر ،ذهنية الدروشة وغفلات الصالحين ، ذهنية فكر المحنة ، ذهنية الأحكام المسبقة ، ذهنية الغلو والتشدد ، ذهنية الرفض والتعصب المقيت ، ذهنية التهوين والتهويل ، ذهنية الأسود والأبيض ، ذهنية البساطة والسطحية... إلخ .

ـ إتجاهات خاطئة في فقه الواقع:

وعند دراسة الواقع والتعامل معه ، لابد من الإبتعاد عن جملة من الإتجاهات الخاطئة في فقهه وفهمه وهي:

١) ـ الاتجاه الإطرائي: وهو محاولة تحسين الواقع ، وإبراز صورته سالمة من العيوب ، وغض الطرف عن سلبياته .

٢) ـ الاتجاه التشاؤمي: الذي ينظر إلى الواقع بمنظار أسود قاتم ، يجرده من كل حسنة أو إيجابية، ويلحق به كل النقائص ، ولايراه إلا ظلمات بعضها فوق بعض.

٣) ـ الاتجاه التآمري: الذي يرى أن من وراء كل حدث ـ وإن صغر ـ أيادي خفية تحركه من وراء ستار.

٤) ـ الاتجاه التنصلي: بحيث لايريد أن يتحمل مسؤولية مافي هذا الواقع من أحداث ، فكل فريق يريد أن يحمل غيره مايقع وإبعاد التبعة عن نفسه.

٥) ـ الاتجاه التبريري: وذلك بأن يضفي على الواقع مايجعله مقبولا ومشروعا ، وإن إبتعد عن جادة الصواب.

٦) ـ الاتجاه الصدامي والتهديدي: الذي يتعامل مع الواقع بمنطق المواجهة والصدام وردود الأفعال، مع الإستجابة للإستفزاز، يتنادى للنزال ، متحفز له دوما ، شعاره: السيف أصدق أنباء من الكتب.

٧) ـ الاتجاه المصلحي الإنتهازي: الذي يحدد مواقفه من الواقع وفق مصالحه الخاصة ، فكل ماوافقها نال الرضا منه والقبول ،وإن عارض المصلحة العامة، وكل ماتعارض معها نال الرفض وإن كان هو عين الصالح العام، إنتهازي في إستغلال كل مايخدم رغباته ويحققها ، شعاره :أنا وبعدي الطوفان.

٨) ـ الاتجاه الانسحابي والإنعزالي: الذي يعجز في مواجهة الواقع ، ويتملص من المسؤولية ، ولايكلف نفسه تبعات ذلك ، يتبع أيسر الحلول وهو الإنسحاب والإنعزال كلية ، ويترك الجمل بما حمل، وكأن الواقع لايعنيه من قريب أو بعيد.

٩) ـ الاتجاه الإستعلائي المتعصب: الذي يتعامل مع الواقع بنظرة إستعلائية متعصبة ، تضفي الصوابية المطلقة عن كل مايملك من أفكار وآراء ومواقف، مكتفيا بما عنده ، منغلقا ومنكمشا داخل أسواره الخاصة ، رافضا كل مايجود به الواقع ، محتقراله ومستهترا به ، مستصغرا كل الأحداث والحوادث مهما تعاظمت خطورتها.

١٠) ـ الاتجاه المثالي: الذي يجنح دائما إلى المثالية الجانحة التي تحلق بعيدة عن حقائق الواقع، ولاينزل من أبراجه العاجية التي حشر نفسه فيها، يتصور أن الواقع إما بياضا مطلقا ، أو سوادا مطلقا ، لاتوسط لديه ، يريد أن يكون الواقع إيجابيا وتمام التمام بين عشية وضحاها ، دون أن يساهم هو في ذلك ولو بالشيء القليل.

فلابد من التعامل مع الواقع بموضوعية وعدل وإنصاف ، فتكون مواقفنا ومعاملاتنا مع غيرنا وفق هذه الموضوعية وهذا الإنصاف، فلانغالي في التصلب فنكسر، ولانتمادى في التفريط والتسهيل فنعصر.

نريد من كل مامضى أن يتحرك الدعاة بدعوتهم ـ في طريق مليئة بالكسور ومتشعبة المسالك ، وحبلى بالعجائب والمفاجآت ـ وفق القاعدة التي أصلها المتنبي الشاعر بقوله:

عرفت الليالي قبل ماصنعت بنا فلما دهتني لم تزدني بها علما

وأن يتكيفوا مع الظروف تكيف التاجر الحاذق البصير ، الذي إن رأى كسادا في السوق حافظ على أقل تقدير على رأس ماله .

فالدعوة التي تتجاهل واقعها ، محكوم عليها بالفشل والإضمحلال إن عاجلا أو آجلا.

فإذا أراد الدعاة أن يحموا دعوتهم ويعصموها من الإنسياق والإستدراج والإحتواء والإنحراف والإستنزاف والتعويم كتعويم العملات النقدية ، فليحرصوا على فقه واقعهم مع فقه شرع ربهم مع فقه إنزال الشرع على الواقع أو ماسماه الأصوليون بتحقيق المناط.

(٢٨) ومضات من حياة الشيخ محفوظ نحناح

إن الرجال أصحاب الأفكار الأصيلة يموتون بأجسادهم ، أما الأفكار التي عملوا لها في حياتهم وأخلصوا في سبيلها ، وتجردوا للتمكين لها ، فإنّها تستمر وتنمو وتزدهر وتبلغ الآفاق ، حتى أنّها تصل إلى مواقع ، وتتسلل إلى عقول وأذهان ، وتلج إلى قلوب ماكانت لتصلها أثناء وجودهم على قيد الحياة كما قال طه حسين وهو يرثي العقاد:(أمثالك تموت أجسامهم لأن الموت حق على الأحياء جميعا ، ولكن ذكرهم لايموت لأنّهم فرضوا أنفسهم على الزمان وعلى الناس فرضا ، وسيوارى شخصك الكريم في أطباق الثرى ، ولكن القبر الذي سيحتوي شخصك لن يستأثر بك ، فلك في قلوب الذين يحبونك والذين ينتفعون بأدبك وعلمك ذكر لن يموت ، ولكنّهم لن يستأثروا بذكرك ، وإنّما ستشاركهم فيه الأجيال التي تبقى بقاء الدهر).

إنّ هذا الصنف من العظماء كلما باعدت الأيام بيننا وبين يوم إنتقالهم إلى دار البقاء إلا زاد تأثيرهم ، وتواصل إشعاعهم ،وظهرت جوانب أخرى مضيئة من حميد خصالهم ، خلص إلى ذلك المرشد عمر التلمساني وهو يتحدث عن الإمام الشهيد حسن البنا بقوله:(حسن البنا كلما باعدت الأيام بيننا وبين يوم إستشهاده إزدادت شخصيته وضوحا وإشراقا ونورا وبهاء .. إنّه كالوحة الفنية البديعة ، كلما إبتعدت عنها محملقا في روعتها ، كلّما وضح أمام ناظريك رواؤها ودقّة الإبداع فيها ، وحقا مامضى عام إلا إزداد تاريخ حسن البنا وضوحا في ميادين الدعوة الإسلامية ، وظهر ماأجراه الله على يديه للإسلام والمسلمين).

إن من حق رجالنا العاملين أن نعرف أقدارهم ، وأن لاننسى فضلهم ، ولانبخسهم أشياءهم ، وأن نترحّم عليهم وندعو لهم صباح مساء جزاء ماقدّموا وأنجزوا كما قال الإمام أبو محمد التيمي رحمه الله:(يقبح بكم أن تستفيدوا منّا ثم تذكرونا ولاتترحّموا علينا).

فمن حقّهم علينا ذكر محاسنهم ، وتعداد فضائلهم ،وجلائل أعمالهم ،لأن ذلك من شيم الأوفياء ،فلابد ونحن نسير على طريق معبّدة أن نذكر فضل من تعب في تعبيدها ، فنسيان الفضل والحقوق ينشيء العقوق كما أشار العلامة أبن باديس:(إنّما

تقاس درجة الأمم بما تنجبه من الرجال ، وإنما تكون منجبة للرجال يوم تصير تعرف أقدار العاملين من أبنائها).

والشيخ محفوظ من هذا الصنف من الرجال ، بل يأتي في مقدمة قافلتهم، وشخصية عظيمة كشخصيته متعدّدة الجوانب ، متنوّعة المواهب ، مناقبها أكثر من أن تحصى ، وفضائلها أظهر من أن تستقصى كماوصفه الرئيس بوتفليقة فأبدع الوصف بقوله:(كان عدّة رجال في رجل)، وأشار إلى هذه الميزة كذلك الشيخ راشد الغنوشي لّما قال :(لقد كان الرجل جمعا من فطاحل الرجال متعدّدي الإهتمامات ، قد جمعتها قدرة الخلاّق في رجل ، بل وطنا وأمة إختزلتا في شخص).

ولقد آثرنا أن نقف عند بعض هذه الجوانب المشرقة ونشير إلى عدد من هذه الخصال المميّزة لهذه الشخصية الفذّة والفريدة والنادرة بكلّ المقاييس نراها ساهمت بشكل كبير في تميزها إستخلصناها من خلال عديد الشهادات التي قدّمت وقيلت فيها نقدّمها كومضات للتّأسي والإقتداء.

١) ـ إيثار الناحية العملية والحركية الدائبة:

كما وصفه جاسم المهلهل الياسين :(نحلة في العمل والتنظيم سماحة الشيخ محفوظ نحناح)، هذه طبيعته لايكلّ ولايملّ ، تحرّك دائم وسعي مستمر ، كلّما حلّ إرتحل، غير آبه بالناعقين والصاخبين والصائحين والملتمسين للبرآء العنت ، لايلتفت كثيرا للمثبّطين واليائسين ، ولقد نبّه إلى هذه الناحية في إحدى وصاياه لّما قال:(كن كلاعب كرة القدم في الميدان لاترى أمامك إلاّ الشباك كي تسجّل الأهداف ، أمّا إذا إنشغلت بتصفيرات الجمهور وكلامهم وتصفيقاتهم ، فإنّ ذلك سيصرفك ويلهيك عن تسجيل الأهداف).

ولقد أشار الرئيس بوتفليقة إلى هذا الجانب في شخصيته في رسالة التعزية عندما قال:(اليوم وقف به الأجل دون الأمل ، وهو في أوجّ الرجولة ، وقمّة النشاط والأداء ، وذروة الإفادة والعطاء ، حال بينه وبين غاية لاتدركها إلاّ نفسه الكبيرة ، بما له من

نشاط لايحدّده جهد ، ولاينال منه تعب ، وبما له صبر على المحن ، وإقتدار على مواجهة الخطوب ،والتغلّب على الشدائد).

حافظ على الراية مرفوعة واللّواء شامخا رغم كلّ العقبات والعراقيل والصوارف والمحن التي تعرّض لها لم يثنه كلّ ذلك عن التجسيد العملي للأثر القائل :(المؤمن كالغيث أينما حلّ نفع)، والأثر الآخر :(من علامات الرجل الصالح أن يترك في كلّ بلد أثرا صالحا).

حتّى مرضه لم يمنعه من الحركة والعمل والفعالية والإيجابية ، يقول مصطفى الطحان عنه : (كنت معه في أنقرة ، وكان معنا ثلّة من رجالات الفكر والسياسة ، كان يخرج من الندوة ويغيب أحيانا ، ثم يعود ، كنت أستغرب الأمر ، وبعد أكثر من سنة أخبرني بأنّ الآلام كانت تضطرّه إلى مثل هذا الخروج ، حتى لايلاحظ ذلك أحد).

فكان دائم العطاء لدعوته وحركته ووطنه وأمته ، لأنّه أدرك منذ البداية أنّ قيمة المرء على قدر عطائه ، وفقه جواب الإمام أحمد لذلك الرجل الذي سأله:(متى يجد العبد طعم الراحة؟ فقال له: عند أوّل قدم يضعها في الجنّة).

فقد:(ظلّ على مدار أربعين سنة يحمل راية الدعوة ويضحّي بنفسه ووقته وماله وجهده في سبيل الله حتّى آخر لحظة من حياته)كما شهد بذلك الحبيب آدمي.

٢) ـ علوّ الهمّة والطموح وروح الأمل:

يذكر مصطفى الطحان في شهادته كذلك أنّه:(عام ١٩٧٣ م في زيارتي معه إلى الجامعة المركزية كانت الأوضاع والمظاهر بعيدة كلّ البعد عن الشكل الإسلامي ، لباس الطالبات ، حركاتهن مع زملائهن وهنّ رائحات غاديات أو جالسات على المقاعد أو مستلقيات في الحدائق ، سألته: الأوضاع صعبة ياشيخنا ؟ أجابني :(ولتعلمنّ نبأه بعد حين).

في بداية التسعينات كنّا ترى نحن أنّه من شبه المستحيل أن يدخل الشيخ تونس ومصر وليبيا لإعتبارات عدّة ، ولكنّه بحكمته ومثابرته وروحه المتفآئلة دائما إستطاع أن يفرض إحترامه على الجميع ودعي رسميا ومرّات عديدة لزيارة هذه البلدان وغيرها من طرف أعلى السلطات فيها ، وفتح آفاقا رحبة من خلال هذه الزيارات لصالح الدعوة والحركة والمشروع والوطن.

هذه الخصلة وهذا الجانب لفت أنظار العلماء والدعاة والزعماء الذين عاشروه وعرفوه وتعاملوا معه ،يقول توفيق الواعي في حقّه:(يكلّمك عن حال الأمة ، فتشعر باللّوعة في صدره ، والمرارة في حلقه ، ولكنّك تلمح الأمل في تحليله ونبرته ، ويحدثك عن المشكلات التي يشيب من هولها الولدان في بلده ، ولكنّه يستبعد اليأس في خطّته والوهن في كفاحه وعزيمته).

كان عالي الهمّة ، كبير الطموح فيما يخدم دعوته وحركته وأمته ووطنه ، لايعرف القنوط إلى قلبه سبيل ، ولااليأس إلى نفسه طريق ، فقه وصية إمامه وطبّقها عمليا في حياته:(لاتيأسوافليس اليأس من أخلاق المسلمين، وحقائق اليوم أحلام الأمس ،وأحلام الأمس حقائق الغد ، ولازال في الوقت متّسع ،ولازالت عناصر السلامة قوية عظيمة في نفوس شعوبكم المؤمنة).

٣) ـ قوّة الجانب الروحي والمواظبة على العبادات:

كان الشيخ رحمه الله لايترك ورده من كتاب الله ، والأذكار مهما كانت الظروف في حلّه وترحاله ، ولقد ذكر الشيخ الغنوشي وهو يعدّد فضائله :(عرفته محافظا على تلاوة القرآن والأذكار اليومية ، حتى عندما بلغ الصراع السياسي قمّته ، كان لايفتح باب مكتبه للإستقبال حتى يكمل ورده وتلاوته .. وأشهد أنّه كان كثير البكاء، سريع الدمعة).

كذلك يشير عبد الله طنطاوي إلى هذه الناحية بقوله:(كان من العبّاد محافظة على الفروض والنوافل والأوراد، ودعوة إخوانه ومن يحبّهم إلى التمسّك بها).

شهادة مهمّة في هذا المجال كذلك ذكرها عبد الرزاق قسوم:(كان يؤمّنا في مسجد الجامعة ، فأعجبت بورعه وتقواه ، حتى أنّني كنت أحسّ بطمانينة خاصة حينما أصلّي خلفه).

الشيخ رحمه الله رغم المشاغل الكثيرة ، والمسؤوليات العظيمة ، والهموم الكبيرة ، التي كانت تثقل كاهله لم يكن يترك ورده ، ولم يفرّط في العبادات ويتهاون عنها ، وكان وفيّا لمدرسة اللّيل عاملا بوصية الإمام البنا:(إنّ دقائق الليل غالية فلاتضيعوها بالغفلة)

وفعلا هذه البركة التي نلحظها في جهده وعمره وعمله ، وهذه القوة العجيبة في التحمّل ، وهذه الثمار اليانعة التي تركها ، لم تأت من فراغ ، فقوة الصلّة بالله ، والإرتباط الدائم به ، والصفاء الروحي هو السبب الرئيسي في كلّ هذا التوفيق الذي رأيناه وعايشناه ، فبقدر قوة الصلة يكون التوفيق والتسديد والبركة والعكس.

٤) ـ عفّة القول وإمساك اللّسان:

يقول الصحفي حميدة العياشي في حقه:(لقد نهش لحمك إسلاميون ، ونهش لحمك وطنيون ، ونهش لحمك لائكيون ن ولم تنهش لحم أحد).

ووصفه الدكتور آدمي :(وهو ممّن عرفوا بكظم الغيظ ، وسعة الصدر ، والعفو عن الناس ، فلم يكن حقودا ولا حسودا ولا معيابا ولامسبابا ولافاحشا ولابذيئا ، رغم أنّه كان غرضا لكثير من الناس).

أمّا الشيخ الغنوشي فيقول عنه:(لم أسمعه يغتاب أحدا حتى من مخالفيه،إذ كان شديد الإنضباط بالشرع ...وعندما بدأ العمل الدعوي كان إلتزامه بالشرع وضوابطه أشد ، إذ لم يستعمل الإشاعات عن مخالفيه ، ولم يطعن ، ولم يلعن ، ولم يكن بالفاحش ولاالبذيء).

أمّا الرئيس بوتفليقة فيقول عنه :(وإن أنسى لفقيد الجزائر الشيخ محفوظ نحناح من شيء فلن أنسى البشاشة التي تنطق بها قسمات وجهه ، والأنس واللطف اللّذين

تتحدّث بهما عيناه ، وحلاوة اللفظ وطلاوته مع محاوريه حتى في أشد القضايا خلافا ،وعفّة اللسان في أحاديثه وخطبه ، وذلك التسامح السمح في معاملاته لأصدقائه كما لخصومه).

وكثيرا ماكنّا نسمعه يقول:(تصدّقنا بأعراضنا في سبيل الله).

لقد وعى الشيخ منذ إنطلاقته أنّ من لم يستطع الإنتصار في معركته مع لسانه ، من المستحيل أن ينتصر في معركته مع شيطانه ، ومن المستحيل أن يصل إلى مرحلة الرجولة الحقّة التي حدّد مواصفاتها الفاروق رضي الله عنه:(لايعجبنّكم من الرجل طنطنته ، ولكنّه من أدّى الأمانة ، وكفّ عن أعراض الناس فهو الرجل).

هذه العفة في اللسان أكسبته . رحمه الله . سعة في الصدر ورحابة في الأفق في تعامله مع الجميع أصدقاء وخصوم ، جعلتهم يحترمونه ويقدّرونه ويكبرونه ، فلم يكن فظّا ولا غليظا ، وإنّما تغلب عليه روح السماحة والنبل والرفق والمرح والدعابة حتى خاطبه حميدة العياشي :(أيها الشيخ الذي تعرف كيف تصبح صديقا حتى عند خصومك)(كنت اسمّيك في عمودي الشيخ(اللّباندي) ، لم تغضب مرّة ، بل كنت تقهقه ، وتعلق وتثمّن حرية النقد والرأي ، لم يضق مرة صدرك بسهامي الموجّهة لسياستك .. وكان ذلك يكبر من مكانتك في قلبي).

٥) ـ الوطنية الصادقة والحرص على الدولة :

لقد أبدع الشيخ في هذا الجانب وتفوّق بإمتياز ، وبإعتراف الجميع كما أشارلذلك الرئيس بوتفبيفة وهو يعدّد خصال تميّزه :(وطنيته الصادقة العالية التي كانت تظهر أكثر ما تظهر حين تشتدّ بوطنه أزمة ، فيحمل الجزائر ويطير بها في الآفاق شارحا بالقول الحق.. فكان بحق ممثل الجزائر الذي لايجارى ولايبارى في بيانه ، وكان رجلها الأمين...).

هذه الخصوصية تفرّد بها الشيخ عن الكثير من الدعاة وقادة العمل الإسلامي ، وورّثها إلى أبناء الحركة ، فما عرفنا التفريق بين الدولة والسلطة إلاّ من عنده ، وماأدركنا مخاطر سقوط الدولة وكارثية تمزيقها وإضعافها إلاّ من خلال المصطلحات التي

كان يردّدها على مسامعنا دائما ويحذرنا من الوقوع في مثلها ، الأفغنة والصوملة والروندة واللبننة وغيرها .

وقد لاحظ ذلك الشيخ الغنوشي لّما اشار إلى أنّ خطاب الشيخ محفوظ :(حفل بخصوصية نادرة في حركات التغيير ، الدفاع عن الدولة وضرورة المحافظة عليها ، والخشية من الإنفلات والفوضى ، والحقيقة أنّ هذا الخط مثّل خطابا تليدا في تراث علماء أهل السنة ، زهدت فيه الحركة الإسلامية المعاصرة التي سادها خطاب التثوير والتغيير، بسبب مانالها من بأس الدولة الحديثة ، حتى كرهتها لدرجة تمنّي زوالها ...).

كان الشيخ واضحا أشدّ الوضوح في هذه القضية ، ولايتردّد في ترجيح مصلحة وكفّة الوطن والأمة على مصلحة الشخص والحركة عند التعارض ، وماموقفه من نتائج الإنتخابات الرئاسية عام ١٩٩٥ إلاّ دليلا عل ذلك ، ولقد لفتت هذه الميزة إنتباه المستشار فيصل مولوي فقال:(تضع الإسلام في ميزانك قبل الحركة ، وتعتبر مصالح الأمة قبل مصلحة الجماعة ، بل ترفض التعارض في هذا المجال ، وتصرّ على التكامل ، وتجعل نفسك وجماعتك في خدمة الأمة وقضاياها).

بل أكثر من ذلك لقد ذكر الشيخ أبو جرة في هذه المسالة أنّه . أي الشيخ محفوظ . :(كان معتدلا في أقواله وعلاقاته ومحيطه العاطفي ، وفي كلّ فضاءاته الإجتماعية والسياسية والإقتصادية والتنظيمية ..ولكنّه كان متطرّفا في مسألتين هما:

. حبّه للجزائر بوطنية صادقة .

. ومناصرته لفلسطين بصكّ على بياض).

هذه خمس خصال كبرى ساهمت في تميّز شخصية الشيخ محفوظ نحناح . طيّب الله ثراه . ، وساعدت على نبوغه ، ومكّنت له في قلوب محبيه وفي واقع الناس ، ولو تأسّينا به فيها ، وجعلناها محلّ إقتداء وتمثّل ، وجسّدناها عمليا في حياتنا الدعوية والحركية والسياسية ، نكون قد حافظنا على ميراثه الذي تركه ، والمنهج الذي رسمه ، والمدرسة التي أرسى معالمها ، أمّا إدّعاء الحب والتقدير دون وجود دلائل للوفاء تظهر في سلوك من يدّعي ذلك ومعاملاته ، فهذا وفاء زائف وحبّ قاصر ينطبق عليه قول الشاعر:

ورثنا المجد عن آباء صدق أسانا في ديارهم الصنيعا

إذ الحسب الرفيع تواكلته بناة السوء أوشك أن يضيعا

إنّ من الوفاء أن نصدقه ميتا كما صدقناه حيا ، قياسا . مع الفارق طبعا . على ماذكره عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :(بكى الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مات ، وقالوا : والله وددنا أنّا متنا قبله ، نخشى أن نفتن بعده ، فقال معن بن عدي رضي الله عنه : ماأحب ان أموت قبله لأصدقه ميتا كما صدقته حيّا).

وكما قيل:(الرجال ثلاثة سابق ولاحق وماحق، فالسابق هو الذي يسبق أباه بفضله ، واللاّحق هو الذي يلحق أباه في شرفه ، والماحق الذي يحرق شرف أبائه).

في الأخير لابدّ أن نشير أنّنا في أمسّ الحاجة إلى الإلتزام بجعل السيرة العطرة للشيخ محفوظ نبراسا للتأسي والإقتداء ، ومسيرته المباركة زادا لمواصلة الدرب الذي بدأه ، ووسيلة من وسائل الثبات على الطريق الذي سلكه ، ودافعا قويا للوفاء له وللمنهج الذي إختاره ، وعضا بالنواجذ على البناء الشامخ الذي أرسى دعائمه ، وحفاظا على الكيان والحركة التي أفنى حياته في سبيل تقويتها والتمكين لها ، ومضى إلى بارئه وهو عل ذلك غير مبدّل ولامغيّر.

(٢٩) سمو النفس مهر الدعوة

يقول ابن القيم رحمه الله :(النفوس الشريفة لاترضى من الأشياء إلاّ بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة ، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات ، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار.)

فالنفوس الحيّة الشريفة هي تلك التي تسمو بأخلاقها وأفعالها وأعمالها ومعاملاتها إلى المعالي ، فلا ترضى من الخلق إلاّ بأعلاه منزلة وأشدّه تحمّلا وأعظمه مثوبة ، فتخلص لله وتتجرّد له وهي تعلم رواج سوق الرياء هذه الأيام ، وتعفو وتصفح وهي قادرة على الإساءة ، وتحسن وتقدّم الخير والمعروف لأهله ولغير أهله، رغم مرارة ذلك ، وتصبر على الأذى والمكاره ، ولا ترضى من العمل إلاّ بأصدقه توجّها وأصوبه منهجا، وأسلمه عاقبة في الدنيا والآخرة ، فتلزم طريق الحق رغم قلّة السالكين ، ولا تتأسى وتقتدي إلاّ بأصحاب الهمم العالية من الصالحين، ولا تلجأ إلاّ إلى ربّها منيبة مستغفرة مستجيرة ، إذا ادلهمت الخطوب ، وراجت الفتن، ولا تنزل إلى السفاسف من الأمور :(فالله يحبّ معالي الأمور ويكره سفاسفها)، كما جاء في الأثر.

وتجعل من موقف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من خصومه نبراسا في طريقها:(حيث قال في حق أشد القضاة خصومة له وتحريضا عليه ونيلا منه وهو القاضي ابن مخلوف رحمه الله:(وابن مخلوف مهما عمل والله لاأقدر على خير إلاّ اعمله معه ، ولااعين عدوه قط، ولاحول ولا قوة إلاّ بالله، هذه نيتي وعزمي ، مع علمي بجميع الأمور، فإنني أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين، ولن أكون عونا للشيطان على إخواني المسلمين.)

حتى قال ابن مخلوف:(مارأينا مثل ابن تيمية ، حرّضنا عليه فلم نقدر عليه ، وقدر علينا فصفح وحاجج عنّا.)

هذه هي النفوس الحية دوما في ضعفها وقوتها ، في إقبالها وإدبارها، في رضاها وغضبها، في مدحها و ذمّها ، في تقدّمها وتأخرها.

إن بلوغ القمم والمعالي ، والتمكين للمبادي والقيم في دنيا الناس ، لايمكن أن يتم بكثرة الدعاوى والأمنيات ، ولا بالرغبة دون تقديم الأدلة ،وإنّما ذلك بأمس الحاجة إلى

:(نفوس حية قوية فتية، وقلوب جديدة خفاقة، ومشاعر غيورة متأججة، وأرواح طموحة متطلعة متوثبة، تتخيل مثلا عليا، وأهدافا سامية لتسمو نحوها وتتطلع إليها ثم تصل)،كما قال الأمام الشهيد حسن البنا رحمه الله.

إن الوصول إلى مثل هذه النفوس المرجّحة في موازين الصراع والتدافع، إنّما يكون بالتضحيات والعمل الجاد الشاقّ ، والتحليق في سماء الجد والاجتهاد، يؤكد ابن القيم رحمه الله هذه القاعدة التربوية المهمّة للوصول إلى هذه النوعية من النفوس فيقول:(وقد أجمع عقلاء كل أمة.. على أن النعيم لا يدرك بالنعيم ..وأن من آثر الراحة.. فاتته الراحة ..وأن بحسب ركوب الأهوال.. واحتمال المشاق.. تكون الفرحة واللذة ..فلا فرحة لمن لاهم له ..ولا لذة لمن لا صبر له .. ولا نعيم لمن لا شقاء له.. ولا راحة لمن لا تعب له ..بل إذا تعب العبد قليلا.. استراح طويلا ..إنما تخلق اللذة والراحة والنعيم.. في دار السلام ..وأما في هذه الدار فكلاّ.(
الشرف كلّ الشرف أن تكون من غرس الله في أرضه، ولا يكون ذلك إلاّ إذا حرصت على الوصول إلى مرتبة الشرف الأولى : النفس الشريفة السامية الراقية التوّاقة المخلصة المتجردة المشفقة المحبة للخير دائما، المترفعة عن حزازات التشفي والانتقام والأحقاد ، عالية الهمة ، كبيرة الطموح ، الثابتة على الحق ، الوفية له ولأهله وللسائرين في ركابه، الحريصة على أن تكون وقفا لله تعالى ، حيثما وأينما استعملها لخدمة دينه ودعوته ، قالت سمعنا وأطعنا من غير تلكؤ أو تأخر أو تردد أو تثاقل ، لا وجود للمزاجية والمصلحية والمطامع في قاموسها ، كما قال عليه الصلاة والسلام :(لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم في طاعته)(رواه ابن ماجه.(

أمّا الأخرى فإيّاك أن تكونها فإنّها الخسارة المؤكدة في الدارين ، كما قال يحي بن معاذ الرازي رحمه الله وهو يعدّد خصال الصنف الخاسر هذا :(عمل كسراب .. قلب من التقوى خراب .. وذنوب بعدد الرمل والتراب .. ثم تطمع في الكواعب الأتراب .. هيهات أنت سكران بغير شراب .. ما أكملك لو بادرت املك .. ما أجلك لو بادرت أجلك .. ما أقواك لو خالفت هواك .. يا هذا لقد أعظمت المهر وأسأت الخطبة.(

فإن نزلت إلى حضيض السقوط في هاوية القعود والكسل والنكث والنكوص والانتكاس ـ ونعيذك بالله من ذلك ـ فسيجري عليك قانون الاستبدال ، كما قال سيد رحمه

الله:(إن اختيار الله لكم لحمل دعوته ، تكريم ومنّ وعطاء، فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلا لهذا الفضل، وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه المكانة، وإذا لم تدركوا قيمة ماأعطيتم، فيهون عليكم كل ما عداه، فإن الله يستردّ ماوهب، ويختار لهذه المنّة ممّن يقدّرفضل الله.(

وفي الأخير لايسعنا إلاّ أن نردّد مع ذلك الموفّق:

يا سلعة الله لست رخيصة بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن أين المشتري فلقد عرضت بأيسر الأثمان
يا سلعة الرحمن هل من خاطب فالمهر قبل الموت ذو إمكان
يا سلعة الرحمن كيف يصبر الخطاب عنك وهم ذوو إيمان
يا سلعة الرحمن لولا أنها حجبت بكل مكاره الإنسان
ما كان عنها قط من متخلف وتعطلت دار الجزاء الثاني
لكنها حجبت بكل كريهة ليصد عنها المبطل المتوانى
وتنالها الهمم التي تسمو إلى العلا بمشيئة الرحمن
اتعب ليوم معادك الأدنى تجد راحاته يوم المعاد الثاني

فحدّد خيارك وأختر من أي الفريقين تكون حتى وإن غلبتك طبيعتك البشرية أحيانا فلا تطل عندها الوقوف، وبادر بالاستدراك والسمو من جديد كما أبدع الصيدلي الطبيب ابن القيم كذلك وهو يعظك :(لابد من سنة الغفلة، ورقاد الهوى، ولكن كن خفيف النوم، فحراس البلد يصيحون: دنا الصباح.(

فديننا دين السموّ ودعوتنا كذلك ولافخر ، وحركتنا أيضا بلا مجاملة ، لذلك يكون من أقوى دلائل الانتماء أن نرتفع إلى مستوى ذلك كله بنفوسنا وهممنا وفهمنا وإخلاصنا وعملنا وجهادنا وتضحيتنا وطاعتنا وثباتنا وتجردنا وأخوتنا وثقتنا وأخلاقنا وسلوكاتنا ومعاملاتنا وإنجازاتنا.
فهي دعوة صادقة من قلب محب ،إلى السمو على كل الأصعدة، والمنطلق هو ميدان النفس الفسيح فإمّا نكون أو لانكون.

(٣٠) الـــــــدخـــــــــلاء

يقول إبن حزم الأندلسي رحمه الله:(لاآفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها ، وهم من غير أهلها ، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعملون ويفسدون ويقدرون أنهم يصلحون)(١ .(

في الحقيقة أن آفة الدخلاء هذه لاتقتصر على ميدان العلم فقط، بل تتعدّاه إلى غيره من الميادين :

(1ـ فآفة العلم الدخلاء فيه ، الذين يجعلون ميدانه مرتعا للمراء المذموم ، وإثارة الخلافات والخصومات ، ولعل من أبرز صفات هذا الصنف في مجال العلم، جفاف الشعور وضيق التفكير وقسوة القلب والتعلق بالمراسيم والمظاهر والصلف بمعرفة الحق والميل إلى سوء الظن والجرأة على أهل العلم وأكل لحومهم تجريحا وإنتقاصا وذمّا وبغضا والوقيعة في أعراضهم والنيل من مكانتهم وإقتحام أماكن الصدارة ، ومزاحمة العلماء الكبار بزاد علمي ضئيل أو منعدم إن لم يكن مغشوش ، وجسارة عجيبة على الفتـــوى ، مـــع ســـوء الأدب وقلـــة الـــورع إلى غـــير ذلـــك .

(2ـ وآفة الدعوة الدخلاء فيها ، الذين يحولون ميدانها الشريف إلى مضمار للتهارش والتنافس غير الشريف ، والغيرة غير المحمودة ، والتعصب الأعمى ،فتنتقل موازين الحياة العابثة الغافلة غير المبالية بتعاليم السماء ، بمؤامراتها وأساليبها الرخيصة وتقاليدها العفنة إلى ميدان الدعوة، فيتلوث وتنقطع عنه موارد التوفيق الإلهي والمدد الرباني، وقد نبّه الإمام البنا رحمه الله إلى خطورة الدخلاء على ميدان الدعوة ، وحدد صفاتهم بدقة فقال:(إن كان فيكم مريض القلب معلول الغاية مستور المطامع مجروح الماضي ، فأخرجوه من بينكم فإنه حاجز للرحمة حائل دون التوفيق)(٢ .(

(3ـ وآفة السياسة الدخلاء فيها ، الذين يبنون عملهم على الإنتهازية والإستبداد والإقصاء والأحادية والمزايدة بالشعارات ،وتصفية الحسابات والإصطياد في المياه العكرة ، والقفـــــز علـــــى مصـــــالح الآخـــــرين .

تجد أشد مايقلقهم ويهز مضجعهم ، العمل السياسي الأصيل المبني على الشورى

والتعايش والمشاركة والحوار ، فيكونون أحرص الناس على تجسيد اللائكية السياسية ، فلا إعتبار عندهم لأخلقة السياسة وتدييتها ، بل هم مكيافلو التفكير والممارسة ، الغاية عندهم تبرر الوسيلة ، يوالون ويعادون ، يوافقون ويعارضون، يقتربون ويبتعدون، يقبلون ويرفضون، وفق مصالحهم الذاتية والشخصية ، لامراعاة عندهم أو لديهم لمصلحة عامة ، شعارهم:(أنا وبعدي الطوفان) (علي وعلى أعدائي .(وقد ذكر مالك بن نبي رحمه الله أن ذلك هو الخراب بعينه فقال:(إذا كان العلم دون ضمير ماهو إلا خراب الروح ، فالسياسة من دون أخلاق ماهي إلا خراب الأمة .(

وقس على ذلك بقية الميادين ، كالفكر والأدب والفن والثقافة والإقتصاد وغيرها ، تجد أن سبب بلاء كل منها ومصيبته وخرابه صنف الدخلاء هذا.

(٣١) عشارية معادلات النجاح الحمساوية

ونحن نتابع مهرجان الانطلاقة المخلّد للذكرى الخامسة والعشرين لتأسيس حركة المقاومة الإسلامية حماس ، انبهرنا بالمشهد الرائع الذي صنعته الجموع الهادرة ، التي اكتسحت ساحة الكتيبة الخضراء في غزة ، تعلن ولاءها ووفاءها وتجدد البيعة للحركة وقيادتها ومنهجها ومشروعها وشهدائها ، وتنقل رسالة واضحة للعالم أجمع ، بأن حماس هي المستأمنة على القضية ، وأن الشعب الفلسطيني أو غالبيته العظمى قد استودعها أمانة القضية بكل ما تحمله من حقوق وثوابت.

وأن أيّ طرف أو جهة إقليمية أو دولية تريد التدخل أو المبادرة ، فحماس هي بابها الكبير ، وأن تجاوز هذه الحقيقة والواقع ، هو افتئات على القضية والشعب والمنطقة ككل ، وأن المكابرة في تجاهل ذلك أو إنكاره أو القفز عليه ، هو الذي ساهم ويساهم في تسطيح الحلول وفشل المبادرات وتضييع الفرص ، لمن يطرحون أنفسهم كوسطاء ـ خاصة من الدول الكبرى ـ وإن كان معظمهم ـ إن لم يكونوا كلهم ـ في الحقيقة لا تتوفر فيهم مواصفات الوسيط ، بقدر ما هم منحازين للطرف المعتدي الظالم المحتل .

كما أن هذا المشهد المهيب ، يجعلنا ندرك ويدرك الجميع ويتأكدون ، أن الانتصارات المتتالية ، والإنجازات العظيمة ، التي تحققت وتتحقق في غزة ـ رغم الحصار والتضييق والمؤامرات ـ ، لم تكن من ضربات الحظ ، بقدر ما كانت نتيجة منطقية لكل المشهد الجميل الذي تابعناه ، وما يقدمه من دلائل عملية واقعية للقاصي والداني ، على أن ذلك كله ثمرة يانعة للمجهودات والتضحيات الكبيرة المقدمة على درب العمل والمقاومة والجهاد .

أحرى بكل الحركات الإسلامية في جميع الأقطار ، أن تستوعب دروس حماس العملية الكثيرة في غزة ، وتحسن التلمذة عليها ، وأن لا تبقى فقط أسيرة الإعجاب لما ترى وتتابع ، حتى يتكرر لنا هذا المشهد الإبداعي في أكثر من قطر ، مع تأكيد أن الظروف والبيئة تختلف من قطر إلى آخر ، ومع ما تشكله القضية الفلسطينية من خصوصية ، لكن ذلك لا ينفي ضرورة استيعاب هذه التجربة الرائدة ودروسها الماثلة للعيان ، وتطبيقها العملي ، مع بعض البهارات والتوابل المحلية لكل حركة.

ومن وحي مهرجان الانطلاقة ، والذي تزامن لأول مرة ، مع الزيارة التاريخية لرئيس المكتب السياسي خالد مشعل والوفد القيادي المرافق له إلى غزة ، استخلصت عشارية من المعادلات والمعالم والدروس الكبرى والتي ساهمت ـ بعد عون الله وتوفيقه وتسديده ـ في صناعة المشهد الذي رأيناه وعشناه بقلوبنا وعقولنا ، وكانت مجتمعة ـ في اعتقادي ـ وقودا للنجاح المتكرر والتراكمي لحركة حماس ، والذي لا يستطيع أن ينكره الأعداء قبل الأصدقاء ، أقدّمها كجدول تشغيل أو لوحة قيادة ، للحركات الإسلامية على وجه التحديد ، كي تستوعب وتستفيد :

١) ـ بركة دم القادة في سقي الشجرة وزيادة نمائها :

حيث أن هذه المعادلة تثبت ، أنه كلما ارتفع قائد إلى ربه شهيدا ، كلما زاد تجذر شجرة الحركة وزاد نماؤها ، ببركة الدم الطاهر ، ولو علم العدو الإسرائيلي المفعول العجيب لهذا الدم الزكي ، في صناعة زخم موجات الانتماء والولاء والثقة لحماس ومشروعها ونهجها ، لأعاد حساباته في جرائمه باستهداف القادة ، ولكن يأبى الله عز وجل أن يفقه هؤلاء المجرمون هذه المعادلة.

٢) ـ القوة الشاملة تفرض الاحترام على الجميع :

حيث يظهر أنه بقدر ما إستطاعت حماس أن توفر من عناصر القوة الشاملة لديها من سياسية وعسكرية ودعوية وثقافية وإعلامية وجماهيرية واجتماعية ومؤسساتية وهيكلية وتنظيمية وأخلاقية ، بقدر ما فرضت احترامها على الجميع ، سواء في الداخل الفلسطيني أو في الخارج ، لأنه إذا لم تكن تملك مقومات القوة المختلفة ، فإنه لا يعيرك أي طرف أي اهتمام ، فلا قيمة لضعيف أو فقير وسائليا أو باهت شعبيا وتنظيميا ، ولو رأينا تغيّر مواقف البعض حتى من خصوم الحركة ومنافسيها ، بعدما كانوا يكابرون ويزايدون ويشككون ويطمسون ، لعلمنا صحة هذه المعادلة وفعاليتها : أن الاحترام تفرضه وتجعله أمرا واقعا ، بقدر ما تملك وتوفر من عناصر القوة

الشاملة لديك ، وليس منة تمنح من الآخرين ، طبعا نحن نتحدث عن الاحترام في ميدان التدافع والصراع .

٣) ـ زيادة الانتشار والتجذر بعد استشهاد المؤسس :

فعادة ما تصاب الحركات بهزات وفتن ومشاكل تنظيمية ، بعد وفاة مؤسسها ، أدّت ببعضها إلى انقسامات وأزمات ، ساهمت في انحسارها وتراجعها ، واستهلكت واستنفذت الكثير من الجهود والأوقات لمعالجتها وتجاوز آثارها ، لكن في حماس المعادلة مختلفة تماما ، حيث بعد استشهاد المؤسس زاد انتشار الحركة وتعمّق تجذرها في صفوف الشعب الفلسطيني في الداخل وفي الشتات ، وارتفعت أسهم قبولها لدى الجميع ، وتطور رصيدها الشبابي والكوادري والشعبي والهيكلي والتنظيمي ، أكثر بكثير ممّا كانت عليه في عهد المؤسس الشيخ أحمد ياسين رحمه الله وفي حياته ، ولم نر أو نسمع بوجود خلافات أو انقسامات ذات بال بعدما استشهد الإمام المؤسس ، حول مسار الحركة أو تسييرها .

٤) ـ الخروج بعد كل ضربة أكثر قوة وصلابة :

فعادة كذلك ما تؤثر الضربات المتتالية والأزمات المستمرة على أي مستوى من المستويات ، على الحركات التي تتعرض لذلك بشكل سلبي في الكثير من الأحيان ، لكن في حماس المعادلة تقول عمليا : أنه بعد كل ضربة تستهدفها تزيدها قوة وصلابة وتماسك ، وترفع من قدرتها المناعية ، وترسي أسس استعصائها ، حيث تجسد حماس واقعيا قاعدة: الضربة التي لا تكسر ظهرك تقوّيك .

وهي معادلة مهمة في ميزان الصراع ، حيث تفت بها في عضد عدوك وتربكه بها وتخلط له أوراقه ، ولا تجعله يهنأ حتى بتفوقه في موازين القوى غير المتكافئ بنيك وبينه ، وهو الذي نجحت فيه حماس بامتياز.

٥) ـ المزاوجة الموفقة بين السياسة والمقاومة :

حيث راهنت الكثير من الأطراف حين دخول حماس معترك العمل السياسي والمنافسة الانتخابية ، على أن ذلك سوف يكون على حساب نهجها المقاوم ، وأنها سوف تتخلّى بالتدريج عن المقاومة ، عندما يمارس قادتها وكوادرها السلطة ، وإذا بها تخيّب ظن هؤلاء ، وتنجح نجاحا لا فتا في صناعة معادلة التوفيق والمزاوجة بين السياسة والمقاومة ، حيث استثمرت نجاحها السياسي في تقوية قدراتها المقاومة وجناحها العسكري تحديدا ، ظهر ذلك جليا في احترافيته الكبيرة في معركة حجارة السجيل الأخيرة.

٦) ـ وضوح الهوية الحركية والتمسك العملي بها :

راهنت بعض الأطراف كذلك على فقدان حماس لهويتها الحركية التي أسست على أساسها ، خاصة بعد إمساكها بمقاليد الأمور في غزة ، وأن إكراهات السلطة ومستلزماتها ستكون على حساب وضوح الهوية الحركية لحماس ، وانتمائها الفكري والتنظيمي ، وخطها السياسي والجهادي ، وإذا بهذه الهوية الحركية تزداد وضوحا وإعلانا وتجسيدا وتمسكا بها ، بعد كل نجاح وانتصار يتحقق ، سواء كان عسكري أو سياسي ، وإذا بهذه الهوية الحركية الحمساوية نلمسها حيّة واضحة معلنة مجسدة مهضومة لدى الجميع ، من أبسط جندي إلى أعلى قائد .

فمعادلة وضوح الهوية الحركية لدى حماس ، جعلها عصية على كل إرادات التدجين والارتهان لدى أي جهة أو طرف إقليمي أو دولي ، في صراع المحاور الذي صاحب القضية مدى تاريخها كلّه ولا زال شغالا.

٧) ـ القدرة الفائقة على الحشد والتجنيد :

فقد راهنت بعض الأطراف كذلك ، على غرق حماس في مستنقع السلطة والسياسة ، في ظل ظروف غير طبيعية ، تحيط بالمشهد الفلسطيني وقطاع غزة تحديدا ، ممّا سيدخل حماس ـ هكذا كانوا يراهنون ـ مع مرور الوقت ، في مواجهة مع الشعب ، بعد فشلها في تلبية حاجياته الاقتصادية والاجتماعية والخدمية والأمنية ، وضرب عنصر

الثقة الشعبية بها وبنهجها ومشروعها ، ومن ثم تجريدها من نقطة قوتها المحورية ، المتمثلة في الثقة والقبول والسند الشعبي ، حيث كان هذا من الأهداف ذات الأولوية لديهم للحصار الظالم على غزة ، فحرمانها بذلك من قدراتها التجنيدية ، ولكن العكس هو الذي حدث ـ رغم كل المؤامرات ـ حيث أن قدرة حماس على الحشد والتجنيد تتزايد بشكل تصاعدي منقطع النظير ، والصورة أبلغ من الكلام ، فالمارد الأخضر تتوسع بقعته بشكل لافت في كل مهرجان من مهرجانات الانطلاقة أو غيرها .

٨) ـ التلاحم الكبير بين القيادة والجنود والشعب الحاضن :

كذلك من المعادلات المهمة الصانعة للنجاح ، والتي أوحى بها مهرجان الانطلاقة ، ذلك التلاحم الكبير بين قيادة حماس وبين جنودها ومعهما الشعب الحاضن للحركة ولمشروعها ، حيث نلحظ ذلك بوضوح خلال زيارة خالد مشعل إلى غزة ، لنرى ذلك التلاحم العجيب بين القائد وجنوده وشعبه ، رغم أن الأغلبية الساحقة منهم ، لم يلتقوا بأبي الوليد طول حياتهم .

هذا التلاحم الذي راهنت الكثير من الجهات الداخلية والخارجية على تكسيره ودق أسافين التشكيك والوقيعة واللاثقة في جداره ، لكن باءت كل محاولاتها بالفشل الذريع.

٩) ـ الإصرار على ثوابت القضية يصنع الفرق :

كذلك معادلة مهمة أخرى للنجاح ، أصرت عليها حماس وقيادتها ، ولم تتنازل عنها أو عن جزء منها قيد أنملة ، رغم كل الضغوطات التي مورست عليها ، وهي ثوابت القضية من عدم الاعتراف بإسرائيل إلى تحرير كامل الأرض الفلسطينية إلى القدس إلى عودة اللاجئين إلى أراضيهم التي هجّروا منها قصرا وغيرها من الثوابت ، هذا الإصرار والاستماتة في الدفاع عنها ، هو من المعادلات التي صنعت وتصنع الفرق ، في العمق الشعبي الفلسطيني ، بين حماس ومن ورائها كل فصائل المقاومة ، وبين أصحاب نهج التنازل والتفريط والتفاوض والرضا بالفتات.

١٠) ـ الدور المحوري للمرأة في مشروع حماس ومسارها :

حيث عملت قيادة حماس ومؤسساتها منذ البداية ، على أن يكون للمرأة الفلسطينية ، دور محوري في التمكين لمشروع الحركة وخدمة القضية ، فكانت المرأة الحمساوية أما وأختا وزوجة وبنتا وحتى جدة ، شريكة الرجل سواء بسواء ، في كل ميادين العمل المختلفة ، فلن يخلو ميدان أو مجال إلا وتجد للمرأة فيه بصمة وشراكة ، فتجد السياسية والنائبة في التشريعي والمجاهدة والمقاومة والاستشهادية والشهيدة والأسيرة والشرطية والإعلامية والكاتبة والأديبة ورسامة الكاريكاتير، الكل ينصهر بجهده وجهاده والقيام بواجبه ، في بوتقة خدمة المشروع العام ، مهما كان سنه أو جنسه أو موقعه أو مستواه ، لتؤكد المرأة الحمساوية عمليا ، أنها مسؤولة كأخيها الرجل تماما ، وأنها لا ولن تفرط في نصيبها من التضحية والجهاد ، ونيل شرف خدمة القضية ، بكل الوسائل والأساليب ، وتسخير كل الإمكانات والقدرات والمواهب ـ إلا ما تحول بينها وبينه الضوابط الشرعية ـ .

فهذه عشارية المعادلات الحمساوية ، التي ساهمت في صناعة النجاح ، الذي حققته وتحققه حركة حماس ، والتي أوحى لي بها ذلك المشهد الرائع لمهرجان الانطلاقة المخلد لذكرى التأسيس الخامسة والعشرين.

فكل عام وحماس مدرسة متجددة ، تعطي الدروس تلو الدروس ، لمن يريد أن يتتلمذ بحق وصدق.

(٣٢) التيه عند الرتب العالية دليل عدم الاستحقاق

يقول أكثم بن صيفي)): من نال رتبة فتاه عندها ، فقد ظهر أنه نال فوق ما يستحق(1).((

إن تخييب الحركة ومؤسساتها وقيادتها وقواعدها ظن الكثير من الجهات التي كانت تعتقد أن قرار الحركة أصبح مرتهنا ، وأنها لا تملك استقلاليته وسيادته ، وأنها لا يمكن أن تذهب بعيدا في ذلك ، بسبب هذا الارتهان ، ومراهنة هذه الجهات على القدرة على تدجين الحركة ورهنها لصالحها ، أو لصالح بعض الكبراء حتى من قياداتها ومتصدّري واجهتها التنظيمية والسياسية ، ولّما نجحت هذه الجهات في ارتهان بعض هؤلاء ، اعتقدت أنهم يمكن أن يجرّوا من ورائهم الحركة بأكملها ، ويضمنوا من خلالهم بقاءها في دائرة التحكم أو في منطقة الوداعة ، بحيث تبقى متواضعة الطموح منخفضة السقف مكبّلة لا تستطيع مغادرة لحظتها تلك ولو أرادت أو حاولت ، فلمّا أثبتت الحركة ومؤسساتها وقيادتها ومناضليها عكس ذلك ، وخيّبت ظن كل هؤلاء من خلال قراراتها الأخيرة المؤسساتية السيدة ، التي كرّست أن إرادة المؤسسات غالبة على رغبات الأشخاص ، مهما كانت قيمة هؤلاء الأشخاص وصفاتهم ومواقعهم ، والتفاف رأس مال الحركة من المناضلين في كل الولايات والبلديات ، حول الحركة ومؤسساتها وقيادتها وقراراتها ، والسير بكل ثقة خلف ذلك ، وهي نقطة القوة الكبيرة المرجحة لصالح الحركة في كل مرة ، التي تغيب عن بال الجهات المراهنة على معاقبة الحركة وتفجيرها وتقزيمها ، بالعمل على التخلاط في الصف القيادي ومتصدري المشهد فيها ، وفي كل مرة يثبت فشل ذلك ، ويذهب من تم الرهان عليهم في ذلك من هؤلاء ، مهما كان صيته رنانا ، وتبقى الحركة بمؤسساتها وأبنائها ومناضليها ومحبيها ، واقفة عصية على كل إرادات التغييب والتحجيم ، كما قال سيد رحمه الله))المرة بعد المرة يصاب بعض أفراد الجماعة بنزوات ، وفي كل مرة يسقط أصحاب هذه النزوات ، كما تسقط الورقة الجافة من الشجرة الضخمة ، وقد يمسك العدو بفرع من الشجرة ويظن أنه بجذب هذا الفرع سيقتلع معه الشجرة كلها ، حتى إذا آن الأوان ، وجذب الفرع ، خرج هذا النوع في يدهكالحطبة الجافة لا ماء ولا حياة ، وبقيت الشجرة.((

إن بعض هذه الجهات تريد أن تبقى الحركة تنسج على منوال متأزم ، وتبقى حبيسة ذلك ، فتكون مؤسساتها التنفيذية والشورية دوما مؤسسات أزمة ، ينحصر عملها وبرنامجها في عمليات الإطفاء ، بعيدا عن الخطط الطموحة والإستراتجيات العالية السقف والإنجازات الكبيرة ، وتبقى تراوح مكانها يغلب عليها منطق التردد الدائم وعدم الحزم والحسم في الحين واللحظة ، ومن ثم تفقد أمنها التنظيمي والسياسي والاقتصادي ، فيكون لديها الحرص على ضمان مبررات البقاء والاستمرار ، دون التفكير في التوسع والانتشار ، والانحباس في دور الشريك الضعيف الذي يرضى بما يقدم إليه من فتات ، دون التفكير ولو بالحلم في دور البديل أو الشريك القوي الذي يفرض رؤيته وبرنامجه في مشروع شراكة سياسية جاد وحقيقي ومسؤول.

فإن فشلت إرادة هذه الجهات في حبس الحركة في هذا الموقع والمكان، عملت على معاقبتها من خلال بعض أبنائها ورجالها وقياداتها ، الذين تاهوا عند الرتب العالية التي شغلوها باسم الحركة وبمبادرة واقتراح منها ، ليثبتوا بهذا التيهان ، أنهم نالوا فوق ما يستحقون ، كما ذكر حكيم العرب أكثم بن صيفي في كلمته التي صدّرنا بها المقال.

ومظاهر تيه هؤلاء أو تيهانهم كثيرة ومتعددة لعل أهمها:

1ـ الاستعلاء على الحركة ومؤسساتها وقيادتها.

2ـ المن على الحركة بالأقوال والأفعال والممارسات.

3ـ المبالغة في الدلال الحركي والتنظيمي.

4ـ صولة الإنجاز والبروز لدى الفرد ، قياسا على ما سماه علماء السلوك بصولة الطاعة.

5ـ تفضيل المرتبة أو الموقع على الحركة عند الوقوع في امتحان المفاضلة بينهما.

6ـ عدم قبول القرارات التي من شأنها أن تحرم من هذه المرتبة ، والتخويف من مآلات هذه القرارات بحجة ضررها على الحركة.

7ـ تكون لديهم المرتبة أو الموقع والمنصب والبقاء فيه هو ميزان التعامل رفضا وقبولا.

8ـ استثقال الجندية بكل معانيها ، والاعتقاد أن المرتبة العالية استحقاق.

9ـ هشاشة الولاء التنظيمي وتقلبه ومزاجيته.

10ـ الخلط بين حراسة الحقيقة (الحركة والمشروع والمؤسسة) وحراسة الحقيبة (المرتبة والموقع والمنصب.(

إن مسار التجربة وتراكماتها ، أثمر هذا التيه أو التيهان عند الرتب والمواقع ، لدى الكثيرين لأسباب عديدة ، منها ما هو متعلق بالحركة ، ومنها ما هو متعلق بغيرها.

أما الأسباب المتعلقة بالحركة فمنها:

1ـ غياب التوازن في الموقف السياسي لمدة طويلة ، مما أنتج نوعا من الاسترخاء في زاوية واحدة ، والترنح عندها ، واستبعاد عملي لكل الخيارات والمواقف الدافعة إلى زوايا أخرى.

2ـ المراوحة لمدة طويلة كذلك في قالب واحد من المواقف ، مهما تغيرت المعطيات والأحداث ، مما جعل مواقف الحركة تدخل في دائرة المتوقع من طرف الآخر ، مما ولّد الاطمئنان أنها لا تذهب بعيدا مهما فعل بها أو تم التجاوز في حقها.

3ـ التردد وعدم الحسم لدى مؤسسات الحركة للكثير من القضايا التنظيمية والسياسية وتركها تتراكم.

4ـ تدليل (من الدلال) الذين يتبؤون الرتب والمواقع والمناصب سواء في الحركة أو باسمها ، إلى الحد الذي جعل بعضهم يغلط في نفسه فيعتقد أنه أصبح أكبر من الحركة ومؤسساتها.

5ـ غياب سياسة واضحة لدى مؤسسات الحركة للمتابعة والمحاسبة والتقويم والتقييم.

6ـ الإبقاء على نفس الأشخاص في المواقع السياسية والتنفيذية لمدة طويلة ، الأمر الذي جعلهم يعتقدون بأحقيتهم الدائمة لذلك دون غيرهم ، مع عدم هضمهم لإمكانية مغادرتها يوما.

7ـ استعلاء الكثيرين ممن تاهوا عند الرتب والمواقع ، وانقطاعهم عن العملية التربوية ومحاضنها وضوابطها وسمتها ، دون تدخل مؤسسات الحركة لإلزامهم بذلك.

8ـ عدم وضع أي اعتبار لرأي ولايات بعض هؤلاء أو عند اختيارهم للموقع أو الرتبة مركزيا وتكرار ذلك ، الأمر الذي راكم المشكلة ، ورسخ لدى هؤلاء الانفلات التنظيمي.

أما أسباب التيه أو التيهان المتعلقة بغير الحركة ، فإن مردّها إلى أمر رئيسي واحد ، تتفرع عنه كل الأسباب الأخرى ، وهو ما سماه الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله بالفجور السياسي في رسالته)): الفجور السياسي والحركة الإسلامية ((، وما صنعه هذا الفجور من أجواء فساد وإفساد للعمل السياسي عموما وتلويثه ، وربطه فقط بالمغانم وما يدره من مردود نفعي ومصلحي ، بعيدا عن الهدف الحقيقي للعمل السياسي كعمل تغييري وإصلاحي نحو الأفضل ، فأستطاع هذا الفجور السياسي ـ للأسف الشديد ـ أن يلغم الساحة السياسية ويؤزمها ويفسدها ، بحيث استهدف كل الأحزاب بمختلف توجهاتها ، فإما أن تتورط في هذا الفجور وتطبّع معه وتغرق في أوحاله وتقع في شباكه ، فتصبح من أدواته ومكوناته ، فإن مارست بعض التمنع والمقاومة والرفض ، استهدفت من داخلها وخارجها ، للتدجين أو التقزيم أو التقسيم أو التفجير ، وإلهائها بأزماتها ومعاركها الداخلية ، لصرفها عن صدق الاهتمام بالشأن العام ، والالتفات إلى القضايا الكبرى خاصة السياسية منها ، وتركها تصارع البقاء ، دون أن تتطلع لرفع سقفها وطموحها السياسي لأكثر من ذلك.

إن هذا الفجور السياسي وتداعياته وآثاره وإفرازاته المختلفة ، هو السبب الرئيسي لمعظم الأزمات والمشاكل التي عانتها وتعانيها أحزابنا السياسية بما فيها الحركة ، وهو الذي ساهم في توالد الكثير من الكائنات السياسية المشوهة ، وبعضها ولد سقطا ، ليصيب الساحة السياسية بنوع من الإسهال والتمييع ، مما كرّس ظاهرة العزوف وانسداد الشهية عن العمل والاهتمام السياسي لدى فئات عريضة من الرأي العام

والوطني. ففي كل مرة تنحو فيها الحركة ومؤسساتها نحو إثبات استقلالية قرارها السياسي ، وتحررها من كل ارتهان لأي جهة كانت ، وأنها تملك الكثير من مقوّمات المناعة والحصانة وقوارب النجاة من الغرق في أوحال الفجور السياسي أو ما سماه الرافعي رحمه الله في اللهب ولا تحترق مهما كان موقفها وخيارها وموقعها السياسي ، يظهر منطق التيه أو التيهان عند الرتب والمواقع هذا لدى البعض ، فيرسبون في امتحان الاختيار بين الحقيقة والحقيبة ، أو بين الحركة والمنصب ، فيتمايز الرجال في مثل هذه المحطات ، بين رجال تصمد بهم الحركة وتبقى بهم واقفة ، وبين رجال تصدم فيهم وبهم الحركة عندما يقعوا صرعى الرتب والمواقع والمصالح ، ويتيهون عندها في أول امتحان ، فيطرق إليهم الإحتمال ، فيسقط بهم الاستدلال مهما بلغوا من الهالة والبريق ، لينطبق على سلوكهم المثل القائل)): من ودّك لشيء ولّى مع انقضائه ((، ليكون حالهم مع الحركة كحال الذي قيل فيه:

فيا عجبا لمن ربّيت طفلا ألقمه بأطراف البنان

أعلّمه الرماية كل يوم فلمّا اشتد ساعده رماني

وكم علّمته نظم القوافي فلمّا قال قافية هجاني

وكما قال الأديب العالمي شكسبير على لسان الملك(لير) في رائعة من روائع الأدب العالمي)): ليس أشد إيلاما من ناب حيّة رقطاء غير ابن جحود.((

فكل من تاه ويتيه عند أي رتبة أو موقع أو منصب يناله ، بأي من مظاهر التيه التي ذكرنا بعضها ، فقد أثبت فعلا أنه نال فوق ما يستحق ، ومن بدّل بيته وحركته بثمن بخس ، مهما غالط نفسه بعلو قيمة هذا الثمن ، ومهما صنع لنفسه من المبررات والأعذار والحجج ، فله وما أختار ، وبيننا وبينه الزمن ، وتخاطبه الحركة بلسان حالها ومؤسساتها وقيادتها ومناضليها الأوفياء:

لا أبتغي وصل من لا يبتغي صلتي ولا ألين لمن لا يبتغي ليني

والله لو كرهت كفي مصاحبتي لقلت للكف بيني إذ كرهتيني

(٣٣) الرائد لا يكذب أهله

يقول صمويل جونسون:((سأظل دائما أتقبّل رأي الناقد ورأي الحاسد ، فالأول يصحّح مساري ، والثاني يزيد من إصراري.((

إن الزخم الكبير من الآراء المتباينة الذي أثارته تداعيات صناعة موقف الحركة الأخير من نتائج تشريعيات العاشر ماي ٢٠١٢ ، قبل وأثناء وبعد ، سواء من الداخل الحركي على كل مستوياته ، أو من الأطراف الأخرى المختلفة ، وحالة الترقب لهذا الموقف ، التي جعلت الجميع ينتظره بشغف ، ويحاول الدفع به إلى الوجهة التي تفيده وتخدمه ، فالسلطة كانت تنتظره لتستقر ، والمعارضة كانت تنتظره لتنتعش ، ووسائل الإعلام كانت تنتظره لتصنع منه مادة دسمة تشغل بها الرأي العام لأيام ، وبعض الجهات الخارجية كانت تنتظره لإدراكها أنه مؤشر مهم في الحكم السليم على العملية الانتخابية ونتائجها وإفرازاتها ، والمناضلون كانوا ينتظرونه ليطمئنوا من ناحية وليتفاعلوا من ناحية أخرى.

هذا الحراك الذي أحدثه التفاعل مع موقف الحركة ـ ومازال ـ بكل صوره وتجلّياته، هو مؤشر صحة ودليل خصوبة وعلامة حياة وزيادة نضج وتنامي وعي داخليا مع ضرورة تسييجه ببعض الأدب وعدم التطاول والابتعاد عن المبالغة والتهويل والوقوع تحت تأثير حملات القصف والاستهداف من هذا الطرف أو ذاك ، بحيث ننتقد دون أن نتحامل أو نكثر من جلد الذات ، ونراجع المسيرة دون أن نغفل عن الإنجازات أو نتنكر لعطاءات السابقين والحاضرين ، لإدراكنا أن التماثل يؤدي إلى الرتابة ، في حين يؤدي التنوع إلى الثراء ، لأنه أذا اتفق اثنان في كل شيء ، فلا حاجة إلا لواحد منهما كما قيل ، أما خارجيا فهو أمارة لا تخطيء على قيمة الحركة وموقعها المهم والمتميز في الساحة الوطنية ، التي ثبت بما لا يدع مجالا للشك ، أنها ـ أي هذه الساحة ـ تفقد طعمها ولونها ورائحتها ، كلما تضاءل حضور الحركة فيها لأي سبب من الأسباب.

لذلك نقول لأبناء الحركة ومحبيها ، أبشروا بكل هذا التفاعل ، وبكل هذه الآراء ، فهي في الأول والأخير تصب في رصيد الحركة ، وتزيد في أسهمها بلغة أهل الاقتصاد ، وتؤهلها فعليا بعيدا عن كل شوفينية أو ديماغوجية إلى القيادة والريادة. سواء الآراء

الناقدة التي يكون مصدرها الأبناء والمحبين والمشفقين وحتى المراقبين المحايدين ، أو الحاسدة التي يكون مصدرها الناقمين والمتربصين والشامتين والمغرضين.

أما الأولى فتساهم في تصحيح المسار وتصويب المدار وتحصين الديار ، وأما الثانية فتزيد في الإصرار وتدفع إلى الاستمرار وتعبئ الأنصار ، وفي كل خير .

فلا خشية ـ إن شاء الله ـ على الحركة لا من تداعيات الموقف على مستوى الداخل الحركي ، ولا من الحملات وحتى محاولات التخلاط التي قام ويقوم بها البعض على المستوى الآخر الإعلامي أو السياسي ، لأن الحركة تجاوزت مرحلة المراهقة السياسية ، وبلغت من النضج ما يمكّنها من أن تصنع من ليمونة كل ذلك الحامضة ، شرابا حلوا سائغا للشاربين ، وتملك من المناعة ما يجعل جدار صدّها تنكسر دونه كل سهام المغرضين ، ومن المؤسسية ما يجعل قرارها مستقلا عن كل إرادات الضغط والتوجيه والتأثير فيه ، بما قد يخدم مصالح الجهات التي تحاول ذلك ، ومن التماسك ما يخيب آمال كل المراهنين على زعزعتها وهدّ كيانها وتفجيرها ، ومن الثقة بالنفس وبقدرات أبنائها ما يفوّت الفرصة على كل الساعين إلى تقزيمها وإبعادها من صدارة المشهد السياسي الوطني.

ففي كل الحالات ، ومهما كانت هذه الآراء في مسيرة الحركة ومواقفها ناقدة أو حاسدة أو حاقدة ، فإن الثابت أن هذه الحركة باقية ـ بإذن الله ـ بقاء هذا الوطن ، ومستمرة استمرار هذا الشعب ، ومصرّة على مواصلة طريقها إصرار شرفاء هذه الأمة ، مهما كانت العراقيل والتحديات ، فهذا قدرها الذي رضيته وسلمت به منذ انطلاقتها على يد مؤسسها رحمه الله ، وإن أقدمت ـ مع كل ذلك ـ بطيب خاطر منها ، على مراجعة خطتها ، وقيّمت مسارها ، واعترفت بتقصيرها ، وحاسبت ذاتها ، وسدّت خللها ، وعالجت بعض الضعف الذي اعتراها ، وجدّدت وسائلها ، وحسّنت أداءها ، وطوّرت عملها ، وثمنت إنجازاتها ، وحافظت على مكتسباتها ، واصطفت أكثر مع شعبها ، فالرائد لا يكذب أهله مهما كانت الظروف.

فالحركة تتجه ـ بفضل الله ـ نحو طور جديد ، وتعيش تحولا حقيقيا نحو الأفضل ، في تموقعها السياسي ، والذي يتناسب والواقع الجديد ، من الممكن أن يكون له ثمن

وضريبة ، حيث حدث ذلك في معظم نقاط التحوّل الكبرى في حياة الحركة منذ تأسيسها.

وإن الموقف الأخير رغم الأجواء التي ولد فيها ، والذي شرّع لهذا التحول ، استطاع أن يعمق ولاء المناضلين للحركة ومؤسساتها وقيادتها ، ويلتفوا أكثر حولها ـ رغم كل الحراك النضالي الذي حدث ويحدث ـ ، الأمر الذي جعل لديهم حساسية من كل ما من شأنه أن يشوش مجددا على هذا التناغم والانسجام ، وإن كان بحسن نية.

نريد أن نؤكد في الأخير أن الحركة رغم كل ما قيل ويقال من آراء حول مواقفها وخياراتها واجتهاداتها السياسية خاصة الأخيرة منها ، تبقى بين رأيين ، سواء الناقد بحب وأدب وموضوعية ، أو الحاسد بانتقاص وتشكيك وتشويه ، ليس أحلاهما مرّ كما يقال في المثل العربي ، وإنما أمرّهما حلو بتوفيق الله وحفظه وتسديده ، وسيظل مستقبلها مشرقا بإذن الله.

(٣٤) الشيخ نحناح : ثراء التجربة ومسؤولية التوثيق

لقد آليت على نفسي أن أكتب مقالا حول حياة الشيخ محفوظ نحناح رحمه الله ، كلّما حلّت ذكرى رحيله ، وهذا من أقلّ حقوقه علينا كأبناء للحركة التي بذر بذرتها الأولى ، وسقاها بجهده وجهاده وفكره واجتهاده ، وقد تمحورت مقالاتي السابقة حول مناقبه وفضائله وهي أكثر من أن تحصى وأوسع من أن تحصر، لكن هذه المرة أريد أن أتطرّق إلى جانب آخر مهم يتعلّق بتراث الشيخ العلمي والفكري وتجربته التطبيقية والعملية ـ وإن كان الأمر لا يخلو بدوره من المناقب والفضائل ـ.

لقد كان لهذا التراث الزاخر والتجربة الثرية أثرهما البالغ الذي لم يقتصر على الجزائر كوطن والحركة كتنظيم ، بل امتد إلى العالم الإسلامي أجمع ، لأن الشيخ كان أكبر من كونه رجل حركة وجماعة وتنظيم وفقط ، بل كان رجل أمة ووطن ، فقد عمل وقدّم وضحّى وأنتج وأبدع وزرع ومكّن وفتح قلوبا وعقولا وحصونا للحق والخير والفضيلة ، كما أنه علّم ودرّس وحاضر وحاور وأصّل وشرح وأصلح وبادر وناقش وأقنع وأوضح وجلّى ، وسافر وطاف كل ربوع الدنيا ، عارضا لدعوته خادما لفكرته منافحا عن دينه وأمته ووطنه . فقد كان الشيخ محفوظ كتابا مفتوحا متنوّع المواضيع متعدّد المواهب ، تجد فيه من كلّ بستان باقة أزهار وليس زهرة واحدة ، جمع فيه ما تفرّق في غيره ، جهادا وإنجازا وإبداعا على كل الجبهات وفي كل المجالات ، فقد كان له في كل ساحة أثر وفي كل ميدان بصمة وفي كل زاوية نور.

فشخصية فذة مثل شخصيته بما تحمله من صفات وخصال وإنجاز وتميّز وتنوّع ، جعلت منه كاريزما دعوية وسياسية واجتماعية ، سواء داخل الحركة والصف الإسلامي عموما ، أو على مستوى المجتمع والوطن ككل بمختلف فئاته ، وإن على مستوى الأمة وقضاياها ، وكذلك الدعوة العالمية ونشاطاتها وفعالياتها ومؤتمراتها ومؤسساتها ودعاتها وأبنائها.

فكان لإسهامات الشيخ هذه واجتهاداته وإبداعاته اليد الطولى في ترشيد وتوجيه الصحوة والحركة الإسلامية وتسديد خياراتها ومواقفها الدعوية والسياسية وإثراء حتى قاموسها المفاهيمي والمصطلحي ، الأمر الذي جعله لا يقلّ إبداعا واجتهادا

ومساهمة وتجربة على روّاد ومؤسسي الحركة الإسلامية العالمية ـ إن لم يفق بعضهم ـ بداية من الإمام البنا ومرورا بالسباعي والصواف والياسين ويكن وكذا الإمام المودودي وأربكان وغيرهم.

فأين هي كل هذه الإبداعات والمبادرات والإسهامات ؟؟؟

وأين هي كل هذه المحاضرات والدروس والحوارات ؟؟؟

وأين هو كل هذا التراث والتجربة ؟؟؟

وأتساءل كما يتساءل غيري : ماذا كان يفعل مرافقو الشيخ والمقربون منه أثناء مصاحبتهم إياه في حلّه وترحاله داخليا وخارجيا ، وقد عجزوا عن توثيق وتدوين وتسجيل ما رأوه وسمعوه بالشكل الكافي ، لحفظ كل ذلك للأجيال ؟؟؟

لأننا نخشى أن يكون الشيخ رحمه الله بمجرد أن انتقل إلى جوار ربه ، تكون قد طويت معه الكثير من الإبداعات والتجارب والاجتهادات والمبادرات والأفكار والإنجازات والمعلومات والأسرار وإلى الأبد ، كان يمكن أن يستفاد منها الشيء الكثير ، وتغني رصيدنا الحركي ، الفقير أصلا في هذا الجانب ، لو حفظت ووثقت وكتبت ودوّنت ونشرت.

لأننا ونحن نشير إلى أهمية تراث الشيخ الفكري وثراء تجربته العملية ـ وهو ما يعترف به الجميع ـ لا بد أن نشير كذلك إلى ما يقابل ذلك من مسؤولية توثيق هذه التجربة وحفظ هذا التراث ونشره إعلاميا ، حيث أن الأمر أصبح يشكل أكثر إلحاحا وضرورة وأولوية ، وغير قابل إطلاقا للتقصير والتأجيل والتبرير وصناعة الأعذار ، ويتطلب من الجميع ـ خاصة القائمين على شؤون الحركة ـ أن تتظافر جهودهم في تدارك الوضع وإنقاذ هذا التراث قبل فوات الأوان ـ هذا إن لم يكن بعضه قد فات عليه الأوان أصلا ـ ، وعدم الاقتصار على المظاهر البروتوكولية في إحياء ذكرى رحيله ، والانتقال إلى خطوات أكثر احترافية وشعور بالواجب والمسؤولية تجاه الرجل وتراثه وتجربته ، فكم كنا نتمنى ـ ونحن نعيش أجواء الذكرى التاسعة لرحيله ـ أن نرى على الأقل الأعمال الكاملة (من محاضرات ودراسات وشهادات ومداخلات كقراءة في فكره وتجربته) للملتقيات الدولية الثمانية ـ ونحن في التاسع ـ المنعقدة منذ وفاته ،

مطبوعة وجاهزة على شكل كتب ومجلدات ، تكون في متناول أبناء الحركة والدارسين والمتابعين والمهتمين من ناحية ، وتحفظ للأجيال من ناحية أخرى كسائر ملتقيات الدنيا.

لأننا نخشى هنا كذلك أن يكون هذا التراث والمادة المقدمة خلال ثمانية أو تسعة ملتقيات قد ضاعت أو فقدت أو بعضها على الأقل ، لنكرر النداء للقائمين على شؤون الحركة بضرورة طبع أعمال هذه الملتقيات وهو من مسؤولية التوثيق التي نتحدث عنها في هذا المقال.

كذلك من مسؤولية التوثيق هذه ، والاهتمام الواجب بتراث الشيخ وتجربته ، أن نرى كذلك موقعه الرسمي الخاص على الانترنت ، الحافظ لتراثه وتجربته ونشاطاته ومساهماته ورحلاته وصوره ، ليكون متاحا للعالم أجمع ، حتى لا يشكّل الشيخ رحمه الله نشازا لمعظم قادة وعلماء ودعاة العالم الإسلامي الأحياء منهم والأموات ، الذين لهم مواقعهم الخاصة بهم والجامعة لإنتاجهم العلمي والعملي.

لأن القصور في توثيق التجربة ، سيؤثر سلبا على حسن تسويقها إلى الآخرين في داخل الوطن وخارجه ـ وهو الحاصل للأسف ـ ، لذلك ليس مستغربا أن تسمع في الحصص التحليلية في الفضائيات منذ سنوات ، وتقرأ في الجرائد والمجلات والدوريات ، وتتصفح مواقع الا نترنت ، وتتطلع على تقارير مراكز الدراسات ، الراصدة لتجارب الحركات الإسلامية وقادتها ومفكريها ، فتجد التحليل والحديث والتقييم والثناء على تجارب إسلامية في المغرب واليمن والأردن ومصر وتونس وموريتانيا وتركيا وماليزيا واندونيسيا وحتى جزر المالديف ، ويضرب بها المثل الإيجابي ، أما عندما يصل الأمر عندنا في الجزائر لا نذكر إلا على سبيل المثل السيئ ، ولا يشار إلا إلى الجوانب السلبية ، أو يتم تجاهل التجربة تماما ، أو يتم التوقف عند بداية التسعينات من القرن الماضي ، ولا تكاد تسمع اسم الشيخ محفوظ يتردد في كل ذلك إلا ما ندر ، وكأنه لا وجود لشيء إيجابي في تجربة الحركة في الجزائر ، رغم أنها أغنى وأثرى وأنضج بكثير من معظم التجارب التي ذكرتها من قبل ، ولكن اللوم في الأول والأخير يقع على أصحاب التجربة وورثة الشيخ وتلاميذه ، لأن لديهم خلل في التدوين والتوثيق والتسويق ، بحيث لم يحسنوا الحديث عن أنفسهم ، كما أنهم لم يسوّقوا

تجربتهم إلى الآخرين كما ينبغي ، الأمر الذي ولّد جهلا بالتجربة ، أو وصلت الصورة في كثير من الأحيان مشوّهة أو ناقصة أو قاصرة ، ويعلوها الكثير من والغبش ولا تفي بالغرض.

فلا بد أن نعترف ونؤكد بشكل صريح أن من إشكالياتنا الكبرى كأبناء للحركة الإسلامية الجزائرية ، أننا في الكثير من الأحيان لا ندرك نفاسة ما عندنا ، ولا نحسن الحديث عن أنفسنا ، فالسلعة التي لا تجد عارضا جيدا خبيرا ، سيصيبها الكساد والبوار والزهد فيها مهما كانت نفاستها ، أو يتم تجاهلها وعدم الاهتمام بها أصلا.

لذلك نجد الكثير من أعلامنا وعلمائنا ومفكرينا ودعاتنا ينطبق عليهم ما قاله الإمام الشافعي عن الإمام الليث بن سعد المصري رحمهما الله):الليث أفقه من مالك ، ولكن ضيعه قومه.(

فكم من عالم نحرير دفناه بجهلنا وتقصيرنا، وكم من داعية بارع أهملناه بمنطق :(مغنية الحي لا تطرب) ، وكم من مفكر مبدع ضيعناه وزهدنا فيه بسبب ما نعانيه من شغف مبالغ فيه بكل ما هو وافد على حساب ما هو بين أيدينا.

هذا الأمر جعلنا لا نعرف قيمة مالك بن نبي رحمه الله ، إلا بعد عناية أهل الشام ومصر وشرق آسيا(الماليزيون تحديدا) به وبفكره ، ولا ندرك قيمة ابن باديس والإبراهيمي والورتلاني رحمهم الله ، إلا بعد اهتمام إخواننا المشارقة بهم ، ولم نهتم وننتبه ـ بالشكل الكافي ـ لمحفوظ نحناح رحمه الله ، إلا بعد المقالات والشهادات التي سطرها دعاة العراق ومصر والخليج والشام واليمن والمغرب في إبداعاته واجتهاداته الدعوية الموفقة بعد موته، ـ هذا إن كان هناك معرفة واهتمام وإدراك وانتباه يمكن أن يذكر ـ وقد وصدق الإمام ابن باديس رحمه الله لّما قال))إنما تقاس درجة الأمم بما تنتجه من الرجال ، وإنما تكون منجبة للرجال يوم تصير تعرف أقدار العاملين من أبنائها.((

وكأن الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله كان يدرك ويعي هذه الحقيقة المرة ، لما أوكل مهمة نشر تراثه الفكري وكتبه من بعده إلى المحامي والوزير اللبناني عمر مسقاوي ،

وكذا ترجمة أغلب كتبه إلى العربية من طرف الدكتور عبد الصبور شاهين رحمه الله ، ولم يوكل ذلك لأحد من الجزائريين.

إن تصحيح هذا الوضع والتحرر من هذا الانطباع وتجاوز هذا التقصير ، في حق أعلامنا الكبار وفي مقدمتهم الشيخ محفوظ رائد مسيرتنا الدعوية والحركية ، وما يمثله تراثه من هوية فكرية ومفاهيمية للحركة ، إضافة إلى أصالتها وتجربتها العملية ، يعتبر من واجبات الوقت المهمة التي لا تحتمل التأخير أو التسويف ، وفاء للرجل وخدمة للأمةوتوريثا الأجيال ، لأن

ثراء تجربة الشيخ وغزارة تراثه وعمقه ، تحتم على أبنائه وخلفائه ومحبيه مسؤولية كبرى في توثيق ذلك وتدوينه ونشره وتسويقه.

فما أعظم الكتلة الجمالية لهذا الرجل ـ كما سمّاها الشيخ الراشد ـ لو وجدت من يستجمع كل مكوّناتها ويبرزها بشكل أكثر جلاء ، لأن الشيخ محفوظ رحمه الله من الرجال الذين ينطبق عليهم بامتياز ما قاله المرشد عمر التلمساني عن الإمام حسن البنا رحمهما الله)): حسن البنا كلما باعدت الأيام بيننا وبين يوم استشهاده ازدادت شخصيته وضوحا وإشراقا وإثارة نور وبهاء .. إنه كاللوحة الفنية البديعة .. كلما ابتعدت عنها محملقا في روعتها كلما وضح أمام ناظريك رواؤها ودقة الإبداع فيها .وحقا ما مضي عام إلا ازداد تاريخ حسن البنا وضوحا في ميادين الدعوة الإسلامية ، وظهر ما أجراه الله من خير على يديه للإسلام والمسلمين.((

في الأخير لا يسعنا إلا أن نترحم على الشيخ في ذكرى وفاته ، ونعاهده على الثبات على منهجه ، والمضي قدما على خطاه ، للتمكين للأفكار التي جاهد في سبيلها ، ومات من أجلها ، إلى أن نلحق به ونحن على ذلك غير مبدّلين ولا مغيّرين ، متمنين من كل قلوبنا أن تقر أعيننا بتراثه الفكري وتجربته وما قيل عنه والقراءات المتعددة في فكره وأعمال ملتقياته التي عقدت ، مطبوعة بين أيدينا بثوب قشيب وحلّة بهية ، لينهل الجيل بكاملة مشرقا ومغربا من معينها الرقراق ، وتكون نبراسا هاديا للحركة الإسلامية في العالم العربي والإسلامي وهي في أمس الحاجة إليه في هذه المرحلة المفصلية والحاسمة ، وما ذلك على الله بعزيز.

(٣٥) التيه عند الرتب العالية دليل عدم الاستحقاق

إن غاية مايصبو إليه المؤمن في الدنيا والآخرة ويسعى جاهدا للوصول إليه ، وأعز أمنية له هي أن يرضى الله عنه كما عبّر عن ذلك شيخ المجاهدين أحمد ياسين رحمه الله :(أملي أن يرضى الله عني) .

فإذا أردت أخي المؤمن أختي المؤمنة أن يضحك الله لك ، لانه إن ضحك لك سبحانه فقد رضي عنك وإن رضي عنك وفّقك إلى الخير دائما في الدنيا وضمن لك ما لاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر في الآخرة ، إذا أردت ذلك فما عليك إلا أن تقدم الثمن

وهو:

١) ـ الإيثـــار: أهل الإيثار من المؤمنين في الدنيا يضحك الله لهم جرّاء صنيعهم ، كما ورد في القصة التي وردت في البخاري والتي رواها أبو هريرة رضي الله عنه عن ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي لم يجد عند نسائه ما يستضيفه به ، فضافه رجل من الأنصار ، ولم يكن أفضل حال من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجد إلا قوت عياله ، فطلب من زوجته أن تنومهم وأن تطفيء المصباح حتى يأكل الضيف وحده ، فلما أصبح الرجل وغدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: (ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما) فأنزل:(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(الحشر٩) . والإيثار الذي يضحك المولى سبحانه لاينحصر في إطعام الضيف بل يمتد إلى كل مجالات الحياة .

٢) ـ عدم اليأس والقنوط من رحمة الله : ثاني الاعمال التي تضحك الله لك محو كلمة اليأس والقنوط من حياتك ، إذ لاحياة مع اليأس ، فلاتقنط من رحمة الله مهما تعددت ذنوبك وكثرت معاصيك أقبل عليه بنفس منكسرة ذليلة بصدق وإخلاص فسيفرح بك ويضحك لك ولاتكن تلك العجوز الأعرابية أعقل منك والتي سألت عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :(من يحاسبنا يوم القيامة ؟ فقال لها :

الله عز وجل ، فقالت : فزنا ورب الكعبة ، فقال لها : لما ؟ قالت : إن الكريم لايدقّق في الحساب).

وعن أبي رزين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ضحك ربّنا من قنوط عباده وقرب غيره ، قال قلت يارسول الله : أويضحك الرب عز وجل ؟ قال : نعم ، قال: لن نعدم من رب يضحك خيرا) (رواه أحمد وابن ماجة).

٣) ـ صلاة الجماعة والجهاد وقيام الليل : هذه الثلاثية الذهبية ممّا يضحك الله لعبده ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(ثلاثة يضحك الله إليهم ، الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفّوا للصلاة ، والقوم إذا صفّوا للقتال)(رواه أحمد).

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثلاثة يحبهم الله ، و يضحك إليهم ، و يستبشر بهم : الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز و جل ، فإما أن يقتل ، و إما أن ينصره الله و يكفيه ، فيقول : انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه . والذي له امرأة حسنة و فراش لين حسن ، فيقوم من الليل ، فيقول : يذر شهوته و يذكرني ، و لو شاء رقد و الذي إذا كان في سفر ، و كان معه ركب ، فسهروا ، ثم هجعوا ، فقام من السحر في ضراء و سراء)(حديث حسن فى صحيح الترغيب).

٤) ـ الثبات وعدم النكوص : ومن الاعمال المهمّة التي تضحك الرب لعبده ثباته على الطاعة والعمل الصالح والجهاد في سبيله والعمل للتمكين لدينه وعدم النكوص عن ذلك مهما كانت العقبات والعراقيل والصوارف والجواذب إلى أن يلقى ربه وهو على ذلك غير مبدل ولامغير ، فعن نعيم بن همار الغطفاني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الشهداء الذين يقاتلون في سبيل الله في الصف الأول ، و لا يلتفتون بوجوههم حتى يقتلوا ؛ فأولئك يلقون في الغرف العلا من الجنة يضحك إليهم

ربك ، إن الله تعالى إذا ضحك إلى عبده المؤمن فلا حساب عليه)(حديث صحيح فى صحيح الجامع).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:(رجلان يضحك الله إليهما ، رجل تحته فرس من أمثل خيل أصحابه فلقوا العدو فانهزموا ، وثبت إلى أن قتل شهيدا ، فذلك يضحك الله منه ، فيقول : انظروا إلى عبدي لايراه أحد غيري)(مصنف عبد الرزاق).

٥) ـ الانغماس في العدو : عن عاصم بن عمر بن قتادة قال:(لما إلتقى الجمعان يوم بدر ، قال عوف بن عفراء بن الحارث رضي الله عنه :(يارسول الله مايضحك الرب تبارك وتعالى من عبده؟ قال:(أن يراه قد غمس يده في القتال يقاتل حاسرا ، فنزع عوف درعه ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل)(البيهقي في السنن الكبرى).

٦) ـ كن على خطى سعد بن معاذ: كن على خطى الصحابي الجليل سعد بن معاذ رضي الله عنه سبقا وتضحية وتجردا وجهادا وإيثارا وحرصا على رفع راية الحق خفاقة في العالمين وحبّا لله ورسوله ،وأقرأ سيرته العطرة وتشبّه به يضحك الله لك ،فعن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية رضي الله عنها قالت: (لما مات سعد بن معاذ صاحت أمه فقال لها رسول الله ألا يرقأ دمعك و يذهب حزنك فإن ابنك أول من ضحك الله إليه و اهتز له العرش)(رواه الحاكم).

٧) ـ التوحيد وإخلاص العبادة لله وحسن الخاتمة: أحرص على التوحيد الخالص وأخلص العبادة لمولاك وقدّم مستلزمات ضمان حسن الخاتمة والموت على الإسلام ، تحجز مكانا في فريق الذين يتجلّى لهم ربهم ضاحكا راضيا ،عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله:صلى الله عليه وسلم :(يجمع الله عز و جل الأمم في صعيد يوم القيامة فإذا بدا لله عز و جل أن يصدع بين خلقه مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون ، فيتبعونهم حتى يقحمونهم النار ، ثم يأتينا ربنا عز و جل و نحن على مكان رفيع ، فيقول : من أنتم ؟ فنقول : نحن المسلمون ، فيقول : ما تنتظرون ؟ فيقولون :

ربنا عز و جل ، قال : فيقول : و هل تعرفونه إن رأيتموه ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : كيف تعرفونه و لم تروه ، فيقولون : نعم إنه لا عدل له ، فيتجلى لنا ضاحكا ، فيقول : أبشروا أيها المسلمون فإنه ليس منكم أحد إلا جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا)(رواه أحمد).

٨) ــ كثرة التكبير والتحميد والتسبيح والتهليل: أكثر من ذكر الله ، وأملأ صحيفتك تكبيرا وتحميدا وتسبيحا وتهليلا ، تنل شرف ضحك ربك لك، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أردفه على دابته ، فلما استوى عليها كبر رسول الله ثلاثاً و حمد الله ثلاثاً وسبح الله ثلاثاً وهلل الله واحدة ، ثم استلقى عليه فضحك ، ثم أقبل علي فقال : ما من امرىء يركب دابته فيصنع كما صنعت إلا أقبل الله تبارك وتعالى فضحك إليه كما ضحكت إليك)(رواه أحمد).

٩) ـ المهم أن تضمن الجنة وإن كنت آخر الداخلين: عن أنس عن بن مسعود رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشي مرة ويكبو مرة وتسفعه النار مرة فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال : تبارك الذي نجاني منك لقد أعطاني الله شيئا ما أعطاه أحدا من الأولين والآخرين فترفع له شجرة فيقول :أي رب أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها وأشرب من مائها فيقول الله : يا بن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها فيقول : لا يا رب ويعاهده أن لا يسأله غيرها وربه يعذره لأنه يرى مالا صبر له عليه فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى فيقول : أي رب أدنني من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها لا أسألك غيرها فيقول: يا بن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها فيعاهده أن لا يسأله غيرها وربه يعذره لأنه يرى مالا صبر له عليه فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين فيقول : أي رب أدنني من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها لا أسألك غيرها فيقول: يا بن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني

غيرها ؟ قال : بلى يا رب هذه لا أسألك غيرها وربه يعذره لأنه يرى مالا صبر له عليها فيدنيه منها فإذا أدناه منها فيسمع أصوات أهل الجنة فيقول : أي رب أدخلنيها فيقول : يا بن آدم ما يصريني منك أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها قال: يا رب أتستهزئ مني وأنت رب العالمين ؟ فضحك بن مسعود،فقال : ألا تسألوني مم أضحك ؟ فقالوا مم تضحك ؟ قال : هكذا ضحك رسول الله فقالوا : ممّ تضحك يا رسول الله ؟ قال : من ضحك رب العالمين حين قال أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك ولكني على ما أشاء قادر)(رواه مسلم).

١٠) ـ رجلان يقتل الواحد الآخر ويدخلان الجنة: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عز و جل يضحك من رجلين يقتل أحدهما الآخر فيدخلهما الله عز و جل الجنة ، قيل : كيف يكون ذلك؟ قال : يكون أحدهما كافراً فيقتل الآخر ، ثم يسلم فيغزو في سبيل الله فيقتل).(رواه أحمد).

هذه عشارية جميلة تضحك الله لعبده ، وماأسعد من ضحك الله له فذلك معناه الرضى ومن ثم النعيم الدائم، لذلك كان الصحابة يبحثون عن الاعمال التي تضحكه سبحانه فيفعلونها لينالوا هذا الشرف وهذه المكانة الرفيعة عند خالقهم ، فلنكن على دربهم ونلزم طريقهم و لنعمل بجد وإخلاص على إضحاك ربنا لنا ، فلن نعدم من رب يضحك خيرا ،فالمنهج واضح والطريق بيّنة فلايصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

(٣٦) نُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا

يقول عتبة بن غزوان رضي الله عنه :((لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا من الطعام إلا الدقل وحسك السعدان ، حتى تقرّحت أشداقنا ، ولقد شققت نمرة (عباءة) بيني وبين سعد ، وها أنذا أنظر فلا أرى منا إلا أمير قطر أو مصر)).

استحضرت هذا الأثر وأنا أتابع تداعيات فوز الدكتور محمد مرسي برئاسة مصر ، وأرى المظاهر التالية في أول أسبوع رئاسة له:

١ ـ دخول الدكتور مرسي إلى قصر الجمهورية رئيسا ، وجلوسه على الكرسي الذي كان يجلس عليه مبارك بجبروته وعنجهيته وفرعنته.

٢ ـ التحية العسكرية من طرف المشير طنطاوي والفريق عنان وغيرهما من القيادات العسكرية والشرطية للرئيس مرسي ، وكذلك لقاءه مع المجلس الأعلى للشرطة .

٣ ـ إطلاق عدد من الطلقات المدفعية ، احتفاء بالرئيس مرسي عند دخوله إلى جامعة القاهرة لإلقاء خطابه.

٤ ـ إشراف الرئيس مرسي على تخرج الدفعات العسكرية وتقليده الرتب للطلبة المتخرجين بصفته التي ذكرت وهي القائد الأعلى للقوات المسلحة.

٥ ـ لقاء الرئيس مرسي بالمحافظين ، وتصريحات بعضهم : لقد أوصانا السيد الرئيس بكذا .. ، وأمرنا السيد الرئيس بكذا .. وطالبنا السيد الرئيس برفع تقارير عن كذا .. وهكذا ...

٦ ـ استقبال الرئيس مرسي لأسر الشهداء وقادة الأحزاب والإعلاميين والعلماء ورجال الكنيسة ورؤساء الجامعات وغيرهم من مسؤولي الدولة المدنيين والعسكريين ، وكذا بعض وزراء وسفراء الدول الأجنبية عربية وعالمية في القصر الجمهوري.

٧ ـ حديث بعض عرّابي النظام السابق من إعلاميين ومثقفين وسياسيين وعسكريين عن السيد الرئيس الدكتور محمد مرسي ، رغم حملاتهم المستمرة عليه وعلى مشروعه.

٨ ـ تهاني رؤساء وزعماء الدول الأجنبية العربية والعالمية باسم الدكتور محمد مرسي بمناسبة فوزه بالرئاسة.

٩ ـ خطاب الرئيس محمد مرسي في ميدان التحرير والهتافات والتكبيرات والتفاعل الكبير معه ، والاحتفالات التي عمّت المحافظات والقرى والكفور والنجوع بفوزه بعد إعلان النتيجة.

١٠ ـ تشنيف آذاننا المتكرر بعبارة : الدكتور محمد مرسي رئيس جمهورية مصر العربية ، كأول رئيس دولة منتخب من الإخوان المسلمون منذ تأسيس الجماعة سنة ١٩٢٨ م.

جالت بخاطري وأمام ناظري كل هذه المظاهر ، التي تابعتها كما تابعها غيري ، وأنا أتلو قول الله عز وجل :((وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ))(القصص٥).

حيث رأيت من خلال عشارية المظاهر التي ذكرتها قبل قليل ـ وهناك من المؤكد غيرها ـ التجسيد العملي لهذه الآية الكريمة ، فمن كان يدور بخلده أو يظن أن الدكتور محمد مرسي الذي كان يلاحقه النظام السابق بظلمه وجبروته وتضييقه ، وتردده باستمرار على سجونه ، ومنعه بشكل دائم من السفر خارج البلاد ، حيث كان اسمه في قائمة الممنوعين من السفر لسنوات ، يصبح هو رأس النظام ، وهو الرجل الأول في مصر وبإرادة الشعب المصري بعد إرادة الله عز وجل ، كما تصبح جماعة الإخوان المسلمون تملك الأغلبية في كل مؤسسات الدولة المصرية المنتخبة من الرئاسة إلى البرلمان إلى الشورى إلى المحليات بإذن الله ، بعد الاضطهاد والسجون والحرب الشرسة المعلنة ضدها من طرف النظام السابق في كل الميادين والمجالات ، ولغة الاستهتار والاستهزاء التي كانت تصدع آذاننا من أقطاب النظام وعلى رأسهم مبارك وابنيه وأركان نظامه ، ولا زلنا نستحضر عبارة : خلّيهم يتسلّوا الشهيرة.

ويكفي أن تلاحقها صفة المحضورة في كل شؤونها ، فإذا بالحال يتغير ، ويختفي الكثيرون من الذين كانوا ملأ السمع والبصر ، بحيث غيّب بعضهم السجن والمحاكمات والهجرة أو بالأحرى الفرار وهكذا ، ويصبح مساجين الرأي والملاحقين السابقين ، الذين حوربوا في آرائهم وأرزاقهم ووظائفهم وعائلاتهم ، لا ذنب لهم إلا أن قالوا ربنا الله ، وعارضوا الظلم والاستبداد والانتهاك الصارخ لحقوق الإنسان المصري والعمالة لأعداء الأمة والمتآمرين عليها ، يصبح هؤلاء المستضعفون هم العملة الرابحة والمربحة في الساحة ، وهم الذين يتصدرون المشهد السياس للبلد.

صحيح أن للثورة والثوار وتضحياتهم ودماء الشهداء فضلا كبيرا في هذا التحوّل العظيم الذي شهدته وتشهده مصر ، ولكن قبل ذلك وأثناءه وبعده يعود الفضل في الأول والأخير إلى الله عز وجل الذي وفق هؤلاء الثوار ، وحفظ هذه الثورة ، وكتب لها النجاح رغم كل المؤامرات ، لأن إرادة الشعوب من إرادة الله عز وجل.

لقد من الله على المستضعفين وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين ، لمّا صبروا وصابروا ورابطوا وناضلوا بصدق وإخلاص ، وحاربوا اليأس والقنوط ، رغم كل ما أحاط بهم من مسبباتهما لسنين طوال ، وأحسنوا الإعداد وجهزوا العدة على كل المستويات ، فما اندثروا ولا اندحروا ولا انكسروا ، فإذا بتضحيات ٨٤ سنة وما صاحبها من شهداء ودماء وعرق وجهد وعمل متواصل وإنجازات متتالية ، بحيث حافظوا على الراية مرفوعة خفاقة رغم كل ذلك ، وأبقوا المشروع حيا متحركا طول كل هذه السنين.

لقد يئس وانعزل وانسحب وغيّر الوجهة الكثيرون ، وأصاب التثبيط همم الكثيرين ، وتكسّرت طموحات الكثيرين ، ونزل سقف طموحهم إلى الصفر وتحته ، وتوقفت عقارب عمل ونشاط الكثيرين ، وانسدّ أفق الكثيرين ، إلى الحد الذي جعل بعضهم يدعو الجماعة إلى :(ترك العمل السياسي بكل مفرداته ، والتوقف عن ممارسة الحقوق السياسية ، والتوجه نحو التربية والعمل الاجتماعي) ، و:(عدم جدوى الصراع السياسي بين الإخوان والنظام السياسي المصري) ، و:(أن الصراع مع الأنظمة يذهب بالموجود ولا يأتي بالمفقود) ، حتى بلغ بالبعض إلى أن يكتب :(الحركة الإسلامية ما بعد السياسة) ، كما طالبها البعض الآخر بهدنة والابتعاد عن إكراهات المواجهة السلمية مع النظام لمدة ٢٠ سنة ، وغيرها من الاقتراحات، لكن الجماعة استمرت في طريقها

ومنهجها وعملها وحضورها الفاعل السياسي وغير السياسي ، ولم تثبطها تلك الدعوات والمطالبات ـ رغم حسن نوايا أصحابها وإخلاصهم ـ ، عن اختراق جدار الاستبداد ، وتؤسس بتراكم تجربتها وتضحياتها ، للثورة التي أسقطت صروح النظام البائد ورموزه ، رغم بقاء بعض فلوله تقاوم الاندثار.

وهو درس عملي في العمل التغييري: دعوي وتربوي وسياسي وحضاري واجتماعي ، يغني عن آلاف الدروس النظرية ، فما على الدعاة وناشدي الإصلاح والتغيير بصدق وإخلاص وجد ، إلا أن يطلّقوا اليأس ويستصحبوا الأمل ، ويستمرّوا في بذل جهدهم وجهادهم ، مهما ضاقت بهم السبل وأظلمت الدروب وادلهمت الخطوب ، ومهما واجههم من ظلم وعنت وألم ، وأن لا يستطيلوا الطريق ، فيضعف مشيهم وتبرد هممهم وتنطفئ فاعليتهم ويخبو توهّجهم ، فإن فشلت خطة جددوا غيرها ، وإن تعثرت خطوة خطوا غيرها ، وإن أخطأ خيار راجعوه ونحو خيارا آخر وهكذا ، وما عليهم إلا أن يستحضروا أمامهم هذه اللوحة الواقعية العملية الجميلة والمعبّرة(اللوحة الإخوانية المصرية) ، وما تحمله من جمال المثابرة والصبر والتضحية والأمل والثقة بالنفس والعمل وحسن الإعداد ، المضفي إلى النصر والتمكين والتتويج والمن الإلهي والكرم الرباني .

فإن ينتقل السجين من ظلمات السجن الذي كان في زنازينه قبل سنة ونصف فقط عشية تفجّر الثورة المصرية ، إلى القصر الرئاسي رئيسا منتخبا شعبيا ، ونرى كل المظاهر التي ذكرتها في بداية الموضوع ، فإن ذلك هو استنساخ للمشهد الذي ذكره الصحابي الجليل عتبة بن غزوان رضي الله في الأثر الذي قدمنا به المقال ، هذا المشهد الواقعي الحقيقي والعملي تكرر مرارا على مدار تاريخ هذه الأمة ، ولا يزال يتكرر وقابل للتكرار والاستنساخ في كل زمان ومكان ، إذا روعيت شروطه ووفرت أسبابه وأعدّت وسائله ، فهو من سنن الله عز وجل في هذه الدنيا : :((وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ))(القصص٥).